الإسقاط

في مناهج المستشرقين والمبشرين

الدكتور شوقي أبو خليل

دار الفكر
دمشق - سورية



دار الفكر المعاصر
بيروت - لبنان

الدكتور شوقي أبو خليل

الإسقاط

في مناهج المستشرقين والمبشرين

دار الفكر المعاصر
بيروت - لبنان

الرقم الاصطلاحي: ١٠٣٢,٠١١
الرقم الدولي: ISBN: 1-57547-206-6
الرقم الموضوعي: ٢١٠/ ٢٩٠
الموضوع: استشراق وتبشير
العنوان: الإسقاط في مناهج المستشرقين والمبشرين
تأليف: د. شوقي أبو خليل
الصف التصويري: دار الفكر - دمشق
التنفيذ الطباعي: مطابع المستقبل - بيروت
عدد الصفحات: ٢٤٠ ص
قياس الصفحة: ١٧ × ٢٥سم
عدد النسخ: ١٠٠٠ نسخة

دار الفكر بدمشق
برامكة مقابل مركز الانطلاق الموحد
ص.ب: (٩٦٢) دمشق - سورية
برقياً: فكر
فاكس ٢٢٣٩٧١٦
هاتف ٢٢٣٩٧١٧، ٢٢١١١٦٦
http://www.fikr.com/
E-mail: info @fikr.com





الإعادة الأولى
1419هـ = 1998 م
ط1: 1995

تمهيد

﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴾

[الأنعام : ٦/٤٤]

لفتت نظري عباراتٌ في مقدِّمة كتاب (الإسلام كبديل) للدكتور مراد هوفمان ، سفير ألمانية السَّابق بالمغرب ، كتبتها زعيمة الاستشراق في ألمانية اليوم ، الأُستاذة الدكتورة أنَّا ماري شِمِل ، ومفاد هذه العبارات :

« الإسلام مثلٌ نمطي لتلك التَّأويلات الظَّالمة المشوَّهة » .

إنَّ هذه الصُّورة الظَّالمة الَّتي رُسِمَت ، رُسِمَت بدقَّة وبهدف الإساءة ولو بهتاناً وكذباً ، رُسِمَت في مكاتب (الاستشراق) ، وروَّجت لها ـ وهي تعلم إفكها ـ مؤسَّسات التَّنصير ، الَّتي تعرف بين النَّاس باسم (التَّبشير) .

الاستشراق ـ الَّذي عرَّفه المهتمُّون به ـ بأنَّه تيَّار فكريّ تمثَّلَ في الدِّراسات المختلفة عن الشَّرق الإسلامي ، شملت حضارته وأديانه وآدابه ولغاته وثقافته ، ولقد أسهم هذا التَّيَّار في صياغة التَّصوُّرات الغربيَّة عن العالم الإسلامي ، معبِّراً عن الخلفيَّة للصِّراع الحضاري بينهما .

أو هو : البحث في علوم الشَّرق وعقائده وآدابه ، وإعداد الدِّراسات فيها .

أو هو : علم تاريخ شعوب الشَّرق وحضارتهم ولغاتهم وآدابهم وفنونهم ومعتقداتهم ، نشأ بدافع ديني في الغرب ، جعل دراساته في خدمة التَّنصير (التَّبشير) الَّذي مهَّد للاستعمار ، فالاستشراق في مراحله الأُولى عاش في كنف الكنيسة ترعاه وتوجِّهه ، فلعب دوراً كبيراً في التحضير للاستعمار السِّياسي والثَّقافي والعسكري .

أرجع بعضهم بدايات الاستشراق إلى الحروب الصَّليبيَّة وفشلها عسكريّاً ، فبدأت حرب الكلمة ، ويُعَدُّ عام ١٣١٢ م بداية الاستشراق اللاَّهوتي ، عندما قرَّر مجمع ڤيينا إنشاء عدد من كراسي اللُّغة العربيَّة في عدد من الجامعات الأُوربيَّة .

والاستشراق لم يزل يعمل ، على الرَّغم من أن (جاك بيرك) قد أدلى بتصريحات عام ١٩٧٥ م ، أعلن فيها عمَّا سمَّاه : انتهى زمن الاستشراق ، وتقرَّر أن يطلق على أي مؤتمر للاستشراق : (مؤتمر العلوم الإنسانيَّة) .

والتَّنصير ما زال يعمل ، ومن أواخر جهوده الملفتة للنَّظر (مؤتمر كولورادو) ، الَّذي انعقد في ١٥ تشرين الأوَّل (أُكتوبر) ١٩٧٨ م ، إنَّه من أخطر المؤتمرات التَّبشيريَّة ، فهو يذكِّر بمؤتمر القاهرة التَّبشيري عام ١٩٠٦ م ، ومؤتمر لكنو في الهند عام ١٩١١ م ، ومؤتمر القدس ١٩٢٤ م ...

ومن الكلمات المحرجة في المؤتمر ، والَّتي اعترف بها المؤتمرون :

- الحقائق العلميَّة صدمت المعتقد المسيحي .
- الإسلام هو أكثر النُّظم الدِّينية المتناسقة اجتماعيّاً وسياسيّاً مع البساطة والوضوح .

وتساءل بعض المؤتمرين : كيف يمكن للعقل السَّليم أن يفهم الأقانيم الثَّلاثة واحد في ثلاثة ، والثَّلاثة في واحد ؟!

لقد عُقِد (مؤتمر كولورادو) تحت شعار : (مؤتمر أمريكة الشَّماليَّة لتنصير المسلمين) ، وحضره مئة وخمسون مشتركاً يمثِّلون أنشط العناصر التَّنصيرية في العالم ، ودامت اجتماعاتهم أُسبوعين ، وبشكل مغلق ، فوضع استراتيجيَّة بقيت سرِّيَّة لخطورتها ، مع وضع ميزانيَّة لخطَّتهم مقدارها مليار دولار ، وجُمِعَ المال وأُودع في مصرف أمريكي ، وأنشأ المؤتمر معهداً باسم (صموئيل زويمر) وذلك في شمالي كاليفورنية ، واختير (دون ماكري) مديراً له ، والهدف الأوَّل والأخير تنصير كلِّ المسلمين ، مليار مسلم ، وصدرت التَّوصيات في ألف صفحة .

كلُّ هذه الجهود ، ومجتمعهم غير متمسِّك بمسيحيَّته ، خمسة بالمئة فقط ملتزم بها ، فَلِمَ هذه الجهود ؟ ولِمَ هذه المليارات تُنْفَقُ لتنصير العالم الإسلامي ؟ وحريٌّ بهم أن تتركَّز جهودهم في الغرب ، لإعادة النَّاس إلى دينهم إن استطاعوا ـ بما يملكون من فكر ومنطق وعلم .. ـ إلى ذلك سبيلاً .

وهذه الجهود (التَّنصيريَّة) الَّتي وضع الاستشراق جهوده بين أيديها ، اعتمدت على الكذب والإفك أوَّلاً وأخيراً ، (بإسقاطات) أُدينوا بها ، وما زالوا يتمرَّغون في أوحالها ، ولكن المسلم على يقين :

﴿ إنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُم لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ فَسَيُنْفِقُونَها ثُمَّ تَكُونُ عَلَيهِم حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إلى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴾ ، [الأنفال : ٨/٣٦] .

والحمد لله ربِّ العالمين أوَّلاً وآخراً

الدكتور شوقي أبو خليل

دمشق : ٢٥ رمضان المبارك ١٤١٥ ،

٢٥ شباط (فبراير) ١٩٩٥ م .

تصدير

نخاطب المستشرقين الحاقدين المفترين فقط ،
والمبَشّرين الأُوربيّين المستَعْمِرين المتعصّبين حصراً
ليس غير .

بسم الله القائل في محكم التَّنزيل.. ﴿ وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الكِتَابِ إلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا منهم .. ﴾ [العنكبوت : ٤٦/٢٩] .

وصلّى الله على محمد بن عبد الله ، المرسل رحمة للعالمين ، القائل : لا يكذب المؤمن ، ثمَّ تلا الآية الكريمة : ﴿ إنَّمَا يَفْتَرِي الكَذِبَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الكَاذِبُونَ ﴾ [النَّحل : ١٠٥/١٦] .

من الأمور المثيرة للعجب في عالم الاستشراق والتَّبشير والاستعمار والغزو الفكري ، الأكاذيب الَّتي تُفترى ، والأضاليل الَّتي تُخترع ، والشُّبهات الَّتي يُروَّج لها ، دون رادعٍ من دين ، أو رقيبٍ من ضمير ، أو مانع من عِلم أو حقيقة ...

ومن هذه الأكاذيب والافتراءات ـ على سبيل المثال لا الحصر ـ قول (وليم غلادستون)[1] في معرض حديثه عن المسلم : « إنَّه الإنسان الَّذي لا إنسانيَّة فيه »[2] .

ويقرِّر المسيو كيمون : « إنَّ الدّيانة المحمديَّة جذام بين النَّاس ، أخذ يفتك بهم فتكاً ذريعاً ، بل هي مرض مريع » .

---

(١) وليم غلادستون Gladstone : (١٨٠٩ ـ ١٨٩٨ م) ، سياسي بريطاني ولد في لفربول ، زعيم حزب الأحرار ، ورئيس وزراء بريطانية أواخر القرن الماضي .

(٢) الهلال والصّليب ، ص : ٢٥ .

ويقول لطفي لوثنيان : « إنَّ تاريخ الإسلام كان سلسلة مخيفة من سفك الدِّماء والحروب والمذابح »[1] .

ويذكر كارل بروكلمان ـ للحقيقة والتَّاريخ ، متناسياً كلَّ سماحة الإسلام ـ : « يتحتَّم على المسلم أن يعلن العداوة على غير المسلمين ، حيث وجدهم ، لأنَّ محاربة غير المسلمين واجب ديني »[2] .

ويقول وليم موير : « إنَّ سيف محمد والقرآن هما أكثر أعداء الحضارة والحرِّيَّة والحقيقة الَّذين عرفهم العالم حتَّى الآن عناداً »[3] .

وتيودور نولدكه أوصله علمه إلى : « أنَّ سبب الوحي النَّازل على محمد ، والدَّعوة التي قام بها ، هو ما كان ينتابه من داء الصرع (!) »[4] .

عبارات يفوح منها نتن الافتراء ، ورائحة المستنقعات الآسنة الَّتي رتع فيها وترعرع التَّعصُّب والحقد والبهتان الَّذي يُعمي ويُصم ، والَّذي لا تزال أُوربّة ـ حتّى يومنا هذا ـ سابحة فيه راتعة .

وجاء منشور البابا يوحنا بولس الثَّاني ، الصادر في أواخر سنة ١٩٩٠ م ، ليطالب الولايات المتَّحدة الأمريكيَّة بدعم مالي كي يضاعف التَّبشير جهوده ، « فالإسلام هو

---

(١) التَّبشير والاستعمار ، ص : ٤١ .

(٢) تاريخ الشُّعوب الإسلاميَّة ، ص : ٧٨ ، وبروكلمان Brockelman : (١٨٦٨ ـ ١٩٥٦ م) مستشرق ألماني ، له : تاريخ الآداب العربيَّة ، وتاريخ الشُّعوب الإسلاميَّة .

(٣) الاستشراق ، ادوارد سعيد ، ص : ١٦٨ ، ووليم موير Muir : (١٨١٩ ـ ١٩٠٥ م) مستشرق اسكتلندي ، خدم في حكومة الهند ، له : حياة النَّبي ، والتَّاريخ الإسلامي .

(٤) حاضر العالم الإسلامي : ٣٤/١ ، وتيودور نولدكه Noeldeke : (١٨٣٦ ـ ١٩٣٠ م) ، ولد في همبورغ ، من مشاهير المستشرقين الألمان ، اشتغل خصوصاً في اللُّغات السريانيَّة والعربيَّة والفارسيَّة ، له : تاريخ القرآن .

الدِّين الوحيد الَّذي يتحدَّى انتشار المسيحيَّة ، وهناك تزايـد في الإقبـال على الإسلام ، وانحسار في المناطق المسيحيَّة في الشرق الأدنى وإفريقية ، وهناك جسور للإسلام تتزايد في جنوبي أُوربة »[1] .

عجيب ، غريب موقفهم من الإسلام ، على الرغم من تسـامحـه تجـاههم ، هـذا التَّسامح الَّـذي مـا زالت الكنيسـة تنكره ولا تـدنو من سـاحِـهِ ، وراحت تستغل جهل الأُوربيِّين لتعـاليم الإسلام وتـاريخـه ، وضحـالـة معـارفهم عن الشرق وأهلـه ، فشوَّهت صورة الإسلام في نفوس رعاياها .

والعقل النَّزيه ، البعيد عن التَّعصُّب والرُّوح الصَّليبيَّة يتساءل : ماذا حمل الإسلام إلى أُوربَّة ورفضته ؟

إنَّ حضارة الإسلام بهرتهم عندما كانوا يتسكَّعون في ظلمـات الجهـالـة ، لا يـدرون أين يـذهبـون ، « إنَّ أوَّل شرارة ألهبت نفـوس الغربيِّين ، فطـارت بهـا إلى المـدنيَّـة الحاضرة ، كانت من تلك الشّعلة الموقدة الَّتي كان يسطع ضوؤهـا من بلاد الأنـدلس على ما جاورها ، وعمل رجال الدِّين المسيحي على إطفائها مدَّة قرون فما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً ، واليـوم يرى أهـل أُوربَّـة مـا نبت في أرضهم ، بعـدمـا سقيت بـدمـاء أسـلافهم المسفـوكـة بـأيـدي أهـل دينهم في سبيـل مطـاردة العلم والحرِّيَّـة ، وطـوالـع المـدنيَّـة الحاضرة »[2] .

شعلـة حضـاريَّـة مـوقـدة ، بـدأ عصر التَّـأثُّر غير المبـاشر بهـا منـذ فتـح الأنـدلس سنـة ٧١١ م ، وحتّى تـأسيس مـدرسـة (سـالرنو)[3] في منتصف القرن السَّـادس عشر

(١) المنشور هو الأوَّل منذ سنة ١٩٥٩ ، يحتوي على مئـة وثلاث وخمسين صفحـة ، وهو نتيجـة خمس سنوات من العمل والتجوال على أعمال الكنائس ، واستغرقت كتابة موادّه سنتين ، انظر :
Tye New York Times INTERNATIONAL, Wednesday, january 32, 1991..

(٢) من ردّ الإمام محمد عبده على هانوتو رئيس وزراء فرنسة .

(٣) سالرنو Salerno : مدينة في جنوب إيطالية .

تقريباً ، ليبدأ عصر التَّرجمة من العربيَّة إلى اللاتينيَّة ، خصوصاً في جنوبي إيطاليـة ، ثمَّ بدأ عصر (الاستعراب) ، الَّذي يمثِّل قمَّة التَّأثير العربي الإسلامي وأوجه .

والمنصفون من الغربيِّين يعرفون ذلـك ، يقول غوستـاف لوبـون[1] : « كان تـأثير العرب في الغرب عظيماً للغاية ، فأُوربَّة مدينة للعرب بحضـارتها ، ونحن لا نستطيع أن ندرك تأثير العرب في الغرب إلاَّ إذا تصوَّرنا حالة أُوربَّة عنـدمـا أدخل العرب الحضـارة إليها »[2] .

ويقول سيديو : « لقد حاولنا أن نقلِّل من شـأن العرب ، ولكن الحقيقـة نـاصعـة يشعُّ نورها من جميع الأرجـاء ، وليس من مفرّ أمـامنـا إلا أن نرد لهم مـا يستحقون من عدل إن عاجلاً أو آجلاً »[3] .

ويقول نيكلسون : « وإنَّ أعمال العرب العلميَّة اتَّسمت بالدِّقَّة ، وسعة الأُفق ، وقد استمدَّ منها العلم الحديث ـ بكلِّ ما تحمل هذه العبارة من معان ـ مقـدِّمـاتـه بصورة أكثر فاعلية ممَّا نفترض :[4] .

وعلى الرغم من هذا كلّه ، يحرص الاستشراق الَّذي عاش في معظم مراحلـه في كنف الكنيسـة ، ترعـاه وتـوجِّهـه وتنفـق عليـه ، على طمس كل فضـل لأُمَّتنـا في عقيـدتهـا وتاريخها وأثرها في الحضارة الإنسانيَّة ، وحينما ألَّف (نـاصر الـدِّين دينييـه)[5] كتـابـه (محمد رسول الله)[6] ثارت ثورة المستشرقين ، لأنَّه لم يعبأ بما كتبوا ، وأخذوا عليه أنَّـه

(١) غوستاف لوبون Lebon : (١٨٤١ ـ ١٩٣١ م) من فلاسفة علم الاجتماع الفرنسيِّين .

(٢) G. Lebon La Civilisation des Arabes P.614.

(٣) L. Sedillot Histoire Generale des Arabes Vol. 11 P.131.

(٤) R.A. Nicholson: A Literary History of the Arabs P.281.

(٥) ناصر الدِّين دينييه (ألفونس إتيين دينييـه) ولـد في بـاريس سنـة ١٨٦١ ، وتوفِّي سنـة ١٩٢٩ ، عـاش فنّاناً بطبعه ، صاحب لوحات نفيسة قيِّمة ، أعلن إسلامه في اجتماع حافل بمدينـة الجزائر سنـة ١٩٢٧ ، شيَّد لنفسه قبراً في بلدة (بوسعادة) في الجزائر دفن فيه .

(٦) ترجمة د . عبد الحليم محمود ، ود . محمد عبد الحليم محمود ، طبع دار المعارف ـ القاهرة .

لم يَقِم وزناً لإنتاجهم في السِّيرة النَّبويَّة ، وأنَّ اعتماده إنَّما كان على ابن هشام وابن سعد ...

ونبَّه (دينييه) إلى أنَّ « الافتتان بالمستشرقين لا أساس له » ، وهذا أمر طبيعي ، لأنهم أساتذة في فكر رفضوه ، وعقيدة ألحدوا بها ، وتاريخ حقدوا عليه ، وحضارة يحرصون على إدانتها وهضمها حقّها .

وهذا ما قاله (رجاء غارودي) : « لم يدرس الغرب الإسلام دراسة صحيحة في الجامعات الغربية ، وربما كان هذا مقصوداً مع الأسف » .

و (فردريك نيتشه) يقول عن رجال الكنيسة : « لا يخطئون فقط في كلِّ جملة يقولونها ، بل يكذبون ، أي إنَّهم لم يعودوا أحراراً في أن يكذبوا ببراءة أو بسبب الجهل »[1] .

ولذلك ألَّف الكاتب البريطاني (جان دوانبورت) كتاباً عنوانه : (اعتذار لمحمّد والقرآن) ، اعتذر فيه عن التَّصوُّرات والأحكام الَّتي كانت شائعة في الغرب حول نبيّ الإسلام ، والقرآن الكريم .

واللُّورد البريطاني المسلم (هدلي)[2] يوضِّح : « أنَّ مُدَبِّجي وناسجي هذه الافتراءات لم يتعلَّموا حتَّى أوَّل مبادئ دينهم ، وإلاَّ لما استطاعوا أن ينشروا في جميع أنحاء العالم تقارير معروف لديهم أنَّها محض كذب واختلاق » .

---

(١) عدو المسيح ، المقطع ٣٨ .

(٢) سيف الرَّحمن رحمة الله فاروق هدلي ، توفِّي بلندن سنة ١٩٣٥ عن إحدى وثمانين سنة ، تخرَّج في جامعة كمبردج ، وحصل على درجة علميَّة في الرِّياضيَّات ، اشتغل بالتَّعليم والصَّحافة والهندسة ، كان - رحمه الله - رجلاً واسع الأفق ، زكي الفؤاد ، حصيف الرَّأي ، عالي الهمَّة ، قوي العزيمة ، لم يدَّخر جهداً ، ولا مالاً ، في سبيل نشر الإسلام ، (انظر تقديمه لكتاب : المثل الأعلى في الأنبياء ، الَّذي ألَّفه خواجة كمال الدِّين أوائل هذا القرن) .

إنَّ حرِّيَّة الرَّأي عندهم أن تقول ما يرضي الكنيسة فقط ، وما يؤيِّد أكاذيبها وافتراءاتها ، فحينما ألَّف (برناردشو)[1] كتاباً عن (محمد - ﷺ -) ، منعته الكنيسة من إصداره ، فلم يَرَ النُّور قط .

وحينما رأى (تولستوي)[2] الحملة الظَّالمة على الإسلام ، وعلى رسوله ، كتب رأيه في هذا الدِّين الَّذي أُعجب به ، واعتذر من رسول الله ﷺ الَّذي نال إكباره ، فكان جزاؤه على ذلك - أي على كلمة الحق - أن حرمه البابا من رحمة الله .

قال (تولستوي) عن رسول الله ﷺ : يكفيه فخراً أنَّه فتح طريق الرُّقي والتَّقدُّم ، وهذا عمل عظيم لا يفوز به إلاَّ شخص أُوتي قوة وحكمة وعلماً ، ورجل مثله جدير بالاحترام والإجلال .

هذا ما كان في زمن (تولستوي) ، أما اليوم فقد أوردت صحيفة (هيرالد تريبيون) البريطانية الخبر التالي :

فصلت الكنيسة الإنجليزية بجنوب إنجلترة ستين قسِّيساً بعد إعلانهم التشكيك في العقيدة المسيحية ، وكان القس (أنطوني خريمان) قد ألَّف كتاباً شكَّ فيه في عقائد الكنيسة الإنجيليَّة وذكر أن التثليث وتجسيد الإله في المسيح والصَّلب ، **كلُّ هذا يعتبر المنطق والعقل ، وقد حظي القسيس (أنطوني) بتأييد عددٍ لا بأس به من** قساوسة الكنيسة الإنجيلية ، مما دعا الكنيسة إلى فصله وفصل ستِّين **معه من الخدمة .**[3]

وبعد هذا كلّه ...

---

(١) جورج برناردشو Shaw (١٨٥٦ - ١٩٥٠ م) كاتب روائي ومسرحي إيرلندي ولد في دبلن ، اشتهر بالتَّهكُّم والتَّشاؤم ، له : رجل القدر ، تلميذ الشَّيطان ، السِّلاح والرَّجل ...

(٢) لاون تولستوي Tolstoi (١٨٢٨ - ١٩١٠ م) كاتب قصصي روسي ، أشهر رواياته : الحرب والسَّلام ، وآنّا كارنينا .

(٣) عن نهج الإسلام ، العدد ٦٠ ، أيار ١٩٩٥ ، ص : ١٨١ .

الدِّفاع عن عقيدتنا وتاريخنا وأعلامنا ، دفاع عن وجودنا وأصالتنا وجذورنا .

ولقد آن الأوان ، أن نتجاوز مرحلة الدِّفاع الَّتي شُغِلْنا بها أكثر من قرنين من الزَّمن ، لنعبر إلى مرحلة إظهار الحقيقة ، والصُّورة الصَّحيحة (**لإسقاطاتهم**) .

والإسقاط (Projection) حيلة لا شعوريَّة تتلخَّص في أن يَنْسِب الإنسان عيوبه ونقائصه ، ورغباته المستكرهة ، ومخاوفه المكبوتة الَّتي لا يعترف بها ، إلى غيره من النَّاس ، أو الأشياء ، أو الأقدار ، أو سوء الطَّالع ... وذلك تنزيهاً لنفسه ، وتخففاً ممَّا يشعر به من القلق أو الخجل أو النَّقص أو الذَّنب[1] .

فالإسقاط هو العمليَّة النَّفسيَّة الَّتي نخلع بها تصوُّراتنا ورغائبنا وعواطفنا على الآخرين ، أو على موضوع من الموضوعات ، وهذا ما ينطبق على الكنيسة والاستشراق والتَّبشير ...

إنَّ كلَّ الأكاذيب والشُّبهات والتَّشويه ، والدَّسِّ الخبيث ، والافتراءات الَّتي وُجِّهت إلى عقيدتنا وتاريخنا وأعلامنا ، نحن منها براء قطعاً ، ولكن الكنيسة والمستشرقين والمبشِّرين وجَّهوها إلينا خبثاً وحقداً ، صليبيَّة ومكراً ، لنقف موقف المتَّهم المدافع عن نفسه ، الَّذي يسعى بكلِّ ملكاته وإمكاناته لدفع ما وُجِّه إليه ، خشية الإدانة .

ومن يدرس (كتابهم المقدَّس) وما ينشرون وما يروِّجون ، يعلم علم اليقين أن ما حاولوا وصم الإسلام به كذباً وإفكاً ، **هو من قبيل الإسقاط المدروس ، الإسقاط الواعي ، الَّذي يكذب وهو يعلم أنَّه يكذب ، « لا يخطئون فقط في كل جملة يقولونها** ، بل يكذبون ، أي إنَّهم لم يعودوا أحراراً في أن يكذبوا ببراءة وبسبب الجهل » .

إنَّه **الإسقاط** الصَّادر عن لجان ومؤتمرات ، وعن حَمَلَةِ الأقلام الموظَّفة ، وعن معاهد الاستشراق في جامعاتهم .

(١) أصول علم النَّفس ، د . أحمد عزت راجح ، المكتب المصري الحديث ، الإسكندريَّة ، الطَّبعة الثَّامنة ، سنة ١٩٧٠ .

وإسقاطهم هذا ـ مع منطلقاته الكذَّابة الخادعة ـ من أسبابه وأهم عوامله ، شعورهم بالنَّقص ، بسبب عقلانيَّة الإسلام وعلميَّته ، وخرافات عقيدتهم وأسرارها ورموزها المتناقضة ... ولا عجب أن يقفوا في حيرةٍ وهم في غاية الاندهاش والإحباط ، وهم يرون مقاعد كنائسهم خاوية ، مع إلحاد رعاياهم بهم وبعقيدتهم ، ويرون في الوقت ذاته ، الإسلام أول العقائد انتشاراً في العالم ، على الرغم من مليارات الدولارات الَّتي تنفق في إفريقية وجنوب شرقي آسية في التَّبشير ، مقابل عفويَّة دعاة الإسلام وبساطتهم على الأغلب .

ونرى في ختام هذا التَّصدير ، انطلاقاً من ضرورة (**الأمن الثَّقافي**) ، تأسيس مركز للجنة دائمة ، تستقبل تساؤلات الشَّباب المسلم ، وما يستجد من افتراءات التَّبشير وأكاذيبه ، لتفنيدها وفضحها ، والإجابة عنها من قِبَلِ متخصِّصين غيورين ، لتنشر ضمن كتاب يصدر دوريّاً في لغات ثلاث : العربيَّة ، والإنكليزيَّة ، والفرنسية .

وأخيراً ...

سنورد في هذا الكتاب معظم إسقاطاتهم وبشكل موثَّق ، وذلك من قبيل إظهار الحقيقة ، والصِّدق والموضوعيَّة ، وكفى الإسلام دفاعاً ، أمام مُدَان يحرص على إدانته .

ولن نشرح كلَّ شيء عن الإسلام ، بعد كلِّ إسقاط سنورده ، بل سنذكر ما يناسب لتوضيح فكرة ، أو شرح موقف ، فبعض الرَّبيع ببعض العطر يُخْتَصَر .

ولكن سنذكر كلَّ إسقاط ، ونشرح وبشكل مفصَّل ، أنَّ هذا الإسقاط فيهم وفي عقيدتهم وفي سلوكهم ، وفي كتبهم ، ومع ذلك يحاولون وصم الإسلام به .

سنوضِّح ذلك بالتَّوثيق الكامل ، دون خشية لوم ، فاللَّوم لا ينصب على من يوضِّح حقيقة ، بل يجب أن ينصبَّ على مروِّج الكذب والخداع والتَّعصُّب و (الإسقاط) ، ولقد قيل بحق : من أمسك الثُّعبان من ذيله ، أمسك به الثُّعبان ، فلن نمسك الثُّعبان إلاَّ من رأسه .

جاء في (كتاب الأمثال)[1] ، باب (تعيير الإنسان صاحبه بعيب هو فيه) ، قال الأصمعي : من أمثالهم في هذا : « رمَتني بدائها وانْسَلَّت » .

قال أبو عبيد (القاسم بن سلام) ، ويحكى عن المفضَّل أنَّه كان يقول : هذا المثل قيل لرُهْم بنت الخزرج ، وكانت امرأة سعد بن زيد مناة بن تميم ، وكان لها ضرائر ، فسابَّتها إحداهنَّ يوماً ، فرمتها رُهْمُ بعيب هو فيها ، فقالت ضُرَّتها : « رَمتني بدائها وانسَلَّت » ، فذهب مثلاً .

إنَّ هذه الإسقاطات والشُّبهات لم تكن وليدة هذا العصر أو ما قبله ، إنَّها منذ أن شرع الله الدِّينَ الحنيف ، ولكن كبر على المشركين أن يدينوا بهذا الدِّين ، فصالوا وجالوا في إنكارهم ومعارضتهم وافتراءاتهم ، والدِّين قويم ومتين بعزّة الله له وتأييده ، وهؤلاء مثلهم :

كناطحٍ صخرةً يوماً ليوهنها فلم يَضِرْها ، وأوهى قَرنَه الوَعِلُ

وتأتي هذه الدِّراسات أمانةً في أعناقنا لتقديم الحقيقة ، وبيان البغي الَّذي يقدِّمه الاستشراق والتَّبشير ، وصدق الله العظيم القائل :

﴿ اللهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ، وَمَا تَفَرَّقُوا إلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ العِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُم ، وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَبِّكَ إلى أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُم وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الكِتَابَ مِن بَعْدِهِم لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ ، فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُم ... ﴾ [الشُّورى : ١٣/٤٢ـ١٥] .

ونحن في هذا الكتاب ، نخاطب المستشرقين الحاقدين ، لا كلَّ المستشرقين ، والمبشِّرين الأُوربيِّين المستعمِرين حصراً ليس غير .

---

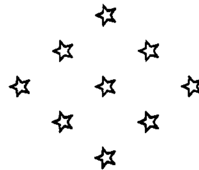
(١) تأليف : الإمام الحافظ أبي عبيد القاسم بن سلام ، تحقيق د . عبد المجيد قطامش ، طبعة : دار المأمون للتُّراث بدمشق ، سنة : ١٩٨٠ .

اللَّهُمَّ أَرِنَا الحقَّ حقّاً ، وارزقنا اتِّباعه ،
وأَرِنَا الباطل باطلاً ، وارزقنا اجتنابه .

﴿ لاَ يَـزَالُ بُنْيَـانُهُمُ الَّـذِي بَنَـوْا رِيبَـةً فِي قُلُـوبِهِمْ إِلاَّ أَن تَقَطَّـعَ قُلُـوبُهُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [التَّوبة : ٩/١١٠] .

والحمد لله ربِّ العالمين أوَّلاً وآخراً

الدكتور شوقي أبو خليل



الإسقاط الأول

الإسلام بدعة نصرانيَّة

قال البابا (أينوشانيوس الثَّالث)[1] عن محمَّد ﷺ : إنَّه المسيح الدَّجال[2] .

ورئيس بعثات التَّبشير في المشرق (صموئيل زويمر)[3] قال مخاطباً المسيحيِّين في رسالة دعاها : (وهديناه النَّجْدَيْن The Two Roads In The Quran) : لستم مضطَّرين إلى تغيِّير داخلي في عقيدتكم ، ولا إلى تجديد الطَّبيعة ، إذا رغبتم في اعتناق الديانة الإسلاميَّة[4] ...

وفي كتاب (العقيدة والشَّريعة في الإسلام) قال (جولد تسيهر)[5] : « فتبشير النَّبي العربيّ ، ليس إلاَّ مزيجاً من معارف وآراء دينيَّة عرفها أو استقاها بسبب اتِّصاله بالعناصر اليهوديَّة والمسيحيَّة وغيرها ، والَّتي تأثَّر بها تأثُّراً عميقاً ، ورآها جديرة بأن توقظ عاطفة دينيَّة حقيقيَّة عند بني وطنه »[6] .

(١) اينوشانيوس الثَّالث Innocent : (١١٩٨ ـ ١٢١٩ م) .

(٢) حاضر العالم الإسلامي : ٨٣/١ .

(٣) صموئيل زويمر Zwemer : (١٨٦٧ ـ ١٩٥٢ م) مبشِّر أمريكي حاقد ، حرَّر مجلَّة (العالم الإسلامي) ، والتي عُرِفَت بعدائها السَّافر للإسلام والمسلمين .

(٤) ينابيع المسيحيَّة ، ص : ٦ .

(٥) اجنيس جولد تسيهر Goldziher (١٨٥٠ ـ ١٩٢١ م) مستشرق مجري يهودي ، درس في برلين ولايبسيغ وبودابست والأزهر ، (موسوعة المستشرقين ، ص ١١٩) .

(٦) الغزو الفكري والتَّيارات المعادية للإسلام ، ص : ٤٤١ .

وقـال فيليب حِتّي[1] : « لقـد نسـج الإسـلام في ترتيب صـلاة الجمعـة على منـوال اليهود في عبادتهم بالكنيس ، إلاّ أنّـه تـأثّر من بعـدُ بطقوس صلاة الأحـد التي يمـارسهـا النّصارى في البِيَع »[2] .

وقـال كارل بروكلمـان[3] : « اقتبس النّبي عن التّـوراة فكرة الخطيئـة الأصليّـة .. وإنما ترجع معتقداته فيما يتعلّق بالعالم الآخر إلى مصادر يهوديّة ، وهكذا تتصل بصورة غير مباشرة بمصادر فارسية وبابلية قديمة »[4] .

وقال غوستاف لوبون[5] : « وإذا أرجَعْنا القرآن إلى أصولـه ، أمكننـا عَـدُّ الإسلام صورة مختصرة من النّصرانية ، والإسلام يختلف عن النّصرانيـة ـ مع ذلـك ـ في كثير من الأصول ، ولا سيما في التّوحيد المطلق الذي هو أصل أساسي »[6] .

وصـدر عن جـامعـة كمبردج كتـاب يهـاجم الإسـلام ، تحت اسم : (الهـاجِريّـة) وتكوين العـالم الإسلامي[7] ، بقلم : بـاتريشيـان كرون ، وميكل كـول ، البـاحثين في دراسات التّاريخ الاقتصادي للشّرق الأوسط ، ومما جاء في الكتاب المذكور :

الإسلام دين وضعي ، أُسِّست قواعده في عهد الخليفة عبد الملك بن مروان[8] ، أمّا

(١) فيليب حِتّي ، ولد في لبنـان سنـة ١٨٨٦ م ، ودرس في الجـامعـة الأمريكيّـة في بيروت ، ثمّ هـاجر إلى الولايات المتحدة وأتمّ دراسته ، وعُيّن مستشاراً لوزارة الخارجيّة الأمريكيّة في شؤون الشّرق الأوسط .

(٢) تاريخ العرب المطوّل ، ص : ١٨١ .

(٣) كارل بروكلمان Brockelmann : (١٨٦٨ ـ ١٩٥٦ م) مستشرق ألماني .

(٤) تاريخ الشّعوب الإسلاميّة ، ص : ٧٠ .

(٥) غوستـاف لوبـون : (١٨٤١ ـ ١٩٣١ م) مستشرق فرنسي منصف إلى حدٍّ بعيـد ، دافـع عن حضـارتنـا الإسلاميّة ، وانتقد سياسة القهر التي عسفتهم بها الدُّول الأُوربيّة المستَعْمِرة .

(٦) حضارة العرب ، ص : ١٥٨ .

(٧) Hagariem: The Making of Islamic World

(٨) عبد الملك بن مروان بن الحكم الأموي : (٦٤٦ ـ ٧٠٥ م) ، من أعاظم الخلفاء ودهاتهم ، نشأ في المدينـة المنوّرة ، فقيهاً واسع العلم ، متعبّداً ، ناسكاً ، انتقلت إليه الخلافة بموت أبيـه فضبـط أمورهـا ، توفّي في دمشق ، (الأعلام : ١٦٥/٤) .

ما كان قبل ذلك فقد كان شيئاً اسمه (الهاجِريَّة) ، و (الهاجِريَّة) هي عبارة عن كلام كتبه الأسقف (ذيبوس) يقول فيه : إنَّ النَّبي يبشِّر بدين يعد استكمالاً للديانة (الهاجِريَّة) ، وإنَّ هذا الاسم ينسب إلى السيدة هاجر زوجة إبراهيم وأُم إسماعيل .

ووصل التَّمويه بالكاتِبَيْن إلى حدِّ التَّضليل والتَّشكيك في حدوث الهجرة النَّبويَّة ، ويقولان : إنَّ اسم هاجر هذا تمَّ تحريره بعد ذلك في القرن الثَّامن الميلادي ، ليعطي معنى الهجرة من مكَّة إلى المدينة ، وهي واقعة يشكِّك فيها الباحثان ، ويحاولان الادِّعاء بأن هذه الهجرة لم تحدث قط[1] .

وأصدر (إلياس المر) في لبنان سنة ١٩٨٥ ، كتاباً عنوانه : (الإسلام بدعة نصرانيَّة) .

وهكذا ... تتَّفق آراء الكنيسة والمستشرقين ـ عموماً ـ على أنَّ الإسلام دين مقتبس من اليهوديَّة والنَّصرانيَّة ، « ومن هنا هان على المسلم المؤمن ـ إذا استثنينا بعض الأحوال ـ أن يُسلِّم بمعظم ما تنطوي عليه العقائد المسيحيَّة »[2] .

ولسنا هنا في موقف الدِّفاع عن الإسلام ، وتوضيح أنَّه دين جديد ، ويختلف كلَّ الاختلاف عن المسيحيَّة واليهوديَّة ، وخصوصاً المسيحيَّة المعاصرة ، الموجودة الآن على اختلاف كُتُبها وأناجيلها ومذاهبها ، فهي في جميع ألوانها وفروعها عبادة وطقوس ، وانحراف عن الوحدانية إلى التَّثليث ، ومن هنا كان (الإسقاط) ، فالمسيحيَّة الحاليَّة ،

---

(١) وادَّعى الكاتبان أنَّ مصادر كتابها يهوديَّة ، ثمَّ يقولان : إنَّها قبطيَّة وأرمنيَّة وسريانيَّة مجهولة أهلها المؤرِّخون ، وليس أدل على ضلال هذه الوجهة وتكذيبها ، من أنَّ هذه المصادر لو كانت موجودة لما جهلها الباحثون خلال هذه الأجيال المتتابعة ، ولنشروها ، وقد نشروا ما هو أتفه منها ، (القرن الخامس عشر الهجري ، والتَّحدِّيات في وجه الدَّعوة الإسلاميَّة والعالم الإسلامي ، ص : ٢٩٥ ، أنور الجندي ، المكتبة العصريَّة) .

(٢) تاريخ العرب المطوَّل ، ص : ٢ .

بدعة يهوديَّة ووثنيَّة ، وهذا ثابت علمياً ، ولكن الكنيسة أسقطت ذلك على الإسلام ، وهذا الدليل :

يقول الدكتور فرانز غريس في كتابه (تبدُّد أوهام قسِّيس)[١] : إنَّ البحوث والاستقصاءات العلميَّة ، أثبتت ، وأقامت البرهان والدَّليل على أنَّ ثمانين إصحاحاً من التِّسعة والثَّمانين للأناجيل الأربعة ، ما هي إلاَّ صورة ونسخة عن حياة وتعاليم (كرشنا)[٢] ، و (بوذا)[٣] ، فيا لها من نتيجة محزنة للنَّصارى ، وحصيلة مفجعة للنَّصرانيّة ، ويا له من منظر ومشهد أليم لأجل شخص المسيح ، إن العالم النَّصراني أخذ بالسُّقوط والانهيار ، إنَّه يغطس ويغوص ، ويرسب ويسوخ[٤] .

إنَّ عيد ميلاد (أغني Agni) ، الابن الوحيد لـ (ساويستري Sawistri) ، أي الأب السَّماوي ، احتفل به منذ أربعة آلاف عام قبل ميلاد يسوع المسيح[٥] .

والأستاذ (رودلف سيِدل Prof. Rodalf Seydel) العالم اللاَّهوتي البروتستانتي ، والأستاذ في جامعة لايبسيغ (ألمانية) ، وأحد الكبار في زمانه ، يقول في كتابه (أسطورة بوذا) : فإنه من ثمانية وعشرين إصحاحاً التي يتألَّف منها إنجيل متّى ، فإنَّ إصحاحَيْن منها فقط هما : الثَّاني والعشرون ، والرَّابع والعشرون خاليان من النُّصوص الهندوسيَّة ، ومن إنجيل مرقس الذي يتكوَّن من ستَّة عشر إصحاحاً ، فإنَّ إصحاحَيْن أيضاً هما : السَّابع ، والثَّاني عشر غير منقولين ، وفي إنجيل لوقا ، الإصحاح

(١) تبدُّد أوهام قسِّيس ، لمؤلِّفه : فرانز غريس Prof. Franz Griese مطبعة دار الطِّباعة (الضِّياء) - بوينوس آيرس - الأرجنتين ، ترجمة عن الإسبانيَّة : السيِّد خليل سعيد ذو الغنى .

(٢) كرشنا Krishna : إله هندي ، هو : (المخلِّص والفادي والمعزِّي والرَّاعي الصَّالح ، والوسيط وابن الله ، والأُقنوم الثَّاني من الثَّالوث المقدَّس ، وهو الآب والابن وروح القدس ..) ، انظر : العقائد الوثنيَّة في الديانة النَّصرانيّة ، للمرحوم محمد طاهر التَّنير ، ص : ١٨٠ وما بعدها .

(٣) - بوذا (غوماتا سيدهاتا : ٥٦٤ - ٤٨٣ ق.م) .

(٤) تبدُّد أوهام قسِّيس ، ص : ١١٤ .

(٥) تبدُّد أوهام قسِّيس ، ص : ١٤٦ .

السَّادس عشر ، والسَّابع عشر ، والعشرون فقط من مجموع أربعة وعشرين إصحاحاً التي يتشكل منها الإنجيل المذكور ، هي ليست منتحلة ، أي مسروقة ، ثمَّ إنجيل يوحنا المتضمِّن واحداً وعشرين إصحاحاً ، فإنَّ الإصحاحَيْن العاشر والسَّابع عشر فقط خاليان من النَّقل .

والعالم البروتستانتي (هابل Happel) مؤرِّخ الأديان ، يوافق ويؤيِّد أقوال (رودلف سيدل) ، ويذكر ويسمِّي ستَّة وثلاثين نصّاً في الكتاب المقدَّس ، مقتبسة عن العقائد الوثنيَّة ، منها : تجسُّد يسوع ، الطفل يسوع في الهيكل ، قصَّة مريم المجدليَّة الخاطئة ، ومعجزة المشي على الماء[1] .

والعالم (برنهارد سبيس Prof. Bernhard Spiess) العليم بالسَّنسكريتيَّة ، وبالخط المسماري ، يقرِّر ويثبت ويجزم بأنَّ الأمثال بأجمعها ـ تقريباً ـ التي في الأناجيل ، هي نسخ عن أمثال الهندوسيِّين والسُّومريِّين والآشوريِّين ، وخصوصاً سلسلة الأمثال التي تتعاقب في الإصحاح الثَّالث عشر من إنجيل متّى[2] .

و (غارب Garbe) يقول[3] : إنَّ أكبر وأعظم علمائنا اللاَّهوتيِّين أمثال (هارناك Harnack) ، و (غونكل Gunkel) يعدُّون النَّصرانيّة ويحسبونها بسهولة وببساطة وإخلاص وصراحة كدين توفيقي تلفيقي ، أي يعادل التَّوفيق بين النَّقيضَيْن ، أو بين المذاهب والآراء المتناقضة ، وهو مذهب توحيد المذاهب المتناقضة (Sineretismo) .

والمكتبة المنطقيَّة في باريس (شارع ڤوجيرارد ، رقم ٦/٤١) ، نشرت عدداً من الكتب الجليلة الفائدة العلميَّة في هذا الخصوص ، في أحد هذه الكتب المسمّى (مشكلة

(١) تبدُّد أوهام قسّيس ، ص : ١٧١ .
(٢) تبدُّد أوهام قسّيس ، ص : ١٧٢ .
(٣) أورد هذا النَّص (فرانز غريس) أيضاً ، ص ١٧٢ ، في (تبدُّد أوهام قسيس) ، عن كتاب : الهند النَّصرانيّة ـ دار الطِّباعة : ج ڤاب موهر توبنجن .

يسوع والمصادر النَّصرانيّة) للأب القس الكاثوليكي ـ سابقاً ـ وأُستاذ تـاريخ الأديـان في جامعة استراسبورغ ، وكان الفاتيكان قد أعلن حرمـانـه بتـاريخ ٢٠ تموز ١٩٣٣ ، لأنَّـه شـكَّ وارتـابَ في كتـابـات الفـاتيكان ومحـاضراتـه عن أُلـوهيَّـة المسيـح ، وعن وجـوده أيضاً[١] .

و (إرنست رينان)[٢] قال : « إن عبادة (ميترا) قد وصلت إلى رومة في القرون الثَّلاثة الأولى بعد المسيح ، لدرجة أنه لو لم يتنصَّر الإمبراطور قسطنطين ، لأصبح العالم ميترانياً ـ أي يعبد ميترا ـ عوضاً عن أن يكون عيسوياً ـ يعبد عيسى ـ »[٣] .

الأستاذ (هيلشر Hielsher) من بلدة Cattbus في بروسية (بألمانيـة) ، وهو عـالم لاهوتي بروتستـانتي ، نشر مؤلَّفـاً في خمسـة مجلـدات بعنوان : (تحرِّيـات واستقصـاءات تتعلَّق بتـاريخ الرَّسول بولس ، مع نتـائج دراسـة عشرين عـامـاً حول الرَّسول بولس ، وإنَّ نتيجة دراسته الرَّئيسة والأساسيَّة والقطعيَّة النِّهائيَّة خلاصتها ما يلي :

إنَّ أعمـال الرُّسل التي تحتوي تـاريـخ الرُّسـل ، إنَّما هي تـزوير وتـزييف وتلفيـق وتمويه اختلقته وصاغته الكنيسة النَّصرانيّـة بعـد العـام الخـامس والأربعين والمئـة لميلاد يسوع المسيح[٤] .

« ابتـدع اليهود واخترعوا وابتكروا وأوجـدوا النَّصرانيّـة لأجل الشُّعوب الأخرى ، ولولا شعار : (أحبُّوا أعداءكم) لاختفوا وتواروا وتلاشوا وزالوا وبادوا وانقرضوا »[٥] .

---

(١) تبدُّد أوهام قسِّيس ، ص : ١٧٥ .

(٢) إرنست رينـان Renan : (١٨٣٢ ـ ١٨٩٢ م) كاتب وعـالم أثري فرنسي ، لـه : (حيـاة يسوع) ، كان من أوّل المهتّمين بالتّنقيب في لبنان وفلسطين .

(٣) تبدُّد أوهام قسِّيس ، ص : ١٧٥ .

(٤) تبدُّد أوهام قسِّيس ، ص : ١٧٥ .

(٥) تبدُّد أوهام قسِّيس ، ص : ١٨٣ .

وهناك رأي هام في (دائرة المعارف الفرنسية : ١١٧/٥) خلاصته : أنَّ المصادر المسيحيَّة كلّها من عمل شاؤول[1] (بولس) ، أو من عمل أتباعه ، وليست الأسماء الموضوعة عليها إلا أسماء مستعارة غير حقيقيَّة .

والأناجيل والأبحاث التي تعارض اتِّجاه بولس فنيت إلى الأبد ، وفي قمَّتها إنجيل المسيح ، وإنجيل لوقا ، وإنجيل يوحنا ، أمَّا الرسائل فهي (بُولسيّة) كلُّها ، أي منسوبة إلى بولس وأتباعه بلا شك .

« والعجيب أنَّ الفاتيكان يعترف إلى حدٍّ كبير بموقف بولس من المسيحيَّة ، وعدم حرصه عليها ، فقد جاء في كتاب نشره الفاتيكان سنة ١٩٦٨ م بعنوان : (المسيحيَّة عقيدة وعمل ، ص : ٥٠) ما يلي : كان القدِّيس بولس منذ بدء المسيحيَّة ينصح لحديثي الإيمان أن يحتفظوا بما كانوا عليه من أحوال قبل إيمانهم بيسوع .

وذلك أمرٌ يستدعي الدَّهشة ، فليس لإنسان أن يسمح لمؤمن أن يظلَّ على ما كان عليه قبل الإيمان ، ولكن بولس لم يكن يهتم بالمسيحيَّة ، وكان تشويهها وتدميرها هدفاً من أهدافه »[2] .

وهكذا ... إن مصادر المسيحيَّة وثنيَّة قطعاً ، منها ما هو مصري قديم ، فالإله (أُوزوريس) إله مصري فرعوني ، ذهب ضحيَّة روح الشَّر ، وله ثالوث مقدَّس هو : (أُوزوريس وإيزيس وحورس) ، لذلك يقول الدكتور محمد حماد : « المسيحيَّة ديناً ليست بعيدة في أُسسها عن العقائد المصريَّة القديمة ، وهناك تشابه كبير بين الاثنين في كثير من الوجوه »[3] .

---

(١) شاؤول (بولس) ، يهودي اضطهد المسيح وأتباعه وأفرط ، وكان راضياً بقتل المسيحيين ، وكان يسطو على الكنيسة ، ويجرُّ رجالاً ونساء ويسلِّمهم إلى السِّجن كما جاء في (أعمال الرُّسل ٦٠/٧ و ٣/٨) ثمَّ أصبح سنة ٣٣ م رسولاً ومؤسِّس ديانة ؟!!

(٢) مقارنة الأديان (المسيحيَّة) ، ص : ١٢٩ .

(٣) المرجع السَّابق ، عن : الفنون والطِّراز القبطي ، ص : ٦ .

ولو أردنا إيراد مقارنة بين بوذا والمسيح ، وبين كرشنا والمسيح ، وبين مِتْرا والمسيح ، لكان لزاماً علينا أن نسجِّل كتابين كاملين هما : (العقائد الوثنيَّة في الديانة المسيحيَّة) للمرحوم محمد طاهر التَّنير[1] ، و (ينابيع المسيحيَّة) للمرحوم خواجه كمال الدِّين[2] . ولكننا نكتفي بالتَّلميح والاختصار .

أو بعد هذا كلِّه ، يقال عن الإسلام إنه مقتبس عن المسيحيَّة أو اليهوديَّة وفيه رواسب وثنيَّة ؟؟!

الأمر لا يحتاج إلى كبير عناء لإظهار (الإسقاط) في القول المذكور ، فالتَّوراة - التي بين أيدي النَّاس حاليّاً - والتي تبتدئ بسفر التَّكوين ، وهي جماع عقائدهم الدِّينيَّة ، غير مسند إلى أحد من أنبياء بني إسرائيل ، ولذا فلا حاجة إلى القول بأن عقائده سابقة للنُّبوءات الإسرائيليَّة ، وأنَّ اليهود تعلَّموه ممن سبقهم ، سواء كان من وحي الأنبياء الأسبقين ، أو من تراث الشُّعوب الموروث عن الأسلاف .

أما متى وأين كُتِبَت التَّوراة ؟ فالعلماء مجمعون على أنها كتبت بعد موسى بزمن طويل ، وكُتِبَ معظمها في الأَسْر البابلي[3] ، مقتبسة من أساطير الشُّعوب القديمة .

ينكر المبشِّرون على الإسلام ونبيِّه كلَّ صواب ، وكلَّ فضل ، وكلَّ جديد ، ويريدون أن يثبتوا لأتباعهم قبل أن يدرسوا الإسلام ويعجبوا به ويعتنقوه ، أنَّه مزيج متنافر بين اليهوديَّة والمسيحيَّة والوثنيَّة ، وخطؤهم كامنٌ في حقدهم الذي أوصلهم

---

(١) محمد طاهر التَّنير : (ت ١٩٣٣) باحث من أهل بيروت ، (الأعلام : ١٧٣/٦) .

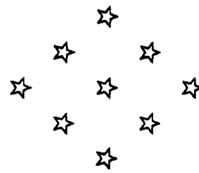
(٢) خواجه كمال الدِّين : (١٨٧٠ - ١٩٣٢ م) ولد في لاهور ، وعمل محامياً فيها ، ثمَّ نزح إلى بريطانيَّة عام ١٩١٢ وتفرَّغ للعمل الدِّيني ، وحتى وفاته يعتبر إماماً لمسلمي بريطانية ، له خمسة عشر كتاباً ، أهمها : المثل الأعلى في الأنبياء ، ينابيع المسيحيَّة ، لمحات من حياة الرَّسول ، دراسة الإسلام ، حديث المائدة ، الوحي ضرورة . (Who was who المجلد الثَّالث ، النَّاشر A & C Black) .

(٣) مقارنة الأديان (اليهوديَّة) ، ص : ٢٥٦ .

إلى قِصَر النَّظر ، فمن الغريب ألاّ نجد شيئاً مشتركاً بين الديانات السَّماوية[1] ، لقد جاء موسى متأخِّراً عن إبراهيم فآمن به ، وجاء عيسى متأخِّراً عنهما ، فآمن بإبراهيم وموسى ، وجاء محمد ﷺ بعدهم ، فآمن بإبراهيم وموسى وعيسى ، عليهم أفضل الصَّلوات والتَّسليم .

أمَا وقد قرَّرت البحوث العلميَّة أن ينابيع المسيحيَّة وثنيَّة ، كما قال الدكتور بارنز في عظته في شهر آب (أُغسطس) ١٩٢٥ : إن معظم الشَّعائر الدِّينيَّة المسيحيَّة قد اقتُبست من الوثنيَّة ، ومنها العشاء الرَّبَّاني الذي تسرَّب إليها من الشَّعائر المعروفة عن عبادة الشَّمس ، وكما قرَّر المجلس الأدنى لمجمع (كنتربوري) بجلسة في شهر تموز (يوليو) ١٩١٧ : أنَّ الكتاب المقدَّس ليس كلام الله صِرْفاً ، ولكنَّه مشوب بالأقاصيص التي كانت تجري على ألسنة النَّاس ، كما أنَّ كثيراً من الحوادث الواردة فيه لا يقبلها العقل[2] .

أَمَا وقد تقرَّر هذا ، فكل ما وجِّه إلى دين التَّوحيد المطلق لله عزَّ وجلَّ ـ الإسلام ـ (إسقاط) ليس غير .



(١) من حيث الإيمان بالله ، والحساب ، واليوم الآخر ، والملائكة .

(٢) ينابيع المسيحيَّة ، ص : ٨٥ .

الإسقاط الثاني

الإسلام مقتبس من اليهوديَّة والمسيحيَّة

« وتذهب الرِّوايات إلى أنه [ﷺ] اتَّصل في رحلاته ببعض اليهود والنَّصارى ، أما في مكَّة نفسها ، فلعله اتَّصل بجماعات من النَّصارى كانت معرفتهم بالإنجيل هزيلة إلى حدٍّ بعيد »(١) .

« وتقول القصَّة إنَّ محمداً سافر مرة مع عمِّه إلى سوريَّة ، فتعرَّف في بُصْرى براهب نسطوري في دير نصراني ، فتلقَّى منه عِلْم التَّوراة »(٢) .

« اقتبس النَّبي عن التَّوراة فكرة الخطيئة الأصليَّة »(٣) ، « وإنَّما ترجع معتقداته [ﷺ] فيما يتعلَّق بالعالم الآخر إلى مصادر يهوديَّة ، وهكذا تتصل بصورة غير مباشرة بمصادر فارسيَّة وبابليَّة قديمة »(٤) .

« لقد نسج الإسلام في ترتيب صلاة الجمعة على منوال اليهود في عبادتهم بالكنيس ، إلا أنه تأثَّر من بعد بطقوس صلاة الأحد التي يمارسها النَّصارى في البِيَع »(٥) .

(١) كارل بروكلمان في (تاريخ الشعوب الإسلاميَّة ، ص : ٣٤) .
(٢) غوستاف لوبون في (حضارة العرب) ص : ١٣٠ .
(٣) كارل بروكلمان ، ص : ٧٠ . (٤) كارل بروكلمان ، ص : ٧١ .
(٥) فيليب حتِّي في (تاريخ العرب المطوَّل) ، ص : ١٨١ .

« وإذا أرجعنا القرآن إلى أصوله ، أمكننا عَدّ الإسلام صورة مختصرة من النَّصرانيَّة ، والإسلام يختلف عن النَّصرانيَّة ـ مع ذلك ـ في كثير من الأصول ، ولا سيما في التَّوحيد المطلق الذي هو أصل أساسي »(١) .

لقد علَّم ورقةُ بن نوفل ـ ذلك الفكر النَّصراني الكبير ـ محَّداً ، « ومحمد كان لا يملك بين يديه سوى إنجيل القس ورقة ، وهو لا يؤمن بأُلوهيّة ولا بصلب ، فصدّقه ودعا إليه قومه »(٢) .

« هذه الشَّذرات الإلهيّة ، من أين أتى بها شعراء الجاهليّة [التي اقتبسها القرآن منهم] لولم يطَّلعوا من أهل الكتاب ، وخاصَّة النَّصارى على إيمانهم وما يشمله هذا الإيمان ... »(٣) !!

« ... والسِّرُّ الكبير في ثقافة محمد الكتابيّة والإنجيليّة ، وجود العالم المسيحي ورقة بن نوفل من بني أسد ، ابن عم السَّيِّدة خديجة في جوار النَّبي ، وهو الذي زوَّجه ابنة عمّه ، فقد أجمعت الآثار على أن ورقة تنصَّر ، وكان يترجم التَّوراة والإنجيل إلى العربيَّة ، فهو إذن عالم مسيحي كبير ، وقد عاش محمد في جواره خمسة عشر عاماً قبل مبعثه ، ألا تكفي هذه المدة لنابغة العرب محمد بن عبد الله لكي يأخذ شيئاً من علوم التَّوراة والإنجيل »(٤) ؟

لسنا في موقف الدِّفاع عن الإسلام في هذه الصَّفحات ، فللدفاع موقف آخر في غير هذا الكتاب ، لأنَّ الهدف هنا إظهار (الإسقاط) ، ولكن قبل البدء بتوضيح هذا

---

(١) حضارة العرب ، ص : ١٥٨ .

(٢) من كتاب (قس ونبي) المنحول لاسم خيالي هو : أبو موسى الحريري ، والذي اعتمده إلياس المر في كتابه : (الإسلام بدعة نصرانيَّة) .

(٣) أديان العرب قبل الإسلام ووجهها الحضاري والاجتماعي ، للأب : جرجس داود داود .

(٤) يوسف حداد : (القرآن والكتاب) قسم ٢ ، أطوار الدعوة القرآنية : ١٠٥٩ ـ ١٠٦٠ م .

(الإسقاط) الجديد ، لابد من القول : لوعلَّم بَحِيرى أو ورقة بن نوفل محمداً ﷺ شيئاً من الفكر النَّصراني ، لما آمن بمحمَّد (رسول الله) قرشي واحد .

وأحداث البعثة وما بعد الهجرة ، أين كان منها بحيرى الذي مات قبل البعثة ؟ وأين كان منها ورقة بن نوفل الذي توفي سنة ١٢ قبل الهجرة ؟

هذا ... ومن الغريب ألا نجد شيئاً مشتركاً بين الدّيانات السَّماوية(١) ، لقد جاء موسى متأخِّراً عن إبراهيم فآمن به ، وجاء عيسى متأخِّراً عنهما فآمن بإبراهيم وموسى ، وجاء محمد بعدهم فآمن بإبراهيم وموسى وعيسى ، عليه وعليهم أفضل الصَّلوات والتَّسليم ، كما قلنا في الإسقاط الأوَّل .

وبعد ...

يقول المسيح في إنجيل متَّى ١٧/٥ : « لاتظنُّوا أنِّي جئت لأنقض النَّاموس أو الأنبياء ، ماجئت لأنقض بل لأُكمِّل » .

والمسيحيَّة ـ في أناجيلها الأربعة المعتمدة ـ لاتشريع فيها ، لذلك فهي ملزمة بأخذ كلّ تشريعاتها من العهد القديم (التَّوراة) ، لذلك تطبع الكنيسة (الكتاب المقدَّس) في عهديه القديم والجديد معاً ، في مجلَّد واحد .

أمَّا ماأخذته المسيحيَّة عن العقائد الوثنية ، وجعلته من صلب عقيدتها ، فنختصر بعضه بالتَّالي :

---

(١) على ما بقي في اليهودية والمسيحية بعد التحريفات والتغييرات والإضافات .

٨ـ كانت ولادة القدّيس راما قبل ظهور كرشنا في النّاسوت بزمن قليل وقد سعى قانسا ملك البلاد في إهلاك راما ، وإهلاك كرشنا أيضاً .	٨ـ وكانت ولادة يوحنا المعمدان قبل ولادة يسوع المسيح بزمن قليل ، وقد سعى الملك هيرودوس في إهلاك يوحنا ، كما سعى في إهلاك الطّفل يسوع المسيح ، وكان يوحناً مبشّراً بولادة يسوع المسيح .
٩ـ وفي أحد الأيّام لسعت الحيّة بعض أصحاب كرشنا الذين يلعب معهم فماتوا فشفق عليهم لموتهم الباكر ، ونظر إليهم بعين أُلوهيّة فقاموا سريعاً من الموت وعادوا أحياء .	٩ـ وبينما كان يسوع يلعب لسعت الحيّة أحد الصّبيان الذين كان يلعب معهم فلمس يسوع ذاك الصّبي بيده فعاد إلى حال صحّته .
١٠ـ وأوّل الآيات والعجائب التي عملها كرشنا شفاء الأبرص .	١٠ـ وأول الآيات والعجائب التي عملها يسوع المسيح هي شفاء الأبرص .
١١ـ كرشنا صُلِبَ ومات على الصّليب .	١١ـ يسوع صُلِبَ ومات على الصّليب .
١٢ـ لما مات كرشنا حدثت مصائب وعلامات شرٍّ عظيم .. وأظلمت الشّمس ..	١٢ـ لما مات يسوع حدثت مصائب جمّة متنوّعة .. وأظلمت الشّمس ..
١٣ـ وثقب جنب كرشنا بحربة .	١٣ـ وثقب جنب يسوع بحربة .
١٤ـ وقال كرشنا للصّيّاد الذي رماه بالنّبلة وهو مصلوب : اذهب أيُّها الصّيّاد محفوظاً برحمتي إلى السّماء مسكن الآلهة .	١٤ـ وقال يسوع لأحد اللّصّين اللذَين صُلِبا معه : « الحقُّ أقول لك إنّك اليوم تكون معي في الفردوس » .
١٥ـ ومات كرشنا ثمَّ قام من بين الأموات .	١٥ـ ومات يسوع ثمَّ قام من بين الأموات .
١٦ـ ونزل كرشنا إلى الجحيم .	١٦ـ ونزل يسوع إلى الجحيم .
١٧ـ وصعد كرشنا بجسده إلى السّماء ، وكثيرون شاهدوه صاعداً .	١٧ـ وصعد يسوع بجسده إلى السّماء ، وكثيرون شاهدوه صاعداً .
١٨ـ ولسوف يأتي كرشنا إلى الأرض في اليوم الأخير ، ويكون ظهوره كفارس مدجّج بالسّلاح ، وراكب على جواد أشهب ، وعند	١٨ـ ولسوف يأتي يسوع إلى الأرض في اليوم الأخير كفارسٍ مدجّج بالسّلاح ، وراكب جواداً أشهب ، وعند مجيئه تظلم الشّمس

مجيئه تظلم الشّمس والقمر وتزلزل الأرض ، وتهتزّ وتتساقط النّجوم من السّماء .	والقمر أيضاً ، وتزلزل الأرض ، وتهتزّ وتتساقط النّجوم من السّماء .
١٩- كرشنا هو براهما العظيم القدّوس ، وظهوره بالنّاسوت سِرٌّ من أسراره العجيبة الإلهيّة .	١٩- يسوع هو يَهْوَه العظيم القدّوس ، وظهوره في النّاسوت سِرٌّ من أسراره العظيمة الإلهية .
٢٠- وقال كرشنا : « أنا النور الكائن في الشّمس والقمر ، وأنا النور في اللهب ، وأنا نور كل ما يضيء ونور الأنوار ليس فيَّ ظلمة » .	٢٠- ثمّ كلّمهم يسوع قائلاً : « أنا هو نور العالم ، من يتبعني فلا يمشي في الظّلمة » .

ويختم المرحوم (محمد طاهر التّنّير) : [مقارنة النّص الصّريح بين كرشنا ويسوع المسيح] ، في كتابه : (العقائد الوثنيّة في الديانة المسيحيّة) ، بقوله : « هذا شيء قليل من كثير ، اكتفينا به حبّاً بالاختصار » ونحن اكتفينا حبّاً بالاختصار أيضاً بأقل من نصف المقارنة .

أمّا مقابلة النّص الصّريح بين بوذا ويسوع المسيح ، وهو مقابلة ما يقوله الهنود الوثنيّون عن بوذا ، بما تقوله النّصارى عن يسوع المسيح ، ففيها العجب العجاب أيضاً ، ونختار منها على سبيل المثال ، التّالي[1] :

(١) انظر (العقائد الوثنيّة في الديانة المسيحيّة) ، ص : ١٩٦ - ٢١٣ ، حيث توثيق كلّ فقرة من فقرات الجدول ، و (ينابيع المسيحيّة) ، ص : ١٦٠ - ١٧١ .

أقوال الهنود الوثنيّين في بوذا ابن الله	أقوال النّصارى المسيحيّين في يسوع المسيح ابن الله
١ـ وُلِدَ بوذا من العذراء مايا بغير مضاجعة رجل .	١ ـ وُلِدَ يسوع المسيح من العذراء مريم بغير مضاجعة رجل .
٢ـ كان تجسُّد بوذا بواسطة حلول روح القدس على العذراء مايا .	٢ـ كان تجسُّد يسوع المسيح بواسطة حلول روح القدس على العذراء مريم .
٣ـ لما نزل بوذا من مقعد الأرواح ، ودخل في جسد العذراء مايا ، صار رحمها كالبلور الشَّفاف النَّقي ، وظهر بوذا فيه كزهرة جميلة .	٣ـ لما نزل يسوع من مقعده السَّماوي ، ودخل في جسد مريم العذراء صار رحمها كالبلور الشَّفاف النَّقي ، وظهر فيه يسوع كزهرة جميلة .
٤ـ ولد بوذا ابن العذراء مايا التي حلَّ فيها الروح القدس يوم عيد الميلاد (أي في ٢٥ كانون الأوَّل) .	٤ـ ولد يسوع ابن العذراء مريم التي حلَّ فيها الروح القدس يوم عيد الميلاد (أي في ٢٥ كانون الأوَّل) .
٥ـ وعرف الحكماء بوذا وأدركوا أسرار لاهوته ، ولم يمضِ يوم على ولادته حتى حيَّاه النَّاس ودعوه إله الآلهة .	٥ـ وقد زار الحكماء يسوع وأدركوا أسرار لاهوته ، ولم يمضِ يوم على ولادته حتى دعوه إله الآلهة .
٦ـ كان بوذا ولداً مخيفاً ، وقد سعى الملك بمبسارا وراء قتله لَمَّا أخبروه أن هذا الغلام سينزع الملك من يده إن بقي حيّاً .	٦ـ كان يسوع ولداً مخيفاً ، سعى الملك هيرودوس وراء قتله ، كي لا ينزع الملك من يده .
٧ـ لما صار عُمر بوذا اثنتي عشرة سنة دخل أحد الهياكل ، وصار يسأل أهل العلم مسائل عويصة ، ثم يوضِّحها لهم حتى فاق مناظريه كافّة .	٧ـ لما صار عُمر يسوع اثنتي عشرة سنة جاؤوا به إلى (الهيكل) أُورشليم ، وصار يسأل الأحبار والعلماء مسائل مهمة ، ثم يوضِّحها لهم ، وأدهش الجميع .
٨ـ ودخل بوذا مرَّة أحد الهياكل ، فقامت الأصنام من أماكنها وتمدَّدت عند رجليه سجوداً له .	٨ـ وكان يسوع مارّاً قرب حاملي الأعلام فأحنت الأعلام رؤوسها سجوداً له .

٩ـ لما عزم بوذا على السِّياحة ، قصد التَّعبُّد والتَّنسُّك ، وظهر عليه (مارا) أي الشَّيطان كي يجرِّبه .	٩ـ لما شرع يسوع في التَّبشير ، ظهر له الشَّيطان كي يجرِّبه .
١٠ـ فلم يعبأ بوذا بكلام الشَّيطان ، بل قال له : « اذهب عنِّي » .	١٠ـ فأجابه يسوع ، وقال : اذهب ياشيطان .
١١ـ وصام بوذا وقتاً طويلاً .	١١ـ وصام يسوع وقتاً طويلاً .
١٢ـ وقد عُمِّد بوذا المخلِّص ، وحين عمادته بالماء كانت روح الله حاضرة ، وهو لم يكن الإله العظيم فقط ، بل وروح القدس الذي فيه صار تجسُّد كوتاما لما حلَّ على العذراء مايا .	١٢ـ ويوحنا عمَّد يسوع بنهر الأُردن ، وكانت روح الله حاضرة ، وهو لم يكن الإله العظيم فقط ، بل والرُّوح القدس ، الذي فيه تمَّ تجسُّده عندما حلَّ على العذراء مريم ، فهو الآب والابن والرُّوح القدس .
١٣ـ وعمل بوذا عجائب وآيات مدهشة لخير النَّاس ، وكافَّة القصص المختصة فيه حاوية لذكر أعظم العجائب مما يمكن تصوُّره .	١٣ـ وعمل يسوع عجائب وآيات مدهشة لخير النَّاس ، وكافَّة القصص المختصة فيه حاوية لذكر أعظم العجائب مما يمكن تصوُّره .
١٤ـ لما مات بوذا ودفن انحلَّت الأكفان ، فتح غطاء التَّابوت بقوة غير طبيعيَّة (أي بقوة إلهيَّة) .	١٤ـ لما مات يسوع ودفن انحلت الأكفان ، وفتح القبر بقوة غير اعتياديَّة ، أي بقوة إلهيَّة .
١٥ـ وصعد بوذا إلى السَّماء بجسده لَمَّا أكمل عمله على الأرض .	١٥ـ وصعد يسوع بجسده إلى السَّماء من بعد صلبه لَمَّا كمل عمله على الأرض .
١٦ـ ولسوف يأتي بوذا مرَّة ثانية إلى الأرض ، ويعيد السَّلام والبركة فيها .	١٦ـ ولسوف يأتي يسوع مرَّة ثانية إلى الأرض ، ويعيد السَّلام والبركة فيها .
١٧ـ بوذا الألف والياء ليس له ابتداء ولا انتهاء وهو الكائن العظيم والواحد الأزلي .	١٧ـ يسوع الألف والياء ، ليس له ابتداء ولا انتهاء ، وهو الكائن العظيم ، والواحد الأبدي .

١٨ـ قال بوذا : فلتكن الذُّنوب التي ارتكبت في هذه الدُّنيا عليَّ لأُخلِّص العالم من الخطيئة .	١٨ـ يسوع هو مخلِّص العالم ، وكافة الذُّنوب التي ارتكبت في العالم تقع عليه عوضاً عن الذين اقترفوها ويخلِّص العالم .
١٩ـ قال بوذا إنه لم يأتِ لينقض النَّاموس ، كلا ، بل أتى ليكمله وقد سرَّه عدّ نفسه حلقة في سلسلة المعلمين الحكماء .	١٩ـ وقال يسوع : « لاتظنُّوا أنّي جئت لأنقض النَّاموس أو الأنبياء ، ماجئت لأنقض بل لأُكمل » .
٢٠ـ وكان قصد بوذا تشييد مملكة دينيَّة ، أي مملكة سماويَّة .	٢٠ـ « ومن ذلك الزَّمان ابتدأ يسوع يَكْرِزُ ويقول توبوا لأنَّه قد اقترب ملكوت السَّموات » .
٢١ـ وقال بوذا : « الرَّجل العاقل الحكيم لا يتزوَّج قط ، ويرى الحياة الزَّوجية كأتون ناره متأجِّجة ومن لم يقدر على العيشة الرهبانيَّة يجب عليه الابتعاد عن الزِّنى .	٢١ـ « فَحَسَنٌ للرَّجل أن لا يمسَّ امرأة ، ولكن إن لم يضبطوا أنفسهم فليتزوَّجوا لأنَّ التزوُّج أصلح من التحرُّق » .
٢٢ـ كان بوذا يعلم أفكار النَّاس عندما يدير تصوُّراته نحوهم ، ويقدر على معرفة أفكار المخلوقات كلِّها .	٢٢ـ كان يسوع يعلم أفكار النَّاس عندما يدير تصوُّراته نحوهم وأنه قادر على معرفة أفكار المخلوقات كلِّها .
☆ ومن جملة الألقاب والأسماء التي يدعون بها بوذا : أسد سبط ساقيا ، وحكيم ساقيا ، والواحد السعيد ، والمعلِّم ، والغالب ، والواحد المبارك ، وربّ العالمين ، والحاضر ، وإله الجميع ، والعظيم ، والأبدي ، ومزيل الآلام والأتعاب ، وحافظ العالم ، والإله بين الآلهة ، والمسيح ، والمولود الوحيد ، وطريق الحياة ... إلخ .	☆ ويدعون يسوع المسيح (عليه السَّلام) بمثل الأسماء والألقاب التي دعي بها بوذا ، ومنها : أسد سبط يهوذا ، المخلِّص ، المولود البكر ، إلهاً مباركاً ، قدُّوس الله ، إلهاً مباركاً إلى الأبد ، وملك الملوك ، حَمل الله ، ربّ المجد ، رب الأرباب ، الفادي ، المخلِّص ، الوسيط ، الكلمة ، ابن الله ، المولود البكر ، حامل الآثام ... إلخ .

فحكاية (رب المسيحية) ليست بالأولى من نوعها ، بل حكاية الإله (بعل) إله بابل الشمسي ، كانت في الوجود من قبل ميلاد عيسى بقرون ، وكانت تمثّل كأساة مألوفة ، ورأى اليهود خلال السَّبي البابلي الذي بدأه (نبوخذ نصَّر) سنة ٥٨٦ ق.م - وظلّوا هناك أجيالاً - إنَّ هذه المأساة تمثّل كلَّ سنة عند دخول الرَّبيع في عيد القيامة ، فأتوا عند رجوعهم بكثير من تقاليد وعادات عبادة الشَّمس التي يمكن للإنسان ملاحظتها بسهولة في الأدبيّات اليهوديّة ، وأدوار الرواية الأصليّة قد حُلَّت رموزها من بعض ألواح اكتشفت مع آثار وبقايا بابل ، وتقول مجلة (الكويست) : إن هناك لوحين بابليَّيْن يتبعان السِّجلات المكتوبة باللُّغة الآشوريّة التي اكتشفت بواسطة الحفّارين الألمان في سنة ١٩٠٣ - ١٩٠٤ في قلعة شرقاط ، والتي هي مدينة آشور على نهر دَجْلَة ، عاصمة الآشوريِّين الأقدمين ، وهما كانا ضمن المكتبة الآشوريّة التي كانت موجودة في القرن التاسع قبل الميلاد ، أو قبل ذلك ، وهما مع ذلك صورتان طبق الأصل عن ألواح بابليّة أقدم من ذلك بكثير .

وهذا اللوحان يكشفان عن حقائق مدهشة جدّاً ، حقائق أزعجت الآلاف من العقول المستقيمة النَّزيهة في العالم المسيحي وأربكتها ، وليس تشابه بعض وجوه الرِّوايَتَيْن وأدوارهما - رواية عيسى ورواية بعل - هو الذي يثير الدَّهشة ، بل لأنَّ الرِّوايتين ماهما إلاَّ رواية واحدة ، وكلٌّ منهما طبق أصل الأخرى ، وذلك لا يجعل سجلاَّت الأناجيل سجلاَّت غير أصليَّة فقط ، بل يجعلها منتحلة انتحالاً تامّاً .

يقول الخواجة أفندي كمال الدِّين ، في كتابه (ينابيع المسيحيّة ، ص : ١٣٣) : « إنِّي أترك القرَّاء يقرِّرون هذه النقطة ، ويحكمون في الموضوع بأنفسهم ، وإنِّي أذكر لهم الآتي من عدد مجلَّة (الكويست) الصَّادر في يناير (كانون الثَّاني) سنة ١٩٢٢ م » :

رواية الآلام البابليّة (بعل)	رواية الآلام المسيحيّة (عيسى)
يساق بعل أسيراً .	يساق عيسى أسيراً .
يحـاكم بعـل في منزل على الرَّابيـة (غرفـة المحاكمة) .	يحاكم عيسى في منزل رئيس الكهنة .
يُضرَب بعل .	يُجْلَد عيسى .
يساق بعل إلى الرَّابية .	يساق عيسى إلى الصَّلب في جلجلة .
يساق مع بعل شريران أحدهما يُقْتَل ، والآخر يُطْلَق سراحه .	يساق مع عيسى شريران يعـدمـان ، وآخر (باراباس) يطلق سراحه .
عندما يصعد بعل على الرَّابية تتزلزل المدينـة ، وتحدث فيها مواقع .	عنـد مـوت عيسى يُمـزَّق حجـاب الهيكل وتتزلزل الأرض ، وتتشقَّق الصُّخـور ، وتفتح القبور ، ويخرج الأموات إلى المدينة المقدَّسة .
تؤخذ ملابس بعل .	تقتسم العساكر ملابس عيسى .
تمسح امرأة الـدَّم النَّـابع من قلب بعـل إثر خروج السِّلاح (حَرْبَة) .	يطعن عيسى بحربة في جنبه ويخرج دم وماء تأتي مريم المجدليَّة وامرأتان أُخريان (لغسل) وتحنيط الجثَّة .
ينزل بعـل تحت الرَّابيـة بعيـداً عن الشَّمس والنُّور وتذهب عنه الحياة .	يـدخـل عيسى في القبر داخـل الصَّخرة ، ويـذهب تحت إلى قسم الأمـوات ويـزور جهنَّم .
يـلاحـظ الحرّاس بعـل وهـو سجين في معقـل الرَّابية .	يوضع الحرّاس على قبر عيسى .
تجلس الآلهة مع بعل قد أتت لتعنى به .	مريم المجدليَّـة ومريم الأُخرى تجلسـان أمـام القبر .
يبحثـون عن بعـل في أي مكان هـو مقيم خصوصاً امرأة بـاكيـة تبحث عنـه في المقبرة ، وعندما يؤخذ تصيح مولولـة : « آه يـاأخي ، آه ياأخي » .	تـأتي النِّسـاء خصوصاً مريم المجـدليَّـة إلى القبر ليبحثن عن عيسى خلف بـاب القبر ، فتقف مريم بـاكيـة أمـام القبر الخـالي لأنَّهم أخـذوا سيِّدها بعيداً .

يرجع بعل ثانياً إلى الحيـاة (كشمس الرَّبيع) ثم يخرج من الرَّابية . والعيد الأكبر عند البـابليِّين وهو رأس السَّنة يكون في مـارس في زمن الاعتـدال الرَّبيعي ، ويحتفل بـه لأن فيـه كان انتصـاره على قـوات الظَّلام .	رجوع عيسى إلى الحياة وخروجـه من القبر في (صباح أحد) . عيــده الــذي يكــون في الاعتــدال الرَّبيعي تقريباً ، يحيي ويعظم أيضاً كانتصـار لـه على قوّات الظَّلام .

« أليست حكاية (الكتاب المقدَّس) مصبوبة في القالب الـذي صبَّت فيـه حكايـة بعل (البابليَّة) فضلاً عن تماثل التَّفاصيل » ؟

ألا يـدلُّ وقوع الصَّلب بـالطَّريقـة التي قُصَّت في (الكتـاب المقـدَّس) ، على أنَّهـا ملفَّقة ومأخوذة من كرشنا وبوذا وبعل ؟

إنَّ جُلَّ عقائد المسيحيِّين وأعمالهم وأعيـادهم المقـدَّسـة ، كانت موجودة في الأصل في العالم الوثني بـأشكالها وأُسسهـا وترتيبـاتهـا من قرون مضت قبل ظهور المسيح ، « وإذا تبَيَّن لهم أنَّ المسيح نفسه ليست له علاقة مـا بهـذه الأشيـاء ، ألا يكون هـذا الوقت هو الوقت المنـاسب لأن يصحِّح متَّبعوه الحقيقيّون اعتقـادهم ، ويواجهوا الحقـائق الـدِّينيّـة وجهاً لوجه مع الآخرين الذين هم ليسوا على دينهم » ؟

أمَـا آن للمسيحي أن يتعرَّف ، وبشكل علمي - على مـواد البنـاء التي استخـدمهـا (بولس) في بناء الكنيسة ؟

أما آن للتَّبشير والاستشراق - الذي ترعرع تحت كنف الكنيسة - أن يقدِّمـا كلمـة الصِّدق ، حبّاً للحقيقة وسعياً وراءهـا ، وأن يبتعـدا عن الافتراءات والكـذب ، ويتركا حالات (الإسقاط) المتكرِّرة فيا وجَّهوه إلى الإسلام وأهله ؟

لقد تيقَّنت نفوسهم بأنَّ النَّصرانيّة بدعة وثنيّة ، فأسقطوا مـا بهم - زوراً وبهتـانـاً - على الإسلام ، فقالوا : الإسلام بـدعـة نصرانيَّـة ، ظنـاً منهم أنَّ حقـائق العلم والتَّـاريخ بعيدة عن متناوَل أيدي المسلمين .



محمد بن عبد الله ﷺ
طفولته غامضة

مما يلفت النَّظر في مدرسة الاستشراق الألمانية ، ثلاثة من مستشرقيها ، هم أهمّ أعلامها : تيودور نولدكه ، وكارل بروكلمان ، وريسكه ، وهذا الأخير مع سعة علمه ، وإتقانه للنَّحو العربي ، واطِّلاعه على الكتب العربيَّة المطبوعة حتى سنة ١٧٣٦ م ، كان كلَّما أمعن في دراسة الكتب العربيَّة ازداد بالعربيَّة ولوعاً ، فاطَّلع على المخطوطات العربيَّة في جامعة ليدن .

لقد أبغض اللاهوتيُّون ريسكه أشدَّ البغض ، وحاربوه فتحطَّمت آماله في الحصول على وظيفة أستاذ بإحدى الجامعات الألمانيّة ، وكان عليه أن يقبل وظيفة في مدرسة ثانويَّة ، واعترض رجال الدين على تعيينه مديراً لمدرسة ، لولا أنه لفت إليه انتباه الوزير الكونت ڤاكربرت ، ووعده بإزالة ما عسى أن يثيره رجال الدِّين ضدَّ تعيِّينه مديراً من اعتراضات .

ولم يجد ريسكه ناشراً واحداً يقبل أن ينشر له كتبه في ميدان الدِّراسات العربيَّة ، فاضطر أن ينشر ما نشر من ذلك على نفقته الخاصّة ، وهو الفقير المُعدَم .

وتساءلت : لِمَ لَمْ يلقَ ريسكه ، ما لقيه نولدكه وبروكلمان من شهرة ؟

فعدت إلى ترجماتهم ونتاجهم ، فوجدت أن نولدكه وبروكلمان لم يقدِّما حقائق تثير رجال الدِّين في أُوربة ، بل قدَّم الرَّجلان ما يرضيهم تماماً ، فرُوِّج لِما قدَّما ، ونُشِرَ ما ألَّفا ، فاغتنى الرَّجلان ، وعمَّت شهرتها الآفاق ، وبلغت عَنان السَّماء .

بينما نطق ريسكه بما اقتنع ، وكتب ما أملاه عليه ضميره ، ونشر ما اعتقده بعيداً عن رأي رجال الدِّين وسطوتهم ، فقال ـ مثلاً ـ : « إنَّ ظهور محمد وانتصار دينه ، هما من أحداث التَّاريخ التي لا يستطيع العقل الإنساني إدراك مداها » ، ويرى في ذلك « برهاناً على تدبير قوَّة إلهيَّة قديرة » .

لقد أبغض اللاهوتيُّون ريسكه أشدَّ البغض ، لأنَّه مجَّد الإسلام ، ولم يوافقهم على أكاذيبهم وافتراءاتهم حول محمد بن عبد الله ﷺ خصوصاً ، وحول الإسلام وتاريخه عموماً ، وفي ذلك يقول (فوك) : « لقد كان متَّهماً عند اللاهوتيِّين بأنَّه حرُّ التَّفكير ، ولم يسايرهم في ادِّعائهم أنَّ محمداً كان نبيّاً زائفاً وغشاشاً ، وأن ديانته خرافات مضحكة » ، لذلك لم يحصل على منصب جامعي ، وعُيِّن مدرِّساً في إحدى الثَّانويّات ، وثارت ثائرة رجال الدِّين عندما اقترح لإدارة ثانويَّة ، فنُقل إلى متحف للنُّقود ، لا يرى أحداً ، ولا يراه أحد ، لا يتَّصل بأحد ، ولا يتَّصل به أحد[1] .

سقت ما سبق ، تمهيداً لما قاله كارل بروكلمان في كتابه (تاريخ الشُّعوب الإسلاميَّة)[2] ـ وهو الذي لم يقدم ما يثير رجال الكنيسة ـ :

« ولسنا نملك بيِّنة موثوقاً بها عن حياة النَّبي الأُولى ، إلاَّ هذه الآيات القرآنيّة من سورة الضُّحى [٩٣/٦ـ١١] : ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى ☆ وَوَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدَى ☆ وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى ☆ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلاَ تَقْهَرْ ☆ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلاَ تَنْهَرْ ☆ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ .

لم أجد سبباً يدعو بعض المستشرقين أو المبشِّرين إلى القول المغاير للحقيقة والعلم ، حين قالوا بأنَّ فترة طفولة النَّبي ﷺ ، وفترة شبابه حتى نبوَّته « حياة النَّبي الأُولى » لا نعرف عنها شيئاً ، فكيف أجازوا لأنفسهم أن يقولوا ذلك ، وهم يعلمون كما يعلم كلُّ

---

(١) كارل بروكلمان في الميزان ، ص : ٥ و ٦ .
(٢) تاريخ الشُّعوب الإسلاميَّة ، ص : ٣٣ .

إنسان أُتيح له شيءٌ من الثّقافة والدّراسة التّاريخيّة أنّه لم تعرف ترجمة لحياة إنسان في التّاريخ ، كما عرفت ترجمة حياة محمد بن عبد الله ، نبي الإسلام ﷺ ، فلم يكن من أسرة مغمورة أو مجهولة ، فهو حفيد سيّد قريش وعظيمها عبد المطّلب ، وهو مَنْ تحدّثت عنه مكّة ويثرب ، لما أحاط ولادته من ظروف قاسية ، حيث توفّي أبوه عبد الله في دار الغربة ، في يثرب ، تاركاً ابناً لم تلده أُمّه آمنة بعد ، وما أعقب ذلك من حياته في حجر جدّه عبد المطّلب ، ومتابعة أخباره وهو في رعاية عمّه أبي طالب ، وما رافق ذلك من مشاركته في أحداث مكّة ، إلى تجارته إلى الشّام بمال خديجة بنت خويلد ، ثمّ زواجه منها ، وقد أصبح ذلك حديث مكّة ، كما كان موقفه من خلاف بطون قريش حول إعادة الحجر الأسود إلى مكانه في الكعبة حديث مكّة أيضاً ، فهل يقال بعد ذلك إنّ هذه الفترة من حياته ﷺ كانت مجهولة ، « ولسنا نملك بيّنة موثوقاً بها عن حياة النّبيّ الأُولى » .

إنّ من هو أقل بكثير من الرّسول ﷺ ، كشاعر ، أو خطيب ، أو وجيه في قبيلة ، يذكر الرُّواة عن نشأته ومراحل حياته الشيء الكثير ، فكيف بمحمد بن عبد الله ، وهو حفيد عبد المطّلب زعيم قومه ؟

يقول مسلم هندي : « إنّ سيرته ﷺ معروفة منذ نعومة أظفاره إلى أن اختاره الله لجواره ، ولا سيما الفترة التي أدّى فيها الرّسالة ، ولست أُغالي إذا قلت : **إنّني أعرفه أكثر ممّا أعرف أَبَوَيَّ** ، ثمّ أليس من العجيب ، أنّنا لا نجد فيما أُثِرَ عنه ـ على كثرته ـ إلاّ كل ما يدعو إلى الاحترام والإعجاب ؟!

غيره من الأنبياء مضروب عليه حجاب من الغموض والأساطير ، ولا نعرف من حياتهم اليوميّة إلا القليل ، وما يحكى عنهم يشبه كلام الكُهّان »[1] .

---

(١) خواجه كمال الدّين في كتابه (المثل الأعلى في الأنبياء) ، ص : ٤٥ .

إنَّـه الإسقـاط ، لقـد أراد من قـال : « لا نملـك بيِّنـة موثـوقـاً بهـا عن حيـاة النَّبي الأُولى » ، ومن جاراه في قوله هـذا ، من المتعصِّبين ، وحملـة الأحقـاد ، أن يشكِّكوا في فترة من فترات حيـاة نبي الإسـلام ﷺ ، ليبعـدوا الأنظـار عن فترة غـامضـة في حيـاة المسيح عليه السَّلام ، التي قيل بأنَّه قضاها في منطقة الرَّبوة في الهند .

إنَّه الإسقاط ، وهذا دليله :

إنَّ ثماني عشرة سنة ضائعة من حياة يسوع ، لا يدري عنها إنسان قـديمـاً وحـاضراً ومستقبلاً ، كلمة واحدة ، أو خبراً واحداً[1] .

لننظر في الأناجيل الأربعة واحداً إثر آخر فماذا نجد[2] ؟

الإنجيل الأوَّل ، **إنجيـل متّى** ، نراه في الإصحـاح الثَّـاني ينتهي ويسـوع رضيـع : « وأتى وسكن في مدينة يقال لها ناصرة ، لكي يتمَّ ماقيل بالأنبياء إنَّه سَيُدعى ناصريّـاً » [متَّى : ٢٣/٢] ، ليبدأ الإصحاح الثَّالث مباشرة بتعميد يسوع وهو ابن الثَّلاثين عامـاً : « في تلك الأيّام جاء يوحنا المعمدان يَكْرِزُ في برِّيَّة اليهوديّة .. حينئذ جـاء يسوع من الجليل إلى الأُردن[3] إلى يوحنا ليتعمَّد منه .. » [متَّى : ١٣/٣] .

والإنجيل الثَّـاني ، **إنجيل مرقس** ، بـدأ بتعميـد يسوع مبـاشرة ، فلا طفـولـة فيـه أبداً ، وهذه هي السَّنوات الضَّائعـة الغـامضـة من حيـاة يسوع ، ففي الإصحـاح الأوَّل مبـاشرة : « .. وفي تلـك الأيّـام جـاء يسـوع من نـاصرة الجليـل اعتمـد من يـوحنـا في الأردن » [مرقس : ٩/١] .

---

(١) حتَّى ألَّف (تشارلز فرانسيس بوتر) كتاباً عنوانه : (الكشف عن السِّنين المفقودة من حياة يسوع) .

(٢) دار الكتاب المقدَّس في الشَّرق الأوسط : Arabic Bible 43,1985

(٣) المراد بالأُردن هنا نهر الأُردن حيث عمَّد يوحنا يسوع بمياهه ، و (ليتعمَّد) : ليعمِّده .

والإنجيل الثَّالث ، **إنجيل لوقا** ، ينتهي كلامه عن يسوع وهو ابن اثنتي عشرة سنة ، في الإصحاح الثَّاني ، ليبدأ الحديث عنه وهو ابن الثَّلاثين من عمره في الإصحاح الثَّالث :

« وكان أبواه يذهبان كلَّ سنة إلى أُورشليم في عيد الفصح ، ولما كانت له اثنتا عشرة سنة صعدوا إلى أُورشليم كعادة العيد » [لوقا : ٤١/٢] .

وفي الإصحاح الثَّالث مباشرة يتكلَّم عن يسوع وهو ابن الثَّلاثين : « ولما اعتمد جميع الشَّعب ، اعتمد يسوع أيضاً » [لوقا : ٢١/٣] .

والإنجيل الرابع ، **إنجيل يوحنا** ، يتحدَّث مباشرة منذ إصحاحه الأوَّل عن حياة يسوع في سنواته الأخيرة .

فمن الذي لا يملك بيِّنة موثوقاً بها ؟ المسلمون أم النَّصارى ؟

المسلمون أوَّلاً ، وكلُّ الدَّارسين لتاريخ الإسلام ورسوله ثانياً ، يعرفون كلَّ التَّفاصيل عن حياة محمد بن عبد الله ﷺ ، منذ ولادته ، وحتَّى وفاته ، ما فاتهم منها قليل أو كثير ، ولا يغيِّر من حقائق هذه المعرفة (إسقاط) حاقد أو متعصِّب أو موتور ، أراد أن يرمينا بدائه وينسلَّ !!

يقول (وِل ديورانت) في قصَّة الحضارة : ٢٠٢/١١ : « هل وجد المسيح حقّاً ؟ أو أنَّ قصَّة حياة مؤسِّس المسيحيَّة وثمرة أحزان البشريَّة ، وخيالاتها ، وآمالها ، أُسطورة من الأساطير شبيهة بخرافات كرشنا ، وأُوزريس ، وأَتيس ، وأَدُنيس ، وديونسيس ، ومثراس ؟ لقد كان (بولنجبرك) والملتفُّون حوله ، وهم جماعة ارتاح لأفكارهم ڤولتير نفسه ، يقول في مجالسهم الخاصَّة : إنَّ المسيح قد لا يكون له وجود على الإطلاق ، وجَهَرَ ڤلني (Volney) بهذا الشَّك نفسه في كتابه خرائب الإمبراطوريَّة ، الذي نشره في عام ١٧٩١ م ، ولما التقى نابليون في عام ١٨٠٨ م بڤيلاند (Wieland) العالم

الألماني ، لم يسأله القائد الفاتح سؤالاً تافهاً في السِّياسة أو الحرب ، بل سـألـه هل يؤمن بتاريخيَّة المسيح ؟ » .

ويتـابع (وُل ديورانت) قـائلاً : « وبلغت المـدرسـة الفلسفيَّـة صـاحبـة البحوث الدِّينيَّة ذروتها في أواخر القرن التَّاسع عشر على يـد الأب لوازي (Loisy) الـذي حلَّل نصوص العهد الجديد تحليلاً بلغ من الصَّرامة حدّاً اضطرّت معه الكنيسة الكاثوليكيَّة إلى إصدار قرار بحرمانه ، هو وغيره من (الْمُحْدِثِين) ، وفي هـذه الأثنـاء وصلت المـدرسـة الهولنديـة ، مـدرسـة بيرسُن (Pierson) ، ونـابر (Naber) ، وميثـاس (Metthas) بالحركة إلى أبعد حدودها ، إذ أنكرت بعد بحوث مضنية حقيقة المسيح التَّاريخيَّـة ، وفي ألمـانيـة عرض آرثر دروز (Arthur Drews) هـذه النَّتيجـة السَّـالبـة عرضـاً واضحـاً محـــدَّداً ١٩٠٦ ، وفي إنجلترا أدلى و.ب.اسمث (W.B.Smith) ، وج.م.رُبِرْتسُن (J.M.Robertson) ، بحجج من هذا النَّوع أنكرا فيها وجود المسيح ، وهكـذا بـدا أنَّ الجدل الذي دام مئتي عام ، سينتهي إلى إفناء شخصيَّة المسيح إفناءً تامّاً » .

ومع أنَّ المسلم لا يقول عن المسيح عليـه السَّلام مـا قـالـه هـؤلاء العلمـاء ، ولا يرى ما رأوا ، لم تحفظ الكنيسة ذلك ، بل راحت (تسقط) علينا ما فيها .

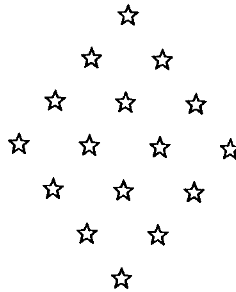
حتَّى ولادة السيِّد المسيح عليـه السَّلام بطريقـة لا يقبلهـا عقل أو منطق ، قبلهـا المسلم عن الإيمـان والتَّسليم ، وبقيت أمُّـه مريم (الطَّـاهرة البَتُـول) ، فهـل حفظت الكنيسة للمسلمين هذا المعتقد ؟

لقـد كان من المفروض أن تطبـع الكنيسـة القرآن الكريم مـع إنجيلهـا ، وهي التي طبعت التَّوراة التي لم تـذكر السيِّـد المسيح وأُمـه ولو مرَّة واحـدة ، أمَّـا القرآن ، فثُلُث ما بين دفتَيْه عن حياة مريم والمسيح .

جـاء في القرآن الكريم سورة بـاسم عـائلـة السيِّـد المسيح (آل عمران) ، و (آل) كلمة تُخَاطب بها العائلات الكريمة الطيِّبة الشَّريفة ، وسورة باسم معجزة السيِّـد المسيح

(المائدة) ، وفيها ثلاث معجزات للسيِّد المسيح لم تذكرها الأناجيل ، وهي : نزول المائدة ، وإحياء الطَّير ، والتَّكلُّم بالمهد ، وسورة باسم والدته البتول (مريم) ، وسورة باسم الأَتباع (الكهف) ، وكلُّها من السُّور الطِّوال .

أَوَ بعد هذا ، تسقط الكنيسة زوراً وبهتاناً ـ ما فيها ـ على الإسلام ونبيِّه ؟!





القرآن

تأليف محمد ﷺ

« القرآن ليس من عند الله »[1] ، « محمد هو الذي صنع القرآن »[2] .

« القرآن من عند محمَّد ، من تأليفه »[3] .

إسقاط آخر ، لن ندخل فيه ببحث مطوَّل ، نثبت من خلاله أنَّ القرآن الكريم من عند الله قطعاً ، وهذا تحدَّثنا عنه في كتابنا (الإسلام في قفص الاتِّهام) ، ولكن يمكننا القول هنا إنَّ الإعجاز الغيبي والعلمي في الكون والحياة والطِّب .. واللُّغوي الذي جاء لقوم يباهون بالفصاحة والبلاغة والأدب والشِّعر والخطابة فبزَّهم وسبقهم في مضمار تنافسهم .. فكيف يكون القرآن من تأليف بشر ، والتَّحدِّي باقٍ في أن يُقلَّد ولو بسورة واحدة منه ؟

لو كان القرآن الكريم من صنع بشر ، لاستجاب العرب للتَّحدي القائم : ﴿ وَإِنْ كُنْتُم فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ☆ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلكَافِرِينَ ﴾ [البقرة : ٢٣/٢ و٢٤] .

(١) دائرة للمعارف الإسلاميَّة : ٢٤٤/٤ ، في بحث التَّعريف بكلمة (الله) سبحانه وتعالى ، قدَّمه المستشرق ماكدونالد (D.B.Macdonald) .

(٢) المستشرق هـ.ج.ويلز ، في كتابه : معالم تاريخ الإنسانيَّة : ٦٢٦/٣ ومابعدها .

(٣) يوليوس فلهاوزن في كتاب : تاريخ الدَّولة العربيَّة ، ص : ٨ ، وغوستاف لوبون في (حضارة العرب) ، ص : ١١١ يورد : تأليف القرآن .

﴿ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لاَ يُؤْمِنُونَ ☆ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴾ [الطُّور : ٥٢/٣٣ و٣٤] .

يقول الرَّافعي : « وحكمة هذا التَّحدِّي ، وذكره في القرآن ، إنَّما هي أن يشهد التَّاريخ في كلِّ عصر بعجز العرب عنه وهم الخطباء اللُّدُّ[1] ، والفصحاء اللُّسن .. حتَّى لا يجيء بعد ذلك فيما يجيء من الزَّمن مولَّد[2] ، أو أعجمي كاذب ، أو منافق ، أو ذو غفلة فيزعم أنَّ العرب كانوا قادرين على مثله ، وأنَّه غير معجز »[3] .

إنَّ القرآن ليس نثراً ، كما أنَّه ليس بشعر ، إنَّما هو قرآن ، ولا يمكن أن يسمى بغير هذا الاسم ، ليس شعراً وهذا واضح ، فهو لم يقيَّد بقيود الشِّعر ، وليس نثراً لأنَّه مقيَّد بقيود خاصَّة به لا توجد في غيره ، وهذه هي القيود التي يتَّصل بعضها بأواخر الآيات ، وبعضها بتلك النَّغمة الموسيقيَّة الخاصَّة[4] .

وإنَّ خروج القرآن عن أساليب العرب دليل على إعجازه ، وعلى أنَّه ليس من كلام النَّاس ، ولا من كلام محمد - ﷺ - ، ولولا هذا الأسلوب لما أفحم العرب ، لأنَّهم رأوا جنساً من الكلام غير ماتؤدِّيه طباعهم ، ولما حاول بعضهم معارضته (كمسيلمة) الذي أخذ يقلِّده ، فجاء بشيءٍ لا يشبهه ، ولا يشبه كلام نفسه ، فأخطأ الفصاحة من كلِّ جهاتها[5] .

يقول خواجه كمال الدين[6] - زعيم الدُّعات المسلمين بإنكلترة - :

---

(١) الألدُّ : الخصم الجَدِلُ الشَّحيح الذي لا يزيغ إلى الحقّ ، وجمعه لُدّ ولِداد ، (اللِّسان : لدد) .

(٢) رجل مُوَلَّدٌ إذا كان عربيّاً غير محض ، (اللِّسان : ولد) .

(٣) إعجاز القرآن ، ص : ٢٢ .

(٤) من كتاب : حديث الشِّعر والنَّثر ، ص : ٢٥ (طبعة دار المعارف بمصر) .

(٥) روح الدِّين الإسلامي ، ص : ٣٤ .

(٦) خواجه كمال الدِّين ، ابن المرحوم الخواجه عزيز الدِّين ، ولد في لاهور عام ١٨٧٠ م ، حاز على شهادة الآداب عام ١٨٩٣ م ، وعلى إجازة في الحقوق عام ١٨٩٧ م ، هاجر إلى بريطانية عام ١٩١٣ م وبدأ =

دُعيتُ سنــة ١٩١٣ لـلاشتراك في مــؤتمر ديني عظيم ، أُقيم في بــاريس ، وكم كانت دهشتي عندما وجدتُ أنَّ التَّهذيب الكنسي يتقدَّم إلى الأمام في نكران العقائد الأساسيَّة للكنيسة ، مستعرضاً خطـأها بـأجلى بيـان ، وكان غرض هـذا المؤتمر أن يصلح ديـانـة الغرب الحاليّة ، وأنَّه إن عجز عن ذلك ، يستعيض بدلاً منها ديانة جـديـدة مبنيَّـة على مبادئ تؤخذ من ديانات أُخرى ، أو يبحث عن الديانة وتبنى من جـديـد ، وقـد فكَّر هذا المؤتمر في سياحة عـالميَّـة تبتـدئ من نوفمبر (تشرين الثَّـاني) سنـة ١٩١٣ ، وطلب مني أن أشترك في تلك الحركة ، فرضيت بذلك ، غير أنَّ نار الحرب (العـالميَّـة الأولى) اشتعل لهيبها ، واستعرّ لظـاهـا ، فقضت على هـذا المشروع كلـه ، وبعـد زمن تُنُوسي ، أو نُسي كلُّ شيء ، ومع ذلك فقد قدَّمت الحرب خدمة واحدة للـدِّين ، ألا وهي تنبيـه الغربيِّين الغافلين ، الذين رأوا أنَّ المسلمين في ميدان القتال ، يتمسَّكون بالدِّين ويصلُّون في أوقات فراغهم ، بينما كان الآخرون من أهل الدّيانات الأُخرى يشربون ويقامرون ، فضلاً عن أنَّ الحرب كانت بين أُمم مسيحيَّة ، تزعم أنَّ دينها دين محبَّة ، فما لبثت أميالها (رغباتها) المادِّيَّة أن برهنت على أنَّ دين المحبَّـة ـ كما يزعمون ـ لم يكن دين محبَّـة حقّـاً يوماً من الأيّام ، ومع أنَّ الحرب كانت تتَّقد بشدَّة ، وبشكل يدعو إلى التَّنبُّـه والرُّجوع إلى دين المحبَّة المزعوم ، إلاَّ أنَّ المذابح العامَّـة ، ومجـازر البشر الـدَّمويَّـة كانت مستمرَّة ، فـأيقظت في كثير من الأذهـان شعور الكراهيـة والاحتقـار لأجزاء معيَّنـة من صلـوات الكنيسة ، لأنَّ تلك المذابح لم تكن إلاَّ نتيجة لبعض المزامير التي يغنُّونهـا في الكنيسـة ، والتي تكوِّن قسماً من كتاب الصَّلوات .

أيقـظ انـدمـاج هـذه المزامير في كتـاب الصَّلوات روح التَّمرُّد والثَّورة في كثير من الأنحاء ضدَّ الكنيسة ، وطلب القُسُس والعامَّة أيضاً بشدَّة إلغاء تلـك المزامير من كتـاب

= عـام ١٩١٣ بنشر مجلَّـة شهريَّـة عنـوانهـا (المجلَّـة الإسـلاميَّـة) ، وأسَّس البعثـة الإسـلاميَّـة في مـدينـة ووكينغ Woking بغية تحرير العقل الغربي من المفاهيم المغلوطة عن الإسلام ، له خمسة عشر كتاباً أهمها (المثل الأعلى في الأنبياء) ، و (ينابيع المسيحيَّة) ، توفِّي بتاريخ ١٩٣٢/١٢/٢٨ م .

الصَّلوات ، ولم يكن ذلك الطَّلب طلباً غير عادي أو صعب التَّنفيذ ، لأنَّه كثيراً ما نُقِّح كتاب الصَّلوات في تاريخ الكنيسة ، لذا أُلِّفت أخيراً جمعيَّة لأجل تنقيح هذا الكتاب ، حتَّى يصبح ملائماً للرَّغبات الحديثة ، وتلك الجمعيَّة الَّتي كُوِّنت اقترحت إدخال بعض صلوات جديدة ، إحداها لأجل السِّلم الزَّائف ، وأُخرى لأجل زمن الانتخابات ، وغيرها لأجل الضَّمائر الحائرة ، ورابعة لأجل الجو الجميل ، ذلك عدا ما اقترحته اللَّجنة من اختصار ستّ وصايا من الوصايا العشر .

لكن ما هي الطَّريقة الَّتي يمكن بها جعل التَّضحيات ، والإضافات ، جزءاً من الدِّين المسيحي ؟ تلك الطَّريقة هي أن تمرَّ تلك التَّنقيحات والإضافات بمجلس الأساقفة ، فمجلس الإكليروس ، فمجلس العموم ، وأخيراً يصادق عليها البرلمان ، فتحرز قداسة دينيَّة تامَّة .

هذه هي الطَّريقة الَّتي تصاغ بها الدّيانة في الغرب ، إذ تضرب في (ضربخانة) المعامل البشريَّة ، وتوسم بعد ذلك بطابع الإله ، وذلك هو تاريخ المسيحيَّة في كلِّ أدوار حياتها ، ولما كانت من صنع الإنسان ، عجزت عن مقاومة تصاريف الزَّمن واختباراته ، وأصبحت تُغَيِّر عند الضَّرورة من وقت إلى آخر كي تلائم تقلُّب الحالات ، إلاَّ أنَّ هؤلاء الذين طلبوا إلغاء هذه المزامير من كتاب الصَّلوات ، نسوا في لحظة الحماسة التي اتَّقدت فيها هذه الفكرة في رؤوسهم ، أنَّ نتيجة ما يفكِّرون فيه واقعة على أصليَّة (الكتاب المقدَّس) ، وما المزامير إلاَّ جزء من هذا الكتاب ، فهذا يدلُّ على أنَّ كلمة الله (الكتاب المقدَّس) لم تكن خالية من الخلط والمزج البشري ، ومع ذلك فقد جاء هذا الموضوع بطريقة أجلى وأوضح من الأولى في جلسة ٥ يوليو (تموز) سنة ١٩١٧ ، المنعقدة بمجلس كانتربري الكنسي ، حيث طلب بعض السَّادة الإكليريكيِّين (رجال الدِّين المسيحي) أن تُغَيَّر كلمات أحد الأسئلة يطلب بها منهم أن يعترفوا بأنَّهم يؤمنون إيماناً صادقاً لا رياء فيه أنَّ كل شيء ورد في كتابهم المقدَّس أتى من عند الله .

كانوا مقتنعين بأنَّهم لا يستطيعون أن يؤدُّوا اليمين بهذه الصُّورة المطلوبة ، وذلك لأنَّهم لا يؤمنون بصحَّة كثير من الأساطير والقصص والحوادث الواردة في أسفارهم المنزَّلة ..

وكان السُّؤال الَّذي يشكو منه الإكليريكيُّون كما يأتي :

« هل تصدِّق تصديقاً حقيقيّاً كل ما جاء بأسفار العهد القديم ، والعهد الجديد التي تكوِّن الكتاب المقدَّس ؟ » ، فيكون الجواب : « نعم أُؤمن بصحَّتها » .

فاقترحوا أن يكون السُّؤال الذي يوجَّه إلى الإكليريكي عند تعيِّينه كما يأتي :

« هل تؤمن حقّاً بأنَّ أسفار الكتاب المقدَّس نقلت في كثير من أجزائها ، وبطرق شتَّى ، الوحي الإلهي الذي تُمِّم بعيسى ؟ وأن يكون الجواب : نعم أُؤمن بذلك » .

فأجاب أُسقف كنتربري بأنَّ السُّؤال بالشَّكل الذي وضعته الجمعيَّة ، لا يغيِّر حقيقة أنَّ الأسفار الشَّرعيَّة المنزلة ، كانت بوحي إلهي ، وأنَّ لها سلطة لاهوتيَّة ، وأنَّها جزء مُهِمٌّ من الدِّين المسيحي ، وطلب أن تُغيَّر كلمات السُّؤال كما يأتي :

« هل تعترف بأنَّ كل أسفار الكتاب المقدَّس جاءت بوحي من عند الله » ؟

فأجاب أُسقف كنيسة المسيح بأنَّ هذا الاقتراح سيعيدهم ثانياً إلى النُّقطة التي ابتدؤوا منها ، فرفض التَّصحيح الذي وضعه أُسقف كنتربري ، لأنَّه لم يحز إلاَّ خمسة أصوات ضدّ ثلاثة وسبعين صوتاً ، واقترحت بعد ذلك عدَّة إصلاحات وتغييرات ، إلاَّ أنَّ المجلس رفض معظمها ، وأخيراً وافق بأربعة وسبعين صوتاً ضدّ أربعة أصوات على أن يوضع السُّؤال إلى الشَّمامِسَة بالكيفيَّة الآتية :

« هل تؤمن حقّاً بأنَّ أسفار الكتاب المقدَّس نقلت إلينا في كثير من أجزائها ، وبطرق شتَّى ، الوحي الإلهي الذي تُمِّم بعيسى » ؟

إنَّـه وإن كان هـذا التَّغيير المقترح قـد أراح الضَّمائر الكنسيَّـة ، إلاَّ أنَّــه ممَّــا يلفت النَّظر ، أنَّ المشتركين في هـذا المـؤتمر ، لم يثنهم تعليمهم الـدِّيني العــالي عن أن يرتكبـوا جريمة التَّضليل في تقدير المجهول ، وإيجاد غير المعلوم .

فـإذا كانوا لا يستطيعون أن يسلِّموا بصحَّـة وقـائـع معيَّنـة من الكتـاب المقـدَّس ، فكيف أمكنهم أن يقبلوا شهـادتـه بخصوص عيسى وألوهيَّتـه ؟ إن المركز كان مضطربـاً مختلاً من أهم وجوهه ، وكشف عن خطأ هذه الدَّائرة الفـاسـدة .. **ومع ذلـك فقـد قُرِّر رسمياً في كنتربري ، أنَّ (الكتاب المقدَّس) لم يكن خالياً من تزييف البشر**[1] .

ومن هنا جاء الإسقاط .

إنَّ الأناجيل المعتبرة عندهم أربعة : إنجيل متَّى ، وإنجيل مرقس ، وإنجيل لوقـا ، وإنجيـل يـوحنـا ، ومكان الأنـاجيـل في النَّصرانيَّــة مكان القطب والعماد ، وإذا كانت شخصيَّة المسيح وما أحاطوها به من أفكار هي شعار المسيحيَّة ، فإنَّ هذه الأناجيل هي المشتملـة على أخبـار تلـك الشَّخصيَّـة ، من وقت الحمـل إلى وقت صلبــه في اعتقــادهم ، وقيامتـه من قبره بعـد ثلاث ليـال ، ثمَّ رفعـه بعـد أربعين ليلـة ، وهي بهـذا تشتمل على عقيدة أُلوهيَّة المسيح في زعمهم ، والصَّلب والفداء ، أي أنَّها تشتمل على لبِّ المسيحيَّة بعد المسيح ومعناها .

يذكر الإمام محمد أبو زهرة في (محاضرات في النَّصرانيَّة) :

وهذه الأناجيل الأربعة هي التي تعترف بها الكنائس ، وتقرُّهـا الفِرَق المسيحيَّـة ، وتأخذ بها ، ولكن التَّاريخ يروي لنا أنَّه كانت في العصور الغابرة أنـاجيل أُخرى ، قـد أخذت بها فرق قديمة ، وراجت عندها ، ولم تعتنق كلٌّ فرقة إلاَّ إنجيلهـا ، فعنـد كلٍّ من أصحاب مرقيون ، وأصحاب ديصان إنجيل يخالف بعضـه هـذه الأنـاجيل ، ولأصحـاب

---

(١) ينابيع المسيحيَّة ، ص : ٥٨ وما بعدها ، منشورات : لجنة المحقِّقين ـ لندن : ١٩٩١ .

ماني إنجيل يخالف هذه الأربعة ، وهو الصَّحيح في زعمهم ، وهناك إنجيل يقال له إنجيل السَّبعين ينسب إلى تلامس ، والنَّصارى ينكرونه ، وهناك إنجيل برنابا ، وهناك إنجيل اشتهر باسم التَّذكرة ، وإنجيل سرن تهس ، ولقد كثرت الأناجيل كثرة عظيمة ، وأجمع على ذلك مؤرِّخو النَّصرانيَّة ، ثمَّ أرادت الكنيسة في آخر القرن الثَّاني الميلادي ، أو أوائل القرن الثَّالث أن تحافظ على الأناجيل الصَّادقة في اعتقادها ، فاختارت هذه الأناجيل الأربعة من الأناجيل الرَّائجة إبان ذاك ، ويذكر بعض المؤرِّخين أنَّه لم توجد عبارة تشير إلى وجود إنجيل متَّى ومرقس ولوقا ويوحنا قبل آخر القرن الثَّاني ، وأوَّل من ذكر هذه الأناجيل الأربعة أرينيوس في سنة ٢٠٩ م ، ثمَّ جاء من بعده كليمنس إسكندريانوس في سنة ٢١٦ م ، وأظهر أنَّ هذه الأناجيل الأربعة واجبة التَّسليم ، ولم تكتفِ الكنيسة باختيار هذه الأناجيل الأربعة ، بل حملت النَّاس على قبولها لاعتقادها صحَّتها ، ورفض غيرها ، وتمَّ لها ما أرادت ، فصارت هذه الأناجيل هي المعتبرة دون سواها ، ولقد كنا نودُّ ونحن ندرس المسيحيَّة وأدوارها في التَّاريخ ، أن نعرف هذه الأناجيل التي أُهملت ، وما كانت تشتمل عليه ، ممَّا كان سبباً في رفضها ، وحمل النَّاس على تركها ، وخصوصاً أنَّها كانت رائجة ، وتأخذ بها طوائف من المسيحيِّين ، ويتديَّنون هذه الديانة على مقتضاها ، فإن الاطِّلاع عليها يمكِّننا من معرفة اعتقاد النَّاس في المسيح ، وكيف كان ، خصوصاً بين أُولئك الذين قاربوا عصره ، وأدركوا زمانه ، ولقوا تلاميذه ، ونهلوا من مناهلهم ، وإذا ضنَّ التَّاريخ بحفظ نسخ منها في سجلِّه[1] ، فقد كنّا نودُّ أن تطلعنا الكنيسة على ما اشتملت عليه ممَّا يخالفها ، وكان سبب رفضها ، وترينا حجَّة الرَّفض ، لتكون دليلاً منيراً لها على أنها بهذا أقامت ديانة المسيح ، ولم تغيِّرها ، ولكن ضنَّ التَّاريخ علينا فطوى تلك الأناجيل[2] ، وضنَّت

(١) إنَّ النُّسخ وقد تجاوزت السَّبعين عداً ، محفوظة بمكتبة الفاتيكان ، وممنوع على أيِّ باحث أن يطَّلع عليها .

(٢) والأصح : ولكن ضنَّت الفاتيكان علينا فطوت تلك الأناجيل .

الكنيسة فطوت تلك البيِّنات ، فلم يبقَ لنا إلاَّ أن نكتفي من الدِّراسة بما بين أيدينا ، ولعلَّ فيه عناء إن أمعنَّا النَّظر ، وأمعنَّا في الاستنباط ، وجعلنا من العقل سلطاناً ، ومن بدهياته برهاناً[1] .

وهذه الأناجيل الأربعة لم يملها المسيح ، ولم تنزل عليه هو بوحي أُوحي إليه ، ولكن كُتِبَت من بعده .. وهي تشتمل على أخبار المسيح وصلواته وأقواله وعجائبه ، من بدايته إلى نهايته في هذا العالم .

متى كُتِبَت هذه الأناجيل الأربعة ، ومن المؤلِّف ؟

إنجيل متَّى : كتبه متَّى ، وهو أحد تلاميذ المسيح الاثني عشر ، مات ببلاد الحبشة سنة ٧٠ م ، ولقد اتَّفق جمهور النَّصارى على أنَّه كتب إنجيله بالعبريَّة أو السريانيَّة ، ولكن موضع الخلاف تاريخ تدوينه ، ومن الذي ترجمه إلى اليونانيَّة ... ولا شكَّ أنَّ جهل تاريخ التَّدوين ، وجهل النُّسخة الأصليَّة التي كانت بالعبريَّة ، وجهل المترجم وحاله من صلاح أو غيره ، وعلم بالدِّين واللُّغتين التي ترجم عنها ، والتي ترجم إليها ، كل هذا يؤدِّي إلى فقد حلقات في البحث العلمي ، ولئن تسامح الباحث في تاريخ التَّدوين وتاريخ التَّرجمة وملابساتها ، ليمنعه العلم من الاسترسال في التَّسامح ، حتَّى لا يرى أن السِّلسلة تكون كاملة إذا لم يعرف الأصل الذي ترجم ، فلقد وددنا أن نعرف ذلك الأصل ، لنعرف أكانت التَّرجمة طبق الأصل ، أم فيها انحراف ، ولنعرف أفهم المترجم مرامي العبارات ومعانيها ، سواء أكانت هذه المعاني تفهم بظاهر القول أو بإشاراته ، أم بلحن القول وتلويحاته ، أم بروح المؤلِّف وغرضه ، ومرماه الكُلِّي من الكلام ، ولكن عزَّ علينا العلم بالأصل ، ولقد كنَّا نتعزَّى عن ذلك لو عرفنا المترجم ، وأنَّه ثبت ثقة أمين في النَّقل عالم ، لا يتزيَّد على العلماء ، فقيه في

(١) محاضرات في النَّصرانيَّة ، ص : ٣٨ وما بعدها ، الطَّبعة الثَّالثة : ١٩٦١ م .

(٢) يقول هورن : « أُلِّف الإنجيل الأوَّل (متَّى) سنة ٣٧ أو سنة ٣٨ أو سنة ٤١ أو سنة ٤٣ أو سنة ٤٨ أو سنة ٦١ أو ٦٢ أو ٦٣ أو سنة ٦٤ من الميلاد » ، (محاضرات في النَّصرانيَّة ، ص : ٤٣) .

المسيحيَّة ، حجَّة فيها ، عارف باللُّغتين ، فاهم لهما ، مجيد في التَّعبير بهما ، فعندئذ كنّا نقول : ثقة روى عن ثقة بترجمته ، ونسد الخلَّة بتلك الرِّواية ، ونرأب الثُّلمة بتلك النَّظرة ، ولكن قد امتنع هذا أيضاً ، فقال جمهرة علمائهم إنَّ المترجم لم يُعْرَف ، فبقيت الثُّلمة من غير ما يرأبها[1] .

إنجيل مرقس : أُلّف باليونانيَّة ، كتبه بطرس عن مرقس سنة ٦١ ونسبه إليه ، فكأنَّ بطرس راوي مرقس ، مع أنَّ الأوَّل رئيس الحواريِّين ، والثَّاني من تلاميذه كما جاء في كتاب : (مروج الأخبار في تراجم الأبرار)[2] ، وإذا كان ذلك الإنجيل خلاصة علمه بالمسيحيَّة ، فإذا رواه عنه أُستاذه ، فقد روى هذا عن مرقس ما ألقاه عليه وعلمه ، وإنَّ ذلك لغريب ! ، لذلك رأى الكاتب القديم أرينيوس : « إنَّ مرقس كتب إنجيله بعد موت بطرس وبولس » .

وفي الحق أنَّ ذلك الاختلاف ، وإن كان زمنيّاً في ظاهره ، هو في معناه ولبِّه اختلاف في شخص المحرِّر لهذا الإنجيل ، يقول هورون : « **أُلِّف الإنجيل الثَّاني** سنة ٥٦ ومابعدها إلى سنة ٦٥ ، **والأغلب أنَّه أُلِّف** سنة ٦٠ أو سنة ٦٣ »[3] .

إنجيل لوقا : يبتدئ هذا الإنجيل في إصحاحه الأوَّل . والفقرة الأولى : « إذا كان كثيرون قد أخذوا بتأليف قصَّة في الأُمور المتيقنة عندنا كما سلَّمها إلينا الَّذين كانوا منذ البدء معاينين وخدَّاماً للكلمة ، رأيتُ أنا أيضاً إذ تتبَّعت كل شيء من الأوَّل بتدقيق أن أكتب على التَّوالي إليكَ أيُّها العزيز ثاوُفيلُسُ لتعرف صحَّة الكلام الَّذي عُلِّمتَ به » .

قال هورن : « **أُلِّف الإنجيل الثَّالث** (لوقا) سنة ٥٣ أو سنة ٦٣ أو سنة ٦٤ » ، **وقد اختلف الباحثون في شخصيَّة كاتبه** ، وفي القوم الذين كتب لهم ، وفي تاريخ

---

(١) محاضرات في النَّصرانيَّة ، ص : ٤٤ .

(٢) المرجع السَّابق ، ص : ٤٥ .

(٣) المرجع السَّابق ، ص : ٤٦ .

تأليفه ، ولم يتَّفقوا إلاَّ على أنَّه ليس من تلاميذ المسيح ، ولا تلاميـذ تلاميـذه ، إلاَّ على أنَّه كُتِبَ باليونانيَّة .

إنجيل يوحنَّا : « لهذا الإنجيل خطر وشأن أكثر من غيره في نظر البـاحث ، لأنَّـه الإنجيل الذي تضمَّنت فقراته ذكراً صريحاً لأُلوهيَّة المسيح ، فهذه الأُلوهيَّـة يعتبر هو نصُّ إثباتها ، وركن الاستدلال فيها ، لذلك كان لا بدَّ من العنـايـة بـه ، إذ كان التَّثليث هو شعار المسيحيَّة ، وهو موضع مخالفتها لـديـانـات التَّوحيـد ، وأسـاس التَّبـاين بين هـذه الديانة وتلك الديانات »[1] .

وهـذا الإنجيـل « **تصنيف طـالب من طلبـة مـدرسـة الإسكنـدريَّـة** » ، كما يرى (استادلن) ، أمَّا في دائرة المعارف البريطانيَّة التي اشترك في تأليفها خمسمئـة من علمـاء النَّصارى ، مـا نصُّـه : « **أمَّـا إنجيل يوحنَّـا فإنَّـه لا مريـة ولا شـك كتـاب مزوَّر** أراد صاحبه مضادَّة اثنين من الحواريِّين بعضهما لبعض ، وهما القدِّيسان يوحنَّا ومتَّى ، وقـد ادَّعى هذا الكاتب المزوِّر في متن الكتاب أنَّه هو الحواري الذي يحبّـه المسيح ، فـأخـذت الكنيسة هذه الجملـة على علاَّتهـا ، وجزمت بـأنَّ الكاتب هو يوحنَّـا الحواري ، ووضعت اسمه على الكتاب نصّاً ، مع أنَّ صاحبه غير يوحنا يقينـاً ، ولا يخرج هـذا الكتـاب عن كونه مثل بعض كتب التَّوراة التي لا رابطة بينهـا ، وبين من نسبت إليـه ، وإنَّـا لنرأف ونشفق على الذين يبذلون منتهى جهدهم ليربطوا ـ ولو بـأوهى رابطـة ـ ذلـك الرَّجل الفلسفي الذي ألَّف هذا الكتاب في الجيل الثَّاني ، بالحواري يوحنَّا الصَّيّاد الجليل ، فإنَّ أعمالهم تضيع عليهم سُدَى لخبطهم على غير هدى » .

ولقـد اختلف المسيحيُّون في تـاريخ تـدوين هـذا الإنجيل اختـلافـاً بيِّنـاً ، يقـول هـورن : « أُلِّف الإنجيـل الرَّابـع (يـوحنَّـا) سنـة ٦٨ أو ٦٩ أو سنــة ٧٠ أو سنــة ٨٩ أو سنة ٩٨ من الميلاد » ، وكتب لغرض خاص ، وهو أنَّ الأنـاجيل الثَّلاثـة الأولى ليس

---

(١) المرجع السَّابق ، ص : ٤٨ .

فيها ما يدل على أُلوهيَّة المسيح ، فكَّتِبَ الإنجيل المنسوب إلى يوحنّا لإثبات أُلوهيَّة المسيح التي اختلفوا في شأنها ، لعدم وجود نصٍّ في الأناجيل الثَّلاثة يعينها ، وهذا يدلُّ أيضاً على أنَّ الأساقفة اعتنقوا أُلوهيَّة المسيح قبل وجود الإنجيل الذي يدلُّ عليها ، ويصرِّح بها ، ولما أرادوا أن يحتجُّوا على خصومهم ، ويدفعوا هرطقتهم في زعمهم ، لم يجدوا مناصاً من أن يلتمسوا دليلاً ناطقاً يثبت ذلك ، فاتَّجهوا إلى يوحنّا ، فكتب - كما يقولون - إنجيله الذي يشتمل على الحجَّة ، وبرهان القضيَّة ، والبيِّنة فيها على زعمهم ، وهذا ينبئ عن أنَّ الاعتقاد بأُلوهيَّة المسيح سابق لوجود نصٍّ في الكتب عليه ، وإلاَّ ما اضطروا اضطراراً إلى إنجيل طلبوه ، فافتقدوه ، فلما لم يجدوه طلبوا من يوحنا أن يكتبه[1] ...

ذكرت مجلَّة (المجلَّة) : العدد ٧١٢ ، ٣-١٩٩٣/١٠/٩ م ، ص ٥٦ وما بعدها ، تحت عنوان : (العثور على أناجيل كانت غير معروفة من قبل ، الرِّواية القبطيَّة تقول : إنَّ المسيح لم يُصلب ، وإنَّما صُلِبَ شبيه له ، والكتب الجديدة تغيِّر تاريخ السَّنوات الأُولى) ، وممَّا جاء في المجلَّة المذكورة :

« بعد حوالي نصف قرن من العثور على المخطوطات القبطيَّة بنجع حمادي ، بدأ الباحثون يدركون أهميَّة المكتبة الَّتي خبّأها الرُّهبان المصريُّون في خلال القرن الخامس الميلادي ، حتَّى لا تقع في أيدي الجنود الرُّومان ويتمَّ إحراقها بالنَّار ، تنفيذاً لتعليمات كنيسة روما .

وأصبح الآن - بعد ترجمة ونشر جميع النُّصوص الَّتي تمَّ العثور عليها - واضحاً أنَّ المعلومات الَّتي وصلت إلينا من نجع حمادي قد تؤدِّي إلى تغيير شامل في ما نعرفه من تاريخ القرون المسيحيَّة الأُولى » .

---

(١) المرجع السَّابق ، ص : ٥٣ .

وبعد سرد قصَّة العثور على هذه الأناجيل ، وذلك في كانون الأوَّل (ديسمبر) ١٩٤٥ م ، ودعوة الحكومة المصريَّة عام ١٩٥٦ م إلى عقد مؤتمر في القاهرة ضمَّ الباحثين المتخصِّصين للعمل على إعداد ترجمة النُّصوص ، ولكن الاعتداء الثُّلاثي الَّذي وقع على مصر في ذلك العام حال دون انعقاد المؤتمر .

فعادت (اليونسكو) بالاشتراك مع الحكومة المصريَّة ، ودعت إلى مؤتمر دولي عام ١٩٦١ م ، وتمَّ تكوين لجنة عالميَّة للعمل ، وكانت الخطوة الأُولى هي تصوير كلّ المخطوطات ، وهذا ما تمَّ في القاهرة ما بين ١٩٦٢ و ١٩٦٥ م .

أمَّا الخطوة الثَّانية فتمَّت بنشر هذه الصُّور في مدينة (لايدن) بهولندا عام ١٩٧٠ م لإتاحة الفرصة لأكبر عدد ممكن من الباحثين للاطِّلاع عليها .

وبعد ذلك تكوَّنت لجنة في الولايات المتَّحدة لترجمة النُّصوص تحت رعاية جيمس روبنسون ـ عالم الدِّراسات اللاهوتيَّة الأمريكي ـ وتمَّ الانتهاء من التَّرجمة الإنكليزيَّة عام ١٩٧٥ م ، ثمَّ ترجمت بعد ذلك إلى الفرنسيَّة والألمانيَّة .

وتبيَّن أنَّ هذه كتابات مسيحيَّة لبعض الجماعات الَّتي ظهرت في بداية التَّاريخ الميلادي كانت تعرف بجماعات (العارفين) ، وكانوا يقضون معظم أوقاتهم في التَّعبُّد وترتيل الكتابات الَّتي عندهم ، أو القيام بإنشاء كتابات جديدة يقرؤونها في اجتماعاتهم الأُسبوعيَّة .

وتتضمَّن المكتبة (الَّتي عثر عليها في نجع حمادي) عدداً من الأناجيل لم تكن معروفة من قبل ، إلى جانب بعض الأشعار والكتابات الفلسفيَّة ، ونحن نعرف أنَّ العهد الجديد من الكتاب المقدَّس يحتوي على أربعة أناجيل منسوبة إلى متَّى ومرقص ولوقا ويوحنّا ، وهذه هي الأناجيل الَّتي تعترف الكنيسة بصحَّتها ، ولكن بحسب ما تمَّ العثور عليه في نجع حمادي ـ يبدو أنه كانت هناك أناجيل أُخرى كثيرة متداولة في خلال القرون الأُولى للمسيحيَّة مثل إنجيل توماس ، وإنجيل مريم المجدليَّة ، وإنجيل

فيليب ، وإنجيل المصريِّين وغيرهـا من الأنـاجيل الَّتي وجـدت في نجع حمـادي ، وبينما الاعتقـاد السَّائـد هو أنَّ أنـاجيـل العهـد الجـديـد قـد تمَّت كتـابتهـا فيما بين ٦٠ و ١١٠ ميلاديَّـة ، فنحن نجـد أنَّ أنجيل ـ الَّـذي يحتـوي على أقـوال للمسيـح الحي ـ يرجـع إلى منتصف القرن الميـلادي الأوَّل ، أي إنَّـه يسبـق أوَّل الأنـاجيـل المعروفـة بحـوالي عشر سنوات ، كما أنَّنا نجـد اختلافـات أسـاسيَّـة في هـذه الأنـاجيل عمَّـا تعوَّدنـا أن نعرفـه في الأناجيل الأُخرى ..

ولا شكَّ أنَّ أهمَّ الاختلافات الموجودة هي الَّتي تتعلَّق بكيفيَّة موت السَّيِّـد المسيح ، فبخلاف ما نعرفه من الاعتقاد المسيحي بأنَّـه قـد صُلِبَ بنـاء على أوامر الحـاكم الرُّومـاني لفلسطين (بونتيـاس بيلاطس) تنفي أنـاجيـل نجـع حمـادي ذلـك صراحـة وتسخر ممَّن يقولون بهذا الرَّأي .. فلقد جاء في إنجيل بطرس على لسان بطرس ما يلي :

يقـول المخلِّص : إنَّ الَّـذي رأيتـه سعيـداً يضحــك ، هـو يسـوع الحي ، لكن من يُدْخِلون المسامير في يديه وقدميه ، فهو البديل ، فقد وضعوا العـار على الشَّبيـه ، انظر إليه وانظر إلي .

كما جـاء في كتــاب آخر يسمَّى كتــاب (سيت الأكبر) : كان شخص آخر ، هـو الَّـذي شرب المرارة والخل ، لم أكن أنـا ، كان آخر ، (سيمون) هو الَّـذي حمـل الصَّليب على كتفـه ، كان آخر هو الَّـذي وضعوا تـاج الشَّوك على رأسـه ، وكنت أنـا في العلاء ، أضحك لجهلهم .

ويبدو أنَّ الجماعات المسيحيَّة الأُولى كانت لها وجهات نظر مختلفة في هذه الأُمور ، لكن منذ نهاية القرن الثَّاني عندما بدأ الأسـاقفـة يعيـدون تنظيم الحركـة المسيحيَّـة على أساس من النِّظام الكهنوتي ، فإنَّ الأساقفة ـ وخـاصَّـة أسـاقفـة كنيسـة رومـا ـ بـدؤوا يفرضون تعاليم بعينها على الكنيسة ، واعتبر من خالفها ضالاً وطرد من الكنيسة .

وعندما دخل الإمبراطور الرُّوماني قسطنطين إلى المسيحيَّة في القرن الرَّابع ، وأصبحت المسيحيَّة هي الديانة الرَّسميَّة للإمبراطوريَّة ، زاد نفوذ كنيسة روما ، الَّتي أمرت بحرق كلِّ الكتب الَّتي تختلف مع تفسيراتها ، وكان هذا هو الوقت الَّذي تمَّ فيه حرق معظم ما تبقى في مكتبة الإسكندريَّة من كتب اعتبرتها الكنيسة الكاثوليكيَّة من كتب الضَّلال ، وكان هذا هو السَّبب الَّذي حدا ببعض الرُّهبان النجوميِّين في نجع حمادي إلى إخفاء هذه المخطوطات الَّتي ظلَّت غير معروفة حتَّى عثر أبناء علي السَّمَّان [عليها] عند نهاية الحرب العالمية الثَّانية .

ولا شكَّ أنَّ المعلومات الَّتي تمَّ الحصول عليها نتيجة ترجمة هذه المخطوطات سوف يكون لها أثر كبير في فهم تاريخ السَّنوات الأُولى لنشأة المسيحيَّة » .

هذه هي الأناجيل ، فهي ليست نازلة على عيسى عليه السَّلام في نظرهم ، وليست منسوبة له ، ولكنَّها منسوبة لبعض تلاميذه ، ومن ينتمي إليهم .

هذه هي الأناجيل ، المصدر الأوَّل التَّاريخي للديانة المسيحيَّة ، يلاحظ عليها وفيها عند البحث ما يلي[1] :

١ ـ أنَّها ليست من إملاء السَّيِّد المسيح ، بل إنَّه لم يشهدها .

٢ ـ كاتبوها ليسوا على مستوى الأهليَّة ليكونوا علماء دين ، لأنهم مجهولون ، إمَّا مجهولو النَّسب أو الصَّنعة ، أو العلاقة بالكتاب المدوَّن .

٣ ـ أنَّها لرغبات خاصَّة أملتها عدَّة بيئات مختلفة ، وهذه الرَّغبات الخاصَّة مجهولة الأفراد والهيئات !.

٤ ـ أن أُصولها معترف بضياعها من أهلها ، وأنَّ ترجمة بعضها غير موثوق فيه ، لضياع الأصل ، أو لجهل المترجم .

(١) أضواء على المسيحيَّة ، متولي يوسف شلبي ، ص : ٥٠ ، الدَّار الكويتيَّة ، ط٢ ، عام ١٩٧٣ م .

٥ ـ لأنَّها لا تحمل صفة الرِّوايـة حتَّى في أقلِّ صورهـا الَّتي يجب أن تتوفَّر لكتـاب سماوي ، أو تعاليم نبي .

مؤتمرات لتنقيحات وإضافات وتغييرات ..

ورجال الكهنوت لا يؤمنون علناً بأنَّ كل أسفار الكتاب (المقدَّس) نقلت بطريق الوحي .

وفي كنتربري (Canterbury) ـ مركز رئيس أساقفة الأنغليكان في بريطـانيـة ـ يُقرِّر رسميّاً أنَّ الكتاب المقدَّس لم يكن خالياً من تزييف البشر .

وهذه الأنـاجيل الأربعـة ـ المعترف بهـا ـ لم يملهـا المسيح ، ولم تنزل عليـه بوحـي ، ولكنَّها كُتِبَت من بعده ، وهي تشتمل على أخبار المسيح فقط .

ولن نـاقش هنـا (**أعمال الرُّسل**) لانقطـاع السَّنـد في نسبتهـا لكاتبهـا ، ولعـدم معرفة أسماء مؤلِّفيها .

وشتَّان ما بين كتاب سماوي مقدَّس ، نزل وحياً على الرَّسول المختار من الله تعـالى ، تمَّ تدوين آياته في عهده ـ ﷺ ـ وبقي بين أيدي المؤمنين به قرآناً يتلونـه في صلواتهم ، لا يأتيه الباطل من بين يديـه ولا من خلفـه ، وبين كتـاب اختلفت نسخـه ، فـأُخفي بعضها ، وترجم بعضها مع غياب الأصل ، فكثر فيها الاختلاف نتيجة حـذف وإضـافـة وتزوير وتحريف ، ومردُّ ذلك كله عدم تدوينه في عهد صاحبه .

وبعدها يقولون ويشيعون : إنَّ القرآن الكريم من تأليف محمـد ﷺ ، من منطلق « رمتني بدائها وانسلَّت » .

إنَّه (الإسقاط) ليس غير ، بكلِّ معانيه .



الإسقاط الخامس

تناقض في القرآن

« من العسير أن نستخلص من القرآن نفسه مذهباً عقيديّاً موحّداً متجانساً وخالياً من المتناقضات ، ولم يصلنا من المعارف الدِّينيَّة ، الأكثر أهمِّيَّة وخطراً ، إلاَّ آثار عامة نجد فيها ـ إذا بحثناها في تفاصيلها ـ أحياناً تعاليم متناقضة »[1] .

لن ندافع هنا عن القرآن الكريم ، وسموِّه عن التَّناقض[2] ، ولكنَّنا نقول بملء فمِنَا ، وبأعلى صوتنا : لو نزل القرآن الكريم في هذا العصر ، حيث التَّقدُّم العلمي وازدهاره العظيم ، لما اختلفت نظرته للكون ، ولا اختلفت وصاياه التَّربويَّة والرُّوحيَّة للإنسان ، فهو الحجَّة على صدق ما جاء به الوحي الإلهي .

وقبل توضيح هذا (الإسقاط) ، تحضرنا قصَّة (الحاج إبراهيم خليل أحمد) ، الَّذي كان قسّاً مبشِّراً مهمَّته تزييف حقائق الإسلام ، ومنها أنَّ في القرآن تناقضات عديدة .

الحاج إبراهيم خليل أحمد ، كان اسمه قبل إشهار إسلامه (القسّ إبراهيم خليل فيلوبوس) .. يروي قصَّته الكاملة مع الإسلام والإيمان فيقول[3] :

(١) جولد تسيهر في بحثه : (نمو العقيدة الإسلاميَّة وتطوُّرها) ، ويشاركه في هذا الإسقاط كثيرون ، منهم : لوسيان كليوفنتش في كتابه : (المسلمون تحت الحكم الشُّيوعي) .
(٢) لقد قمنا بذلك في الجلسة الثَّالثة من كتابنا : (الإسلام في قفص الاتِّهام) .
(٣) (القبس) الكويتيَّة : الاثنين ٥ رمضان ١٣٩٦ هـ ، الموافق ٣٠ آب (أُغسطس) ١٩٧٦ ، العدد : ١٥٤٠ .

أنـا من مواليـد الإسكنـدريَّـة في ١٣ ينـايـر (كانون الثَّـاني) ١٩١٩ م ، درست في مدارس الإرساليَّة الأمريكيَّة حتَّى الثَّانويَّة العامَّة ، ثمَّ حصلت على دبلوم كلِّيَّـة أسيوط سنة ١٩٤٢ م ، وتخصَّصت في الدِّراسات الدِّينيَّة تمهيداً لدخولي كلِّيَّة اللاهوت ، ولم يكن الالتحـاق بكلِّيَّـة اللاهوت بـالأمر السَّهل ، ولا يستطيـع أي حـاصـل على الـدِّبلـوم أن يلتحق بهذه الكلِّيَّة ، بل لا بدَّ من تزكيـة الكنيسـة ، واجتيـاز عـديـد من الاختبـارات الدَّقيقة ، ولقد حصلت على تزكية كنيسة العطَّـارين بـالإسكنـدريَّـة ، كما حصلت على تزكية المجمع الكنسي للوجه البحري بعد إجراء اختبارات عديدة ودقيقة ، للتَّعرُّف على مدى استعـدادي لأن أصبح رجل دين ... ثمَّ حصلت على تزكيـة المجمع (السنودس) ، وهو يضمُّ مجموعـة قسـاوسـة من السُّودان ومصر ، ويعتبر كمؤتمر ديني عـام ... وقـد قرَّر (السنودس) الموافقة على دخولي كلِّيَّة اللاهوت سنـة ١٩٤٤ بـالقسم الـدَّاخلي ، ودرست على أيـدي أسـاتـذة أميركيِّين ومصريِّين ، وتخرَّجت في عـام ١٩٤٨ ، فعيِّنت في بلـدة (أسنا) بالوجـه القبلي في مصر ، وسجَّلت رسـالـة في العـام نفسـه عن طريق الجـامعـة الأمريكيَّـة في القـاهرة ، وكانت رسـالتي عن العمـل التَّبشيري بين المسلمين .. وقـد بـدأ تعرُّفي على الإسلام من خـلال دراستي لـه في كلِّيَّـة الـلاهـوت ، فنحن في هـذه الكلِّيَّـة ، نـدرس الإسلام وكل الأسـاليب الَّتي نستطيـع من خـلالهـا زعـزعـة إيمـان المسلمين بـه ، وتشكيكهم فيه .

وفي سنة ١٩٥٢ حصلت على الماجستير من جـامعـة برنستون الأمريكيَّـة ، وعُيِّنت أُستـاذاً في كلِّيَّـة الـلاهـوت بـأسيـوط ، **وكنت أقـوم بتـدريس الإسـلام والمغـالطـات والافتراءات الشَّائعة الَّتي يردِّدها أعداؤه والمبشِّرون ضدّه** ، وقـد رأيت في هـذه الفترة أن أُوسِّـع دراستي لكلِّ جـوانب الإسـلام ، وقرَّرت ألاَّ أكتفي بـالاطِّـلاع على كتب المبشِّرين والمستشرقين الَّتي تقتصر على الطَّعن في الإسـلام ، ولثقتي بنفسي ، وحبِّي للعلم ، قرَّرت أن أقرأ وجهـة النَّظر الأُخرى ، وأدرس القرآن بتعمُّـق ، وكان هـدفي من هذه كلِّه أن أُصبح متمكِّناً من مادَّتي تماماً ، بحيث أستطيع دفع الحجَّـة بـالحجَّـة ، وأكون

قادراً أن أُضيف إلى حجج المبشِّرين ضدَّ الإسلام حججاً جديدة من خلال دراستي وتعمُّقي .. ولكن النَّتيجة في الواقع كانت عكسيَّة ، فقد بدأ موقفي يهتزُّ ، وبدأت أشعر بصراع داخلي عنيف بيني وبين نفسي .. **واكتشفت أنَّ ما درسته من قبل ، وما كنت أُبشِّر به وأقوله للنَّاس كلُّه زيف وكذب** .. لكنَّني لم أستطع مواجهة نفسي ، وحاولت التَّغلُّب على هذه الأزمة الدَّاخليَّة والاستمرار في عملي ، وفي سنة ١٩٥٤ نُقلْتُ إلى أسوان سكرتيراً عامّاً للإرساليَّة السُّويسريَّة ، وكانت هذه وظيفة صوريَّة ، أمَّا حقيقة مهمَّتي فكانت التَّبشير ضدّ الإسلام في الصَّعيد الأقصى ، وخاصَّة بين المسلمين .

وفي هذه الأثناء عُقِدَ مؤتمر تبشيري في فندق (كتراكت) بأسوان ، ودعيتُ للكلام فيه ، وتكلَّمت يومها كثيراً ، وردَّدتُ كلَّ المطاعن المحفوظة ضدَّ الإسلام ، وبعد أن انتهيت من كلامي ، عاودتني أزمتي الذَّاتيَّة ، وبدأت في مراجعة موقفي مرَّة أُخرى ، وعدت أسأل نفسي : لماذا أقول هذا وأفعله ، وأنا أعلم أنَّني كاذب ، وأنَّ هذا الَّذي أقوه ليس هو الحق ، واستأذنت قبل انتهاء المؤتمر ، وخرجت وحدي متَّجهاً إلى بيتي ، كنت مهزوزاً متأزِّماً للغاية ... وفي تلك اللَّيلة شعرت براحة نفسيَّة عميقة ، عدت إلى بيتي وقضيت اللَّيل كله وحدي في المكتبة أقرأ القرآن ، ووقفت طويلاً عند الآية الكريمة : ﴿ لَوْ أَنْزَلْنَا هَذا القُرآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللهِ ﴾ [الحشر : ٥٩/٢١] ، كما وقفت طويلاً عند الآية الكريمة : ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا اليَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُم قِسِّيسِينَ وَرُهْبَاناً وَأَنَّهُم لا يَسْتَكْبِرُونَ ☆ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُم تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ☆ وَمَا لَنَا لاَ نُؤْمِنُ بِاللهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ القَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴾ [المائدة : ٥/٨٢ـ٨٤] .

وفي تلك اللَّيلة ـ اتَّخذت قراري النِّهائي[1] ... وأشهرت إسلامي رسميّاً في ١٩٥٩/١٢/٢٥ .

أصدر الحاج إبراهيم خليل أحمد عدَّة كتب تكشف عن حقائق الإسلام ، وعن أساليب المبشِّرين والمستشرقين ضدّه ، منها :

١ ـ محمد في التَّوراة والإنجيل والقرآن ، وهي دراسة مقارنة للأديان الثَّلاثة .
٢ ـ المستشرقون والمبشِّرون في العالم العربي والإسلامي .
٣ ـ الاستشراق والتَّبشير وصلتها بالإمبرياليَّة العالميَّة .
٤ ـ المسيح إنسان لا إله .
٥ ـ الإسلام في الكتب السَّماويَّة .
٦ ـ المخطط التَّبشيري والاستعمار .
٧ ـ اعرف عدوَّك .. (إسرائيل) عقيدة وسياسة .

وهكذا .. إنَّ دراسة مقارنة للأديان تؤكِّد أنَّ الإسلام دين ذو قوَّة روحانيَّة تقود الإنسان (**عقلاً ومحاكمة**) إلى وحدانيَّة الخالق ، وإلى الأُخوَّة الإنسانيَّة .

وإذا أردنا أن نبيِّن هذا (الإسقاط) بشكل موسَّع ، فعلينا إيراد ـ وبشكل كامل ـ الفصل الثَّالث من الباب الأوَّل من كتاب (إظهار الحقّ) للشَّيخ رحمة الله خليل الرَّحمن الهندي ، ولكن سنكتفي ببعض ما أورده (موريس بوكاي) في كتابه : (القرآن الكريم والتَّوراة والإنجيل والعلم) ، دراسةُ الكتب المقدَّسة في ضوء المعارف الحديثة[2] :

كثيرون من قرَّاء الأناجيل يشعرون بالحرج ، بل بالحيرة ، عندما يتأمَّلون في معنى بعض الرِّوايات ، أو عندما يقارنون روايات مختلفة لحدث واحد مروي في كثير

---

(١) نورد هنا قصَّة إسلامه مختصرة ، انظر : (آراء يهدمها الإسلام) ، ص : ١١٢ ، دار الفكر بدمشق .
(٢) طبعة جمعيَّة الدَّعوة الإسلاميَّة العالميَّة ـ طرابلس ـ الجماهيريَّة .

من الأناجيل ، تلك هي الملاحظة الَّتي يقدِّمها الأب روجي R.P.Roguet في كتابه مقدِّمة إلى الإنجيل .

من الاختلافات الَّتي هي على جانب كبير من الأهمِّيَّة بين إنجيل يوحنا والأناجيل الأُخرى ، الاختلاف الخاص بالفترة الزَّمنيَّة لبعثة المسيح ، إذ يحدِّدها مرقس ومتّى ولوقا بعام واحد ، أمَّا بالنِّسبة ليوحنّا فهي تمتد على أكثر من عامَيْن ، ويشير (أ. كولمان) إلى هذا الأمر ، وأمَّا التَّرجمة المسكونيَّة فهي تصرِّح عن هذا الموضوع بما يلي : « على حين تحدِّثنا الأناجيل الثَّلاثة المتوافقة عن فترة طويلة بالجليل ، تتبعها مسيرة نحو النَّاصرة Judee تمتدُّ قليلاً أو قد تقصر ، ثُمَّ يليها أخيراً المكوث فترة قصير بالقدس ، فإنَّ يوحنّا على العكس ، يسرد انتقالات عدَّة للمسيح من منطقة إلى أخرى ، ويتحدَّث عن مكوثه فترة طويلة بأرض النَّاصرة وبالقدس على وجه خاص (١ـ١٩ : ٥١ إلى ٢ـ١٣ إلى ٣ـ٣٦ ، ٥ـ١ : ٤٧ ، ١٤ـ٢٠ : ٣١) ويشير إلى احتفالات فصيحة متعدِّدة (٢ـ١٣ ، ٥ـ١ ، ٦ـ٤ ، ١١ـ٥٥) ، وهو بهذا يوحي بأنَّ بعثة المسيح قد دامت أكثر من عامين » .

إذن فمن يجب أن يُصدَّق ؟ أنصدِّق متَّى أَمْ مرقس أَمْ لوقا أَمْ يوحنّا ؟

إنَّ دراسة نقديَّة لنصوص الأناجيل ، تقود إلى اكتساب مفهوم أدب (مفكَّك تفتقر خطَّته إلى الاستمرار) ، و (**تبدو تناقضاته غير قابلة للحلِّ**) . ومنها (شجرتا نسب المسيح) .

تطرح شجرتا النَّسب اللَّتان يحتوي عليهما إنجيلا متَّى ولوقا ، مشاكل تتعلَّق بالمعقوليَّة ، وبالاتِّفاق مع المعطيات العلميَّة ، ومن هنا فهي مشاكل تتعلَّق بالصحَّة .. وبادئ ذي بدء يجب ملاحظة أنَّ هذين النَّسبَيْن من جهة الرِّجال معدوما المعنى فيما يتعلَّق بالمسيح ، ولو كان من الضَّروري إعطاء المسيح نسباً ، وهو وحيد مريم (أمه) وليس له أبٌ بيولوجي فيجب أن يكون ذلك النَّسب من جهة مريم فقط .

إنَّ إنجيل متَّى يجعل نسب المسيح : عيسى بن يوسف بن يعقوب ...

وإنَّ إنجيل لوقا يجعل نسب المسيح : عيسى بن يوسف بن عالي ...

ويُعْلَم من إنجيل متَّى أنَّ عيسى من أولاد سليمان بن داود ، ويُعْلَم من إنجيل لوقا أنَّه من أولاد ناثان بن داود .

وفي إنجيل متَّى من داود إلى المسيح ستّة وعشرون جيلاً ، وفي إنجيل لوقا واحد وأربعون جيلاً .

هذه أوجه اختلاف في نسب المسيح ، وهو نسب يوسف النَّجَّار الَّذي كان رجل مريم كما تذكر الأناجيل ، وهذا الاختلاف الَّذي يعترف به المسيحيُّون ، ولا يجدون مناصاً من الإقرار به .

ويقول موريس بوكاي ، تحت عنوان : (تناقضات وأُمور غير معقولة في الرِّوايات) : يحتوي كلٌّ من الأناجيل الأربعة على عدد هام من الرِّوايات الَّتي تسرد أحداثاً قد تكون مذكورة في إنجيل واحد فقط ، أو تذكر في عدَّة أناجيل أو فيها كلها ، فإذا كانت مذكورة في إنجيل واحد فقط ، فإنَّها تطرح مشاكل هامَّة ، وعلى هذا ففي حالة ما يكون الحدث بعيد المرمى فإنَّ القارئ يدهش أنَّ مبشِّراً واحداً فقط قد ذكره ، وعلى سبيل المثال صعود المسيح إلى السَّماء يوم القيامة ، يضاف إلى ذلك أنَّ كثيراً من الأحداث مسرود بشكل مختلف ، وأحياناً بشكل مختلف جدّاً لدى اثنين أو أكثر من المبشِّرين ، وكثيراً ما يدهش المسيحيُّون عندما يكتشفون وجود هذه التَّناقضات بين الأناجيل ، فقد كُرِّر على مسمعهم وبكثير من التَّأكيد أنَّ كُتَّاب الأناجيل كانوا شهوداً معاينين للأحداث الَّتي أُخبروا بها .

ومن الرِّوايات المتضاربة أو المتناقضة ، الأحداث الأخيرة الَّتي طبعت حياة المسيح والَّتي تلت آلامه ، ويلاحظ الأب (روجي) نفسه ، أنَّ عيد الفصح معيَّن بشكل

مختلف زمنيّاً بالنِّسبة إلى عشاء المسيح الأخير مع الحواريِّين في الأناجيل الثّلاثة المتوافقة ، وفي الإنجيل الرَّابع ، فيوحنّا يقول بوقوع هذا العشاء (قبل عيد الفصح) ، أمَّا الأناجيل الأُخرى فتقول إنَّه حدث في أثناء عيد الفصح نفسه ، ويؤدِّي هذا التَّضارب ، فضلاً عن ذلك ، إلى أُمور واضحة في عدم معقوليَّتها ؛ إذ يستحيل تصوُّر هذا الحدث أو ذاك بسبب موقع عيد الفصح الَّذي تحدَّد بهذا الشَّكل وبالنِّسبة إلى هذا الحدث ، وعندما ندرك أهمِّيَّة عيد الفصح في الطُّقوس اليهوديَّة والأهميَّة الَّتي اكتسبها هذا العشاء الَّذي ودَّع فيه المسيح حوارييه ، فكيف يمكن تصوُّر أنَّ التُّراث الَّذي نقله المبشِّرون فيما بعد قد نسِيَ زمن هذا العشاء بالنِّسبة إلى عيد الفصح ؟

وبشكل أكثر عموميَّة ، تختلف روايات الآلام بحسب الأناجيل ، وهي تختلف بشكل خاص بين الأناجيل الثَّلاثة الأولى وبين إنجيل يوحنا ، فالعشاء الأخير للمسيح والآلام يحتلاَّن في إنجيل يوحنا مساحة كبيرة ، تبلغ ضعف المساحة عند كلٍّ من مرقس ولوقا ، ويزيد نصٌّ يوحنا بمقدار مرَّة ونصف المرَّة على نصِّ متَّى ، ويسرد يوحنا خطبة طويلة للمسيح نحو تلامذته ، ويحتلُّ سرد هذه الخطبة أربع إصحاحات (من ١٤ إلى ١٧) في إنجيله ، وعبر هذا الحديث الأعظم ، يعطي المسيح آخر إرشاداته لتلامذته الَّذين سيتركهم كما يسلمهم وصيَّته الرُّوحيَّة ، وليس هناك أي أثرٍ من هذا في الأناجيل الأخرى ، وعلى العكس ، يسرد متَّى ولوقا ومرقس صلاة المسيح الجيتسماني ، ولا يشير يوحنا إليها .

وأهمُّ ما يلفت قارئ الآلام في إنجيل يوحنا ، هو أنَّه لا يشير أي إشارة تأسيس القربان المقدَّس في أثناء عشاء المسيح الأخير مع الحواريِّين .

وليس هناك مسيحي لا يعرف إيقونة العشاء الأخير ، حيث يجلس المسيح بين حوارييه للمرَّة الأخيرة ، لقد صوَّر أعظم المصوِّرين هذا الاجتماع الأخير وفيه يجلس يوحنا إلى جانب المسيح ، يوحنا .. هذا الَّذي اعتدنا اعتباره مؤلِّف الإنجيل الَّذي يحمل اسمه .

ومهما كان في ذلك دهشة للكثيرين ، فإنَّ غالبية المتخصِّصين لا يعتبرون أنَّ يوحنا الحواري هو مؤلِّف الإنجيل الرَّابع ، وهذا الأخير لا يشير إلى تأسيس القربان المقدَّس ، هذا على حين أنَّ تقديس الخبز والخمر اللَّذين يصبحان جسد المسيح ودمه ، هو الفعل الطَّقسي الكنسي الجوهري للمسيحيَّة ، إنَّ الأناجيل الثَّلاثة الأُخرى تتحدَّث عن هذا الفعل ، وإن كان ذلك بألفاظ مختلفة .. أمَّا يوحنا ، فهو لا يقول عنه كلمة واحدة ، روايات الأناجيل الأربعة تحتوي فقط على نقطتين مشتركتين : التَّنبُّؤ بإنكار بطرس وخيانة أحد الحواريِّين (ولا يشار إلى يهوذا الأسخريوطي باسمه إلا في إنجيلي متَّى ويوحنا) ، إنَّ إنجيل يوحنا وحده هو الَّذي يسرد غسل المسيح لأقدام تلامذته في بداية العشاء .

كيف يمكن تفسير هذه الثَّغرة في إنجيل يوحنا ؟

إذا أردنا التَّفكير بموضوعيَّة ، فإنَّ أوَّل ما يرد على الخاطر ، على افتراض أنَّ رواية الأناجيل الثَّلاثة الأولى صحيحة ، هو فرصة ضياع هذه الفقرة من إنجيل يوحنا الَّذي يسرد الحدث نفسه ، ولكن هذا ما لم يتوقَّف عنده المعلِّقون المسيحيُّون ، ولندرس بعض مواقفهم .

يقول أ . تريكو A.Tricot تحت مقال بعنوان (العشاء الأخير Cene) ما يلي : « هو آخر عشاء تناوله المسيح مع الاثني عشر حواريّاً ، والَّذي أسس فيه القربان المقدَّس ، ونحن نملك رواية هذا العشاء في الأناجيل الثَّلاثة المتوافقة ، (مراجع : متَّى ومرقس ولوقا) ، ويعطينا الإنجيل الرَّابع تفاصيل تكميليَّة ، (مراجع : يوحنا) » .

وفي مقال (القربان المقدَّس) يقول هذا الكاتب ما يلي : « تسرد الأناجيل الثَّلاثة الأولى تأسيس القربان المقدَّس بشكل مختصر ، وقد كانت تلك نقطة على أهمِّيَّة كبرى في التَّعليم المسيحي الرَّسولي ، وقد أعطى القدِّيس يوحنا تكملة ضروريَّة لهذه الرِّوايات الوجيزة ، وذلك بسرد خطبة المسيح عن خبز الحياة (الإصحاح ٦ : ٣٢ـ٥٨) » ،

وبالتَّالي لا يشير المعلِّق إلى أنَّ يوحنا لم يسرد تأسيس المسيح للقربـان المقـدَّس ، المؤلِّف يتحدَّث عن تفاصيل تكميليَّة لتأسيس القربان المقـدَّس (والواقع أنَّ المقصود هو منسـك غسل أقـدام الحواريِّين) ، أمَّـا فيما يخصُّ (خبز الحيـاة) الَّـذي يتحـدَّث عنـه المعلِّـق ، فالمقصود هو ذكر المسيح ـ خارج العشاء الأخير ـ للمنِّ الَّذي وهبـه الله في الصَّحراء ، في عصر خروج اليهود الَّذين كان موسى قادهم ، ويوحنا هو الوحيد من بين المبشِّرين الَّذي يذكر بهذا الأمر ، ولا شـك في أنَّ يوحنـا يشير في الفقرة التَّـاليـة في إنجيلـه ، لإشـارة المسيح للقربان المقدَّس ، وذلك في شكل استطراد خاص بالخبز ، ولا يتحدَّث أيُّ مبشِّر آخر عن هذا الحدث .

هكـذا إذن يمكن أن نـدهش لصمت يـوحنـا على مـا يسرده المبشِّرون الثَّلاثـة الآخرون ، ولصمت هؤلاء على ما أعلن المسيح عنه في قول يوحنا .

هذه الثَّغرة الكبيرة في إنجيل يوحنا ، يعترف بهـا المعلِّقون على التَّرجمـة المسكونيَّـة للعهد الجـديـد ، ولكنَّهم يقـدِّمون التَّبرير التَّـالي لعـدم سرد يوحنـا لتـأسيس القربـان المقـدس ، يقولون : « إنَّ يوحنـا ـ عمومـاً ـ لا يُكِنُّ أيَّ اهتمام إزاء تقـاليـد ومـؤسسـات إسرائيل القديمة ، وربَّما كان هذا هو الَّذي جعله يحيـد عن الإشـارة إلى تـأصُّل القربـان المقدَّس في طقوس عيد الفصح » ، كيف يريدون أن نصدِّق أنَّ عـدم الاهتمام بـالطُّقوس الفصحيَّة اليهوديَّة هو الَّذي قاد يوحنا إلى أن لا يتحـدَّث عن تـأسيس المنسـك الرئيسي في طقوس الدين الجديد ؟

إنَّ المشكلـة تحرج المفسِّرين إلى درجـة أنَّ علمـاء اللاهوت يحتـالـون في البحث عن صور أوَّليَّة أو معادلات للقربان المقدَّس في أحداث حياة المسيح الَّتي يسردهـا يوحنـا ، فهكـذا يرى أ. كولمـان O.Culmann في كتـابـه (العهـد الجـديـد) أنَّ معجزة قـانـا[1] وتكاثر الخبز ، هما بمثابة صورة مسبقة لسرِّ العشاء المقدَّس (تنـاول القربـان المقـدَّس) ،

(١) قانا : قرية في الجليل (فلسطين) ، ذكر الإنجيل أنَّ المسيح حوَّل فيها الماء خمراً في مأدبة عرس .

ولنذكر بأن ما حدث بقانا هو تحويل الماء إلى خمر نفذت في أحد الأعراس (وهي أول معجزة للمسيح ، ويذكرها يوحنا وحده من بين كلّ المبشّرين ، في الإصحاح الثّاني من إنجيله ، الآيات من (١ إلى ١٢) ، أمَّا فيما يختصُّ بتكاثر الأرغفة (يوحنا ، الإصحاح السّادس ، الآيات من ١ إلى ١٣) ، فقد أدَّى ذلك إلى إطعام خمسة آلاف شخص بخمسة أرغفة تكاثرت بمعجزة ، وعندما سرد يوحنا هذه الأحداث فإنَّه لم يضف أي تعليق خاص ، إنَّ عمليَّة تقريب هذه المعجزات من تأسيس القربان المقدَّس هي من وحي خيال المفسِّر الصِّرف ، ولا يرى القارئ سبب هذا التَّقريب ، كما يظلُّ مبلبلاً جدّاً عندما يكتشف أنَّ هذا الكاتب نفسه ، يرى أنَّ شفاء المشلول والأعمى يبشِّران بالتَّعميد ، وأنَّ « الماء والدَّم الخارجَيْن من صدر المسيح بعد موته يجمعان في حدث واحد إحالة إلى التَّعميد والقربان المقدَّس » .

ويعطي الأب روجي في كتابه (مقدِّمة إلى الإنجيل ، ص : ١٨٢) أمثلة على الاختلاط والفوضى والتّناقض الَّتي تسود روايات (ظهور المسيح بعد قيامته) ، فيقول :

« لا تطابق تماماً في الأناجيل الثَّلاثة المتوافقة في قائمة النِّساء الآتين إلى القبر ، فليس هناك إلاَّ امرأة واحدة في إنجيل يوحنا ، وهي مريم المجدليَّة ، ولكنَّها تتحدَّث بضمير الجماعة كما لو كانت لها رفيقات فهي تقول : « لا نعرف أين وضعوه » ، أمَّا في إنجيل متَّى فملاك هو الَّذي يعلن للنِّساء أنَّهنَّ سيرين المسيح بالجليل ، ولكن المسيح بعد لحظة يقابلهنَّ على مقربة من القبر ، ولا شكَّ أنَّ لوقا قد شعر بهذه الصُّعوبة وعدَّل قليلاً في مصدره ، يقول الملاك : « تذكرون كيف تحدَّث إليكنَّ عندما كان بالجليل ... » ، والواقع أنَّ لوقا لا يشير إلاَّ إلى ظهور المسيح ثلاث مرَّات بعد قيامه ، أمَّا يوحنا فيقول إنَّه ظهر مرَّتين على ثمانية أيَّام بجمع بيت المقدس ، ثمَّ في المرَّة الثَّالثة يظهر بالقرب من البحيرة .. إذن بالجليل ، وأمَّا متَّى فإنَّه يتحدَّث عن مرَّة واحدة

لظهور المسيح بالجليل ، ويستبعد (روجي) من هذه الدِّراسة خاتمة إنجيل مرقس الَّتي تتحدَّث عن ظهور المسيح ، لأنَّه يعتقد أنَّها « قد كتبت بقلم آخر » .

وكلُّ هذه الأمور تتناقض مع الإشارات إلى ظهور المسيح المحتواة في رسالة بولس الأولى إلى أهل كورنثوس (١٥/٥ـ٧) ، إذ يقول إنَّه قد ظهر لأكثر من خمسمئة شخص في وقت واحد ، ولجاك ولكلِّ الحواريِّين دون أن ينسى نفسه .

وإنَّه لَمِمَّا يثير الدَّهشة بعد ذلك أن يندِّد الأب روجي في هذا الكتاب نفسه « بالخوارق الطَّنَّانة والطُّفوليَّة في بعض الأناجيل المزوَّرة ، فيما يتعلَّق بقيامة المسيح ، ألا تصلح هذه الأوصاف بشكل كامل لمتَّى وبولس نفسه الَّذي يتناقض تماماً مع المبشِّرين الآخرين فيما يختصُّ بظهور المسيح بعد قيامته ؟

وتمتدُّ المتناقضات حتَّى نهاية الرِّوايات ، لأنَّه ليس يوحنا ، ولا متَّى يشيران إلى صعود المسيح ، فمرقس ولوقا فقط يتحدَّثان عن هذا .

وبالنِّسبة لمرقس (١٦ : ١٩) فإنَّ المسيح « قد رُفِعَ إلى السَّماء وجلس على يمين الله » ، وهذا دون تحديد تاريخي بالنِّسبة لقيامته ، ولكن لا بدَّ من ملاحظة أنَّ نهاية إنجيل مرقس الَّتي تحتوي على هذه الجملة ، ليست نصّاً صحيحاً ، وهي نصٌّ كُتِبَ وأُضيف بعد ذلك في رأي الأب روجي ، حتَّى وإن كانت الكنيسة تعتبره قانونيّاً .

يتبقَّى إنجيل لوقا ، فهو الوحيد الَّذي يذكر حدث الصُّعود ، وذلك في نصٍّ لا يناقشه أحد (٢٤ : ٥١) ، يقول : « انفصل المسيح عنهم وحُمِلَ إلى السَّماء » ، ويضع لوقا الحدث في نهاية رواية قيامة المسيح وظهوره للأحد عشر حواريّاً[1] ، وتتضمَّن تفاصيل الرِّواية الإنجيليَّة أنَّ الصُّعود قد حدث يوم القيامة ، ولكن لوقا يصف في (أعمال الرُّسل) ـ والكلُّ يعتقد أنَّه كاتبها ـ مرَّات ظهور المسيح للحواريِّين بين الآلام

(١) المقصود هو الأحد عشر حواريّاً حيث إنَّ الثَّاني عشر ، وهو يهوذا ، قد مات .

والصُّعود بالألفاظ التَّالية : « وقد حصلوا منه على أكثر من آية على حين أظهر نفسه لهم وحدَّثهم ، طيلة[1] أربعين يوماً ، عن ملكوت الله » (١ : ٢ـ٣) ، إنَّ هذه الفقرة من (أعمال الرُّسل) هي الأصل في تحديد العيد المسيحي للصُّعود بأربعين يوماً بعد الفصح وحيث يحتفل بالقيامة ، التَّاريخ إذن محدَّد على عكس إنجيل لوقا ، ويضاف إلى ذلك أنَّ ليس هناك أي نصٍّ آخر يبرِّر هذا التَّحديد التَّاريخي .

إنَّ المسيحي وقد عرف هذا الموقف يشعر بالحيرة ، فالتَّناقض واضح ، ومع ذلك فالتَّرجمة المسكونيَّة للعهد الجديد تعترف بهذا الواقع ، ولكنَّها لا تفيض في الحديث عن التَّناقض ، بل هي تكتفي بالإشارة إلى احتمال أهمِّيَّة هذه الأربعين يوماً بالنِّسبة لرسالة المسيح .

وإنَّ المعلِّقين الَّذين يريدون شرح كل شيء ، والتَّوفيق بين ما لا يقبل التَّوفيق يعطوننا في هذا الشَّأن تفسيرات شاذَّة .

وإنجيل يوحنا هو المبشِّر الوحيد الَّذي سرد ما حدث في نهاية العشاء الأخير للمسيح وقبل القبض عليه ، أي آخر أحاديثه مع الحواريِّين ، وينتهي هذا الحدث بخطبة طويلة ، فإنجيل يوحنا يفرد أربع إصحاحات (من ١٤ إلى ١٧) لتلك الرِّواية الَّتي لا نجد لها أثراً في الأناجيل الأخرى ، ومع ذلك فهذه الإصحاحات من إنجيل يوحنا تعالج مسألة أساسيَّة وآفاق مستقبل ذات أهمِّيَّة بالغة ، وهي معروضة بكامل العظمة والجلال اللَّذين يميِّزان هذا المشهد لوداع السَّيِّد لتلامذته .

كيف يمكن أن نشرح الغياب التَّام في أناجيل متَّى ومرقس ولوقا للوداع المؤثِّر الَّذي يحتوي على الوصيَّة الرُّوحيَّة للمسيح ؟ يمكن أن نطرح السُّؤال التَّالي : هل كان النَّصُّ موجوداً أوَّلاً عند المبشِّرين الثَّلاثة الأوَّلين ؟ ألم يحذف فيما بعد ؟ لماذا ؟ ولنقل

(١) هكذا في الأصل . والصَّواب : طَوالَ .

فوراً إنَّه لا يمكن الإتيان بأيَّة إجابة ، فاللُّغز مستغلق تماماً بـالنِّسبـة لهـذه الثَّغرة الكبيرة في رواية المبشِّرين الثَّلاثة الأولين .

إنَّ ما يسود الرِّواية هو مستقبل البشر الَّذي يتحـدَّث عنـه المسيح ، واهتمام السَّيِّـد بالتَّوجُّه إلى تلامذته وإلى الإنسانيَّـة برمَّتهـا عبرهم ، معطيـاً إرشـاداتـه وأوامره ومحـدِّداً بشكل نهائي المرشد الَّذي على الإنسانيَّة أن تتبعه بعد اختفـائـه ، إنَّ نصَّ إنجيل يوحنـا ـ وهذا النَّص وحده ـ يسمِّي بشكل صريح هـذا المرشـد بـاسم يونـاني هو Parakletos ، الَّذي أصبح في الفرنسيَّة Paraclet ، وها هي ذي الفقرات الجوهريَّـة من هـذه الخطبـة حسب التَّرجمـة المسكونيَّـة للعهـد الجـديـد : « إذا كنتم تحبُّـونني فستعملـون على اتِّبـاع أوامري ، وسأُصلِّي للأب الَّذي سيعطيكم Paraclet آخر » (١٤ : ١٥ـ١٦) .

وبعـد شرح لغوي يقول مـوريس بـوكاي : وعنـدمـا يقـول المسيـح حسب إنجيـل يوحنا (١٦ : ١٤) : « سأُصلِّي لله وسيرسل لكم Paraclet آخر » ، فهو يريد بالفعل أن يقول إنَّه سيرسل إلى البشر وسيطاً (آخر) ، كما كان هو وسيطـاً لـدى الله ، وفي صـالح البشر في أثناء حياته على الأرض .

ذلك يقودنا بمنتهى المنطق إلى أن نرى في الـ (Paraclet) عند يوحنا كائناً بشريّاً مثل المسيح يتمتَّع بحاسَّتَي السَّمع والكلام ، وهما الحـاسَّتـان اللَّتـان يتضمَّنهما نصُّ يوحنـا بشكل قاطع ، إذن فالمسيح يصرِّح بأنَّ الله سيرسل فيما بعد كائناً بشريّاً على هذه الأرض ليؤدِّي الدَّور الَّذي عرفه يوحنا ، ولنقل باختصـار إنَّـه دور يسمع صوت الله ، ويكرِّر على مسامع البشر رسالته ، ذلك هو التَّفسير المنطقي لنص يوحنا إذا أعطينـا الكلمـات معناها الفعلي .

إن وجود كلمتي (روح القدس) في النَّص الَّذي نملك اليوم[١] ، قد يكون نابعاً من

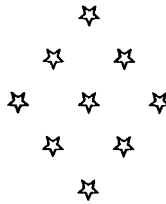
---

(١) تفسيراً لكلمة Paraclet الَّتي كانت سائدة في القرن الأوَّل بمعنى : الوسيط والمدافع والمنقذ ..

إضافة لاحقة إراديَّة تماماً تهدف إلى تعديل المعنى الأوَّل لفقرة تتناقض ـ بإعلانها بمجيء نبيٍّ بعد المسيح ـ مع تعاليم الكنائس المسيحيَّة الوليدة الَّتي أرادت أن يكون المسيح هو خاتم الأنبياء .

ويختم موريس بوكاي بقوله : « هناك العبارات المذكورة في الأناجيل فهي نفسها تثبت تناقضات جليَّة .. فخيالات متَّى ، والمتناقضات الصَّارخة بين الأناجيل والأمور غير المعقولة ، وعدم التَّوافق مع معطيات العِلْم الحديث ، والتَّحريفات المتوالية للنُّصوص ، كلٌّ هذا يجعل الأناجيل تحتوي على إصحاحات وفقرات تنبع من الخيال الإنساني وحده ..

ألم نقل إنَّه (الإسقاط) ليس غير ؟ وإنَّ كلَّ ما يقال بشأن القرآن الكريم من قبيل : « رمتني بدائها وانسلَّت » ؟.



الإسقاط السادس

القرآن
رؤى رآها محمَّد ﷺ

يذكر فيليب حتّي ، في كتابه (تاريخ العرب المطوَّل) في معرض حديثة عن سيرة محمَّد ﷺ : « فيما هو نائم [ﷺ] يوماً في هذا الغار [غار حِرَاء] ، سمع صوتاً يأمره قائلاً : ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذي خَلَقَ ﴾ إلخ سورة العلق ، فكان هذا أوَّل الوحي وبدء الرِّسالة »[١] .

ويذكر نولدكه : « إنَّ سبب الوحي النَّازل على محمد [ﷺ] ، والدَّعوة الَّتي قام بها ، هو ما كان ينتابه من داء الصَّرع »[٢] .

احتار (الْمُسْقِطُونَ) الحاقدون المتعصِّبون من أعداء الإسلام في اختيار طرق الدَّسِّ والكيد والكذب ، حتَّى أوقعوا أنفسهم في كثير من الأحيان بالتَّناقض .

والغريب فيهم أنَّهم يقبلون أن تكون التَّوراة وحياً من الله ، وتنزيلاً منه على موسى عليه السَّلام ، ويقبلون أن تكون أقوال الحواريِّين وتلامذة المسيح عليه السَّلام ، رواية عنه كما سمعوها ، أو كما وصلت إليهم على أنَّها وحي من الله ، ثابت في نصِّه وحروفه : « فإنِّي الحقَّ أقول لكم إلى أن تزول السَّماء والأرض لا يزولُ حرف واحد أو نقطة واحدة من النَّاموس حتَّى يكون الكلّ » ، [متَّى : ١٨/٥] ، لا يزول حرف واحد أو نقطة واحدة من النَّاموس ، على ما بين رواياته من اختلاف وتناقض .

(١) تاريخ العرب المطوَّل ، ص : ١٥٧ .

(٢) حاضر العالم الإسلامي ، لوثروب ستودارد : ٣٤/١ .

أمَّـا مـا أُنـزل على محمّـد بن عبـد الله ﷺ ، فهـو - بـزعمهم وإسقـاطهم - رؤى ومنـامـات ، ومتى كان الإنسـان يرى في أحـلامـه كتـابـاً مُحْكَماً ، لا تنـاقض فيـه ، ولا يخـالف عقلاً أو علماً ، وفيـه تشريع متكامـل للمجتمـع ، ينظِّم لـه قـواعـد حيـاتـه السِّياسيَّة والاجتماعيَّة والاقتصاديَّة ؟

باللعجب العجاب .. الرِّوايات المتناقضة ، والأقوال الَّتي يخجل الإنسان أن تنسب إليه ، فينسبها أولئك المتعصِّبون إلى الله ، تعـالى وجلَّ عمَّـا يقولون ، تلـك كلهـا آيـات أُوحي بها إلى رسل وأنبياء ، والكتاب المتكامل الَّـذي لا يـأتيـه البـاطل من بين يـديـه ولا من خلفه ، رؤى ومنامات ؟!.

إذا كان علماء النَّفس قد قالوا : إنَّ الهوى يعمي ويصمُّ ، فـإنِّي أقول : إنَّ التَّعصُّب يعمي ويصم ، ويقلب الباطل حقّاً ، والحق باطلاً .

وعلى كلٍّ ، أين الإسقاط في الرُّؤى والصرع ؟

أوَّلاً (الرُّؤى) :

يعلم البـاحثـون أنَّ أوَّل إشـارة لإنجيـل مسيحي كانت سنـة ١٥٠ م ، في كتـابـات بَبْيَـاس (Papias) الَّـذي كتب في عـام ١٣٥ م : إنَّ يـوحنـا الأكبر - وهـو شخصيَّـة لم يستطع الاستدلال على صاحبها - قال إنَّ مرقس ألَّف إنجيلـه من ذكريـات نقلهـا إليـه بطرس »[١] .

« ولا يـدعى الإنجيل الرَّابع [إنجيل يوحنـا] أنَّـه ترجمـة ليسوع ، بـل هـو عرض للمسيح من وجهة النَّظر اللاَّهوتيَّة بوصفه كلمة الله ، وخالق العـالم ، ومنقـذ البشريَّـة ، وهو يناقض الأناجيل الأخرى في كثير من التَّفـاصيل وفي الصُّورة العـامَّـة الَّتي يرسمهـا للمسيح »[٢] .

(١) قصَّة الحضارة : ٢٠٧/١١ .

(٢) قصَّة الحضارة : ٢٠٩/١١ .

« وملاك القول أنَّ ثمَّة تناقضاً كثيراً بين بعض الأناجيل والبعض الآخر ، وأنَّ فيها نقطاً تاريخيَّة مشكوكاً في صحَّتها ، وكثيراً من القصص الباعثة على الرِّيبة والشَّبيهة بما يروى عن آلهة الوثنيِّين »[1] .

- أوَّل إشارة لإنجيل مسيحي سنة ١٥٠ م .
- ذكريات بطرس الَّتي نقلها إلى مرقس .
- عرض لحياة يسوع من وجهة النَّظر اللاَّهوتيَّة .
- تناقضٌ كثيرٌ بين الأناجيل .
- نقاط تاريخيَّة مشكوك في صحَّتها ، وقصص كثيرة باعثة على الرِّيبة ...

ثمَّ يلي الأناجيل الأربعة المعتمدة [متَّى ، مرقس ، لوقا ، يوحنا] : أعمال الرُّسل ، ورسائل إلى أهل : رومية ، وكورنثوس ، وغلاطية ، وأَفَسُس ، وفيلبي ، وكولوسي ، وتسالونيكي ، وتيموثاوس ، وتيطس ، وفليمون ، والعبرانيِّين ، ثمَّ رسالة : يعقوب ، وبطرس ، ويوحنَّا ، ويهوذا .

ثمَّ توِّج هذا كله بـ (**رؤيا يوحنَّا**) .

ومن هنا جاء إسقاط (الرُّؤى) ، لتغطية (**رؤيا يوحنَّا**) الَّتي أصبحت جزءاً لا يتجزَّأ من (كتابهم المقدَّس) !!

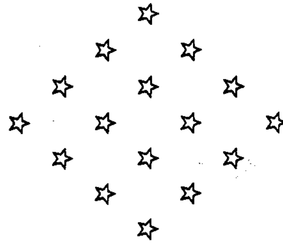
ثانياً (نوبات الصَّرع) :

أمَّا نوبات الصَّرع ، فلن نتكلم عنها مطوَّلاً ، فالعالم المسيحي كلُّه يعلم أنَّ شاؤول (بولس الرَّسول) ، الَّذي تحوَّل فجأة من ألدِّ أعداء يسوع وأتباعه ، إلى رسول مبشِّر بما جاء به يسوع ، كان مصاباً بداء الصَّرع ، وهذه حقيقة يعلمها كلُّ مسيحي مطَّلع ، ومن هنا جاء إسقاط (الصَّرع) .

---

(١) قصَّة الحضارة : ٢١٠/١١ .

والعاقل يعلم ، أنَّ المصابين بالصَّرع ، حافظتهم معطَّلة في نوبات صرعهم ، ومحمد ﷺ حافظته أجود ما تكون عند هبوط الوحي ، والنَّصارى لا ينكرون الوحي ظاهرة ، ويعترفون به للأنبياء ، ولكنَّهم ينكرونه لمحمد بن عبد الله ﷺ ، ولو نزل عليه القرآن الكريم اليوم ، بعد كلِّ اكتشافات العِلْم المذهلة ، مع سبر أغوار الأرض والمحيطات ، والتحليق في أعماق الكون ، لما اختلفت نظرته إلى الكون ، أو الحياة ، أو الإنسان ، والمكابرة في هذه الحقيقة ، هي مكابرة في المحسوس الملموس .



الإسقاط السابع

عقلَنَةُ الإسلام

يتســاءل المبشِّرون وقــد امتلكهم الغضب : كيف يستطيع دين العربي ، الَّــذي لا يقـدِّس العقل ، أو يحترمـه ، أن يسـابق كنيسـة دين ابن الله ؟ وهـل دين الإسـلام إلا مجموع خرافات وأباطيل لا يقبلها عقل[1] ؟

عجيب هــذا (الإسقــاط) وغريب ، لم تعرف ديــانــة من الشَّرائــع السَّماويَّــة والأرضيَّـة ، مـا عرفــه الإسـلام من اعتماد على العقـل والتَّفكير والبعــد عن الأســاطير والأسرار ، ولم يجعل الله من وسائل رسوله محمد ﷺ في دعوته للنَّاس ، ومحاولة إقنـاعهم أيَّة وسيلة تقوم على السِّحر أو الخوارق الَّتي لا يقبلهـا عقل ، كانقلاب العصـا إلى أفعى ، وإحياء الموتى ، وإن حدثت معجزات على يـد الرسول الكريم ﷺ ، فلم تكن أبـداً من باب البرهنة على صدق النُّبوَّة ، وإنَّما لضرورات ، أو ربَّما لتزيد المؤمنين إيماناً وثبـاتـاً ، وكانت المعجزة الكبرى في الإسلام هي كتابـه المجيـد (القرآن الكريم) الَّـذي تحـدَّى بـه العرب ، وما زالت أوجه إعجازه تبدو على مرِّ الأجيال .

وعنـدمـا طلب المشركون المعجزات من رسـول الله ﷺ ، نـزَّل الله قرآنـاً يُتْلى إلى قيام السَّاعة : ﴿ وَقَالُوا لَوْلاَ أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِن رَبِّهِ قُلْ إِنَّما الآيَاتُ عِنْدَ اللهِ وَإِنَّمَـا أَنَا

---

(١) الهلال والصَّليب ، خليل خالد أفنـدي ، طبع في مطبعـة الهـدايـة بـالقـاهرة سنـة ١٣٢٨ هـ/١٩١٠ م ، بعناية الشَّيخ عبد العزيز جاويش ، (انظر صفحة ٦٢ من الكتاب المذكور وما بعدها) .

نَـذِيرٌ مُبِينٌ ☆ أَوَلَمْ يَكْفِهِم أَنَّـا أَنْزَلْنَـا عَلَيْـكَ الكِتَـابَ يُتْلَى عَلَيْهِم إنَّ في ذَلِـكَ لَرَحْمَـةً وَذِكْرَى لِقَومٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [العنكبوت : ٢٩/٥٠و٥١] .

والقران الكريم في الكثير الكثير من آياته يخـاطب العقل ، ويـدعو إلى التَّفكير ، ويحضُّ على التَّـدبُّر ، ومـا أكثر الآيـات القرآنيَّـة الَّتي تنتهي بقـولـه تعـالى : ﴿ أَفَلا تَعْقِلُونَ ؟ ﴾ ، ﴿ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ ﴾ ...

فـأين هـذا من محـاولـة إثبـات أنَّ الثَّلاثـة هي واحـد ، وأنَّ الواحـد هو ثلاثـة ؟ وما وظيفة كل من أفراد هذا التَّثليث ؟

وأين هذا من قولهم إنَّ الابن مولود غير مخلوق ، والابن ليس أحدث من الأب ؟

وأين العقـل من قـولهم : « لا تقـل في قلبـك كيف يمكن أن يتجسَّـد الله ويصير إنساناً ، فدع ذلك لأنَّه من شأنه الخاص »[١] .

ويقول القس (وهيب عطـا الله) : إنَّ التَّجسُّد قضيَّـة فيهـا تنـاقض مـع العقـل والمنطق والحس والمادَّة والمصطلحـات الفلسفيَّـة ، ولكنَّنـا نصـدِّق ونؤمن أنَّ هـذا ممكن حتَّى ولو لم يكن معقولاً[٢] .

ويتساءل الدكتور أحمد شلبي[٣] :

ادَّعى المسيحيُّون أنَّ صلب المسيح كان لتحقيق العدل والرَّحمـة ، وأيُّ عـدل ، وأيُّ رحمة في تعذيب غير مُذْنبٍ وصلبه ؟ قـد يقولون إنَّـه هو الَّـذي قَبِلَ ذلـك ، ونقول لهم إنَّ من يقطع يده أو يعذِّب بدنه أو ينتحر ، مُذنب ولو كان يريد ذلك .

وإذا كان المسيح ابن الله ، فـأين عـاطفـة الأُبوَّة ؟ وأين كانت الرَّحمـة حينمـا كان الابن الوحيد يلاقي دون ذنب ألوان التَّعذيب والسُّخرية ، ثمَّ الصَّلب مع دقِّ المسامير في يديه ...

---

(١) شرح رسالة القدِّيس بولس إلى أهل رومية ، ص : ١٣٩ .

(٢) مقارنة الأديان (المسيحيَّة) ، ص : ١٤٤ ، عن : طبيعة السَّيِّد المسيح ، ص : ١٨ .

(٣) في مقارنة الأديان (المسيحيَّة) ، ص : ١٦٢ وما بعدها .

وإذا كان صلب المسيح عملاً تمثيلياً على هذا الوضع ، فلماذا يكره المسيحيُّون اليهود ويرونهم آثمين معتدين على السَّيِّد المسيح ؟

وهل كان نزول ابن الله وصلبه للتَّكفير عن خطيئة البشر ضروريّاً ، أوَلَم تكن هناك وسائل أُخرى من الممكن أن يغفر الله بها خطيئة البشر ؟

يجيب القسُّ (بولس سباط) عمَّا سبق من تساؤلات بقوله : لم يكن تجسُّد الكلمة ضروريّاً لإنقاذ البشر ، ولا يُتصوَّر ذلك مع القدرة الإلهيَّة الفائقة الطَّبيعة .

ثمَّ يسترسل هذا الكاتب فيذكر السَّبب في اختيار الكلمة ليكون فداء لخطيئة البشر ، فيقول : إنَّ الله على وفرة ماله من الذَّرائع إلى فداء النَّوع البشري ، وإنقاذه من الهلاك الَّذي نتج من الخطيئة ومعصية أمره الإلهي ، قد شاء سبحانه أن يكون الفداء بأعزِّ ما لديه ، لما فيه من القوَّة على تحقيق الغرض وبلوغه سريعاً .

ويصرخ الدكتور شبلي في وجه هذا الكاتب : إنَّه ليس من الحكمة في شيء أن نفتدي بدينار ، ما نستطيع أن نفتديه بفلس ، تعالى الله عن ذلك .

وإجابة أُخرى عن هذه التَّساؤلات ، على لسان الأب بولس إلياس ، الَّذي يقول :

ممَّا لا ريب فيه أنَّ المسيح كان باستطاعته أن يفتدي البشر ويصالحهم مع أبيه بكلمة واحدة ، أو بفعل سجود بسيط يؤدِّيه باسم البشريَّة جمعاء لأبيه السَّماوي ، لكنَّه أبى إلاَّ أن يتألَّم ، لا لأنَّه مريض يتعشَّق الألم ، ولا لأنَّ أباه ظالم يَطْرَب لمرأى الدِّماء ، وأيَّة دماء ؟ ابنه الوحيد ، وما كان الله بسفَّاح ظلوم ، لكن الله الابن شاء مع الله الأب أن يعطي النَّاس أُمثولة خالدة من المحبَّة ، تبقى على الدَّهر ، وتحرِّكهم على النَّدامة على ما اقترفوه من آثام ، وتحمِّلهم على مبادلة الله المحبَّة .

فأين المنطق و (العقلنة) في هذه الإجابات العاطفيَّة السَّخيفة ؟!

وبعيداً عن العقل ، تعتقد الأديان البدائيَّة وتعتمد على خوارق العادات ، والمسيحيَّة من الأديان الَّتي تعوِّل في بقائها وانتشارها على عجائب الشِّفاء ، وآثار القوى الخفيَّة الغيبيَّة .

جاء في كتاب (الشَّرق والغرب) قصَّة عُرفت باسم (الرُّمح المقدَّس) ، خلاصتها : دفع الصليبيُّون من أجل عبور آسية الصُّغرى ثمناً باهظاً ، إذ فقدوا أفضل جنودهم وخيرة عساكرهم ، بينما استولى اليأس والفزع على البقيَّة الباقية .

وبدأ الخوف من تفكُّك الجيش ، وفرار الجنود يساور القادة ، فعمدوا إلى بعض الحيل الدِّينيَّة لصدِّ هذا الخطر ، وربط الجنود برباط العقيدة ، ومن تلك الحيل الَّتي روَّجوا لها ، ما رواه المؤرِّخون عن ظهور المسيح والعذراء أمام الجنود الهيَّابين ، ووعدهم بالصَّفح عن الخطايا والخلود في الجنَّة ، إذا ما استماتوا في معاركهم ضدَّ المسلمين .

غير أنَّ هذا الأُسلوب النَّظري لم يلهب حماس الجنود ، ولم يحقِّق الغرض الَّذي ابتدعه الصَّليبيُّون من أجله ، فكان لا بد من أُسلوب آخر ينطوي على واقعة مادِّيَّة يكون من شأنها إعادة الإيمان إلى القلوب الَّتي استبدَّ بها اليأس وتقوية العزائم التي أوهنتها الحرب ، وهنا أُذيع بين الجنود قصَّة اكتشاف الرُّمح المقدَّس .

تلك الواقعة الَّتي روى تفاصيلها المؤرِّخ (جيبون) ، فضلاً عن غيره من المؤرِّخين المعاصرين ، قال[1] :

إنَّ قسّاً يدعى بطرس بارتلمي من التَّابعين لأُسقفيَّة (مارسيليا)[2] ، منحرف الخلق ذا عقليَّة شاذَّة ، وتفكير ملتوٍ معقَّد ، زعم لمجلس قيادة الحملة الصَّليبيَّة ، أن قدِّيساً يدعى (أندريه)[3] زاره أثناء نومه وهدَّده بأشدِّ العقوبات إن هو خالف أوامر السَّماء ،

---

(١) قنائف الحق ، ص : ٥١ .

(٢) مرسيليا Marseille : مرفأ في جنوبي فرنسة على البحر المتوسِّط .

(٣) (القدِّيس) أندراوس الكريتي (ت ٧٤٠ م) ، ولد في دمشق ، وترهَّب في أُورشليم ، عُيِّن أسقفاً في جزيرة كريت .

ثمَّ أفضى إليه بأنَّ الرُّمح الَّذي اخترق قلب عيسى ـ عليه السَّلام ـ مدفون بجوار كنيسة القدِّيس بطرس في مدينة (أنطاكية)[1] ، فروى (بارتلمي) هذه الرُّؤيا لمجلس قيادة الجيش ، وأخبرهم بأنَّ هذا القدِّيس الَّذي طاف به في منامه ، قد طلب إليه أن يبادر إلى حفر أرض المحراب لمدة أيَّام ، تظهر بعدها (أداة الخلود) الَّتي (تخلِّص) المسيحيِّين جميعاً ، وأنَّ القدِّيس قال له : « ابحثوا تجدوا ... ثمَّ ارفعوا الرمح وسط الجيش ، وسوف يمرق الرمح ليصيب أرواح أعدائكم المسلمين » .

وأعلن القسُّ بارتلمي اسم أحد النُّبلاء ليكون حارساً للرمح ، واستمرت طقوس العبادة من صوم وصلاة ثلاثة أيَّام ، دخل في نهايتها اثنا عشر رجلاً ليقوموا بالحفر والتَّنقيب عن (الرمح) في محراب الكنيسة (!) .

لكنَّ أعمال الحفر والتنقيب الَّتي توغَّلت في عمق الأرض اثني عشر قدماً ، لم تسفر عن شيء ، فلما جنَّ اللَّيل ، أخلد (النَّبيل) الَّذي اختير لحراسة الرمح إلى شيء من الرَّاحة ، وأخذته سِنَةٌ من النَّوم ، وبدأت الجماهير الَّتي احتشدت بأبواب الكنيسة تتهامس ...!

فاستطاع القسُّ بارتلمي في جنح الظَّلام أن ينزل إلى الحفرة مُخْفِياً في طيَّات ثيابه قطعة من نصل رمح أحد المقاتلين العرب ، وبلغ أسماع القوم رنينٌ من جوف الحفرة ، فتعالت صيحاتُهم من فرط الفرح ، وظهر القسُّ وبيده النَّصل الَّذي احتواه بعد ذلك قماش من الحرير الموشَّى بالذَّهب ، ثم عُرِضَ على الصَّليبيِّين ليلتمسوا منه البركة ، وأُذيعت هذه الحيلة بين الجنود ، وامتلأت قلوبهم بالثِّقة ، وقد أمعن قادة الحملة في تأييد هذه الواقعة ، بغضِّ النَّظر عن مدى إيمانهم بها ، أو تكذيبهم لها ..

---

(١) أنطاكية : مدينة على نهر العاصي في لواء الإسكندرون ، أسَّسها سلوقس الأوَّل نيكاتور سنة ٣٠٧ ق.م ، دخلها الصَّليبيُّون سنة ١٠٩٨ م مع بدايات الحروب الصَّليبيَّة .

وعلى هذا النحو ، ولمثل هـذا الغرض ، جرت أُسطورة ظهور العـذراء في شهر آذار (مارس) سنة ١٩٧٨ ، في كنيسة عادية بالقـاهرة ، كاهنهـا ـ فيما عُلِمَ ـ رجل فـاشل ، لا يتردَّد الأقباط على دروسه[١] .

وبين عشيَّة وضحاها أصبح كعبة الآلاف ، فقد شاع وملأ البقاع أنَّ العذراء تجلَّت شبحاً نورانيّاً فوق برج كنيسته ، ورآها هو وغيره في جنح اللَّيل البهيم .

وردَّ هذا الباطل باحث مسيحي .

يقول Otte Meinardus في كتـابـه Chirstian:Faith and Life : « في شهر مـارس ـ آذار ـ سنة ١٩٦٨ صرخت كنيسة العذراء بـالزَّيتون بشـارع (طومـان بـاي) صرخـة مدوِّية بأنَّ العذراء ظهرت بها ، وأنَّهـا تشفي المرضى ، وتُعيـد الإبصـار للعميـان ، وقـد سمع بهـذه الصَّرخـة آلاف المصريِّين ، فـاتَّجهوا ليروا هـذا الأمر الجلل ، ولم تقنع القيـادة المسيحيَّـة بمصر بـأن يُـذاع مثل هـذا الخبر دون تـوثيـق ، فـأرسـل البطريرك كرولُّس السَّـادس ، مطران (بني سُوَيْف)[٢] ليرى ذلـك بنفسـه ، وليعلنـه بصفـة رسميَّـة ، وفي الثَّاني من إبريل ـ نيسان ـ أعلن هذا المطران ظهور العـذراء في هـذه الكنيسـة ، وأنَّهـا ظهرت عدَّة مرَّات بحجمها الطَّبيعي ، أو ظهر النِّصف الأعلى منهـا ، وقـد أذاع المطران هذا الإعلان في مؤتمر صحفي ذاكراً أنَّه رأى العذراء بنفسه ، وأنَّ آلاف النَّاس رأوا ذلـك معه »[٣] .

ويقرِّر المؤلِّف أنَّ الَّذي ظهر ليس إلاَّ انعكاساً ضوئيّاً[٤] ، وليس بحـال من الأحوال

(١) قذائف الحق ، ص : ٥٠ وما بعدها .

(٢) بني سُوَيف : مدينة في مصر على النِّيل ، عاصمة محافظة بني سُوَيف .

(٣) Christian Egypt P.265 ، انظر : مقارنة الأديان (المسيحيَّة) ، ص : ١٠٩ .

(٤) وهذا ما أكَّده الدكتور محمد جمال الدين الفندي ، أُستاذ الظَّواهر بكلِّيَّة العلوم في جامعة القاهرة ، وذكر ذلك (شوتلاند) في كتابه : الكهربـاء الجوِّيَّـة Atmospheric Electricity ، وحـاول الـدكتور الفنـدي نشر ذلك في الصُّحف القاهريَّة فـأبت ، قـائلـة : إنَّ هـذه الحـادثـة ـ على كـذبهـا ـ تشجِّع السِّيـاحـة ، (قذائف الحق ، ص : ٥٠ـ٥٦) .

ظهوراً للعذراء ، كما قرَّر الحقيقة القائلة : إنَّ العذراء لم تكن تشفي المرضى وهي حيَّة منذ ألفي عام ، والَّذي يطالع الأناجيل الأربعة بعناية وعمق ، لا يجد لمريم البتول قدسية خاصَّة ، وكل ما تناله من إجلال يرتبط بأنَّها أم عيسى ، وليس في الأناجيل قطُّ ما يثبت لها معجزات في حياتها .

ويذكر كذلك أنَّ البطريرك لم يتَّجه بنفسه إلى كنيسة العذراء إلاَّ بعد أربعة أشهر من هذا الإعلان ، ممَّا يدلُّ على تهاونه به ، ولو حدث ظهور العذراء فعلاً لأسرع لاستقبالها والسُّجود لها ، ولكن سلوكه كان أقل حماساً وانفعالاً من معظم الأقباط[1] .

ويستمر المؤلِّف فيقول إنَّ الكنائس في شبرا وفي المعادي[2]، أخذت تتنافس في ادِّعاء هذا الأمر لتجذب لها جماهير المخدوعين ، بل وصل الأمر إلى كنائس شتَّى في جميع بلاد الشَّرق الأوسط أخذت تدَّعي هذا الادِّعاء[3] .

ويختتم المؤلِّف وصفه لهذه المسألة بحديثه عن كارثة بشريَّة تسبَّبت عنها ، فيذكر أنَّه في ١٩ مايو - أيَّار - سنة ١٩٦٨ قُتِلَ وطئاً تحت الأقدام حوالي خمسة عشر شخصاً في زحام داخل كنيسة شبرا ، وبهذا الحدث الجلل توقَّف هذا الباطل ، وقُطِعت ألسنة الكاذبين .

ومن ذروة العقل ، وقمَّة الفكر السَّليم في المسيحيَّة الَّتي تطالب بعقلنة الإسلام ، التَّالي :

إنَّ الشَّخص في المسيحيَّة إنَّما يصير مسيحيّاً من خلال التَّعميد ، وبقول القسِّيس له إنَّه أصبح مسيحيّاً ، كذلك يستطيع القسِّيس أن يحكم على شخص بأنَّه لم يَعُد مسيحيّاً ، فيصير كذلك .

---

(١) Christian Egypt, P.267

(٢) شُبْرا والمعادي ، حيَّان من أحياء مدينة القاهرة .

(٣) وظهرت في (الحبشة) قريباً من أحد المساجد الكبرى ، فاستولت عليه السُّلطة فوراً ، وشيِّدت على =

وإذن .. فالشَّخص في المسيحيَّة ليس حرّاً كامل الحرِّيَّة الشَّخصيَّة في اعتقاده بما يرشده إليه عقله ، بل إنَّ كونه مسيحيّاً أو غير ذلك منوط بما يتفوَّه به رئيسه الدِّيني ، ولقد جرت المسيحيَّة على هذا الأصل طوال تاريخها ، ولم ينازع فيه بعض النَّصارى إلاَّ أخيراً .

والحقُّ أنَّ الشُّعوب المسيحيَّة تحمَّلت نتيجة لهذا الاعتقاد آلاماً تفوق الوصف ، أحدثها كثير من البابوات والأساقفة والقساوسة وقضاة محاكم التَّفتيش طوال قرون عديدة ، لم تنتهِ إلاَّ في أواخر القرن التَّاسع عشر ، وذلك بما وضعوا من نظريات دينيَّة وعلميَّة وهمية فرضوها فرضاً على المؤمنين ، وتصدُّوا لمن قاومها من العلماء بالحديد والنار[1] .

أمَّا النَّتائج المباشرة لمثل هذه التَّعاليم[2] الَّتي تلقَّاها آباء الكنيسة الأوائل باعتبارها أوامر لا يأتيها الباطل من بين يديها ، ولا من خلفها ، فكانت عجيبة جدّاً ، فقد شاع في طول عالم النَّصرانيَّة وعرضه روح تستهدف ترك الدُّنيا وما فيها ، والانقطاع إلى الآخرة ، حتَّى لقد شاع القول بأنَّه ما دام هذا العالم سيهلك ويزول ، فلماذا إذن

= المكان كلّه كنيسة سامقة !! وظهرت في (لبنان) فشدَّت من أزر المسيحيَّة الَّتي تريد فرض وجودها على جباله وسهوله ، مع أنَّ كثرة لبنان مسلمة ، وها هي ذي قد ظهرت في القاهرة لتضاعف من نشاط الأقباط كي يشدّدوا ضغطهم على الإسلام ، وظلَّت جريدة (وطني) الطَّائفيَّة تتحدَّث عن هذا التَّجلِّي الموهوم قريباً من سنة ، إذ العرض مستمر ، والخوارق تترى ، والأمراض المستعصية تشفى ، والحاجات المستحيلة تقضى ...

كلُّ ذلك وأفواه المسلمين مكمَّمة ، وأقلامهم مكسورة حفاظاً على الوحدة الوطنيَّة ، وسوف تتجلَّى مرَّة أُخرى بداهة عندما تريد ذلك المخابرات المركزيَّة الأمريكيَّة ، ولله في خلقه شؤون .. (قذائف الحق ، ص : ٥٦) .

(١) حضارة الإسلام ، جلال مظهر ، ص : ١٦٠ .

(٢) ونتيجة لرأي اللاهوتيّين ترك الدُّنيا وانتظار ملكوت السَّماء ، طبقاً لإنجيل متَّى ، الإصحاح : ٦ و ١٠ و ١٩ ، كَثُر الخصيان الَّذين خصوا أنفسهم لأجل ملكوت السَّماوات ، من استطاع أن يقبل فليقبل ؟!!

التَّفكير فيه وفي أُموره ؟ ثمَّ إنَّه ساد جوٌّ من الزُّهد العجيب ، ويدلُّنا التَّاريخ على كثير من القدِّيسين الَّذين تركوا أجسادهم نهباً للحشرات والهوام تديُّناً ، ولا عجب فقد امتنع بعضهم عن الاستحمام ، أو غسل الأيدي والأطراف طوال حياته ، وشاع المثل القائل بأنَّ **القذارة من الإيمان**[1] ، قروناً عدَّة[2] .

« إنَّ الحياة في الأوساخ والقاذورات كانت تعتبر في نظر عدد غفير من القدِّيسين الَّذين أعطوا المثل للمجتمع الأُوربي ، ووضعوا مبادئ كنسيَّة ، دليلاً على القداسة والتَّقوى ، وثبتت أقوال القدِّيس جيروم ، وما جاء في كتاب صلوات الكنيسة الرُّومانيَّة ، وبطريقة مثيرة للعواطف ، الحقيقة الماثلة في أنَّ القدِّيس هيلاريون عاش طول حياته في قذارة جسديَّة مطلقة ، ولقد مجَّد القدِّيس أثاناسيوس القدِّيس أنطونيو لأنَّه لم يغسل قدميه قطُّ ، وأنَّ أكثر الدَّلائل المثيرة الدَّالَّة على قداسة القدِّيس إبراهيم تشير إلى أنَّه لم يغسل يديه أو قدميه لمدَّة خمسين عاماً طوالاً .

وأمَّا القدِّيسة سلفيا ، فلم تغسل أي جزء من جسدها قطُّ تبعاً للتَّعاليم الدِّينيَّة ، وكانت القدِّيسة مريم المصريَّة عنواناً على القذارة ، وأمَّا القدِّيس شمعون ستايلايتيز فلم يكن له نظير قطٌّ في القذارة في أيِّ زمان أو مكان ، وإنَّ أقلَّ ما يمكن أن يقال فيه أنَّه كان يعيش في أوساخ وقذارات لا يحتملها زائروه »[3] .

ويكفي أن نذكر القارئ في هذا المقام ، أنَّ محكمة التَّفتيش الدِّينيَّة هدمت في

---

(١) أين هذا من شعار الإسلام والمسلمين : « النَّظافة من الإيمان » ؟!

(٢) حضارة الإسلام ، جلال مظهر ، ص : ١٦١ عن ،

A.D.Withe:A History of the Warfare of Science with Theology in Christendom. Vol.11.P.69.

(٣) المرجع السَّابق ، ص : ١٦١ .

القرن السَّادس عشر ، بعد طرد المسلمين من إسبانيـة ، الحمَّامـات الَّتي كان المسلمون قـد أنشؤوها ، سواء العامَّة أو الخاصَّة ، باعتبارها من مخلَّفات الكفَّار(١) .

ولا عجب إذا قلنـا إن معظم منـازل أُوربـة كانت إلى عهـد قريب غير مـزوَّدة بحمَّامات ، ويقول الأستاذ أندرو ديكسون وايت إنَّ أحداً في العالم المسيحي لم ينادِ بأنَّ النَّظافة من الإيمان قبل جون وزلي في أواخر القرن الثَّامن عشر(٢) .

وممَّا يذكر في مجال (العقلنة) أيضاً ، لما قـال المسلمون بكرويَّـة الأرض ، أحـدث ذلك اضطراباً شديداً في عالم النَّصرانيَّة ، ولقـد حكمت الكنيسـة على كريستوفر كولمبس الَّذي سافر إلى المحيط الأطلسي لعلَّـه يكشف أرضـاً جـديـدة ، بـأنَّ عملـه هـذا مخـالف لأُصول الدِّين ، حكم بهذا مجمع (سلامونـك) ، ولم يفـده ، ولم ينقـذه إلاَّ معـاونـة بعض الملـوك ، على الرَّغم من الكنيسـة الَّتي عرضت أمره على أقـوال الآبـاء ورسـائـل الرُّسـل والأناجيل ، والنبوات والزَّبور والأسفار الخمسة .

ومن المضحكات أنَّ الكنيسـة ثـارت ثـائرتهـا عنـدمـا نقلت امرأة تسمى (ماري مونتاجه) سنة ١٧٢١ م إلى أُوربة طريقة الحقن تحت الجلد بمادَّة المرض ، هـذه الطَّريقة الَّتي اكتشفها المسلمون(٣) .

وعلى الرغم مماسبق ، يطـالبون المسلمين والإسلام (بـالعقلنـة) ، علمـاً أن عقيـدتهم براء منها ، وشاهد ذلك كتاب :

---

(١) المرجع السَّابق ، ص : ١٦٣ ، عن :

H.Th.Buckle:History of Civilization in English, Vol.11,P.486.

(٢) المرجع السَّابق ، ص : ١٦٣ ، عن :

A.D.White:A History of the Warfare of Science With Theology in Christendom, Vol.11.P.69.

(٣) الدَّعوة الإسلاميَّة دعوة عالميَّة ، ص : ٤٨٦ .

أُسطورة تجسُّد الإله في السَّيِّد المسيح

أشرف على التَّحرير بروفيسّور جون هِكْ (أُستاذ اللاَّهوت جامعة برمنجهام) .

عرَّبه : د . نبيل صبحي ، دار القلم بالكويت ، ط ١٩٨٥/١ م .

The Myth of God Indcarnate

Edited by: John Hick

Firsf published 1977 by SCM Press Ltd. 58 Bloomsbury Street, London WCI.

الكتاب أبحاث لِـ :

- دون كوبِّيت : محاضر في الإلهيَّات وعميد كلِّيَّة عمانوئيل ، جامعة كمبردج - بريطانية .
- ميكائيل غولدر : محاضر في اللاَّهوت في جامعة برمنغهام - بريطانية .
- جون هيك : بروفيسور اللاهوت في جامعة برمنغهام - بريطانية .
- لِسْلي هُولْدِن : محاضر في دراسة الأناجيل في كلِّيَّة كينغ - جامعة لندن - بريطانية .
- دنيس ناينهام : مدير كلِّيَّة كِيبل ، أكسفورد - بريطانية .
- موريس وايلز : بروفسّور الإلهيَّات والكتاب المقدَّس في كلِّيَّة المسيح ، أُكسفورد - بريطانية .
- فرنسيس يُونْغ : محاضرة في دراسة الأناجيل في جامعة برمنغهام - بريطانية .

كلمة النَّاشر البريطاني :

١٨٦٠ م تصادم بين الكنيسة والعلم ، وذلك التَّصادم الَّذي تجلَّى بين هاكسلي ، والمطران ولبرفُورس ، فصدرت مجموعة مقالات ومراجعات في كتاب ، قيل عنه : لغم

شرِّير للإيمان المسيحي ، ومؤلِّفوه السَّبعة وصفوا بأنَّهم (سبعة ضد المسيح) ، وقامت محاولات في المحكمة لتجريد القساوسة الأنجليكان ، من بين الكتّاب السَّبعة من منصبهم الكهنوتي .

كانت ردود الفعل على كتاب (أُسطورة تجسُّد الإله في السَّيِّد المسيح) عنيفة .. إلاَّ أنَّها لم تكن كلُّها معادية ، فلقد كان الاهتمام بالكتاب شديداً ، وبيعت الطَّبعة الأُولى كلُّها يوم إصدارها ، وأُعيد الطَّبع مرَّات بعد ذلك بقليل .

أهمِّيَّة الكتاب ترجع لسببَيْن :

١ ـ الكتاب دراسات لطبيعة لغة العقيدة المسيحيَّة ، تهتمُّ باستكشاف معنى الكلمات الَّتي يردِّدها المسيحيُّون في معتقداتهم ولغة عبادتهم .

٢ ـ ويثير الكتاب موضوع العلاقة بين المسيحيَّة والأديان الكبيرة العالميَّة الأُخرى . وهذه المسألة لم تحظَ إلاَّ بالقليل من النِّقاش في المجتمع الأُوربي المعاصر المتعدِّد العناصر والأجناس .

الكتاب ليس من نوع الجزم القاطع الَّذي لا يقبل نقاشاً ، إنَّه يشير إلى مشكلات ويقترح اتِّجاهات يمكن أن يكون فيها الحلُّ المطلوب .

ولا يطلب الكتاب من الجميع أن يقبلوه ، بل هو دعوة عاجلة لنوع من الأفكار اللاَّزمة إذا أرادت المسيحيَّة الإبقاء على سلامتها الفكريَّة في عالم اليوم والغد .

في الكتاب أبحاث عشرة كتبها سبعة أساتذة ، ستَّة رجال وامرأة ، هدفها : البحث في جذور الأُسطورة ومصادرها الَّتي تسرَّبت إلى العقيدة المسيحيَّة ، وعقيدة السَّيِّد المسيح الأصليَّة براء منها ، والَّتي جاءت بمعتقد التَّجسُّد ـ أو الحلول ـ والتَّأليه ، والتَّثليث ، ويرى الكتَّاب السَّبعةُ مجتمعين ، أنَّ الوقتَ قد حانَ لترك هذه الأُسطورة الدَّخيلة على دعوة المسيح .

ـ يتساءل البروفسور موريس وايلز أُستاذ الإلهيَّات والكتاب المقدَّس في جامعة أكسفورد في الفصل الأوَّل : هل من الممكن وجود مسيحيَّة دون تجسُّد ؟ وهناك أساس متين ـ في نظره ـ للدَّعوة إلى ترك الادِّعاء بالتَّجسُّد وأُلوهيَّة المسيح .

ـ البحث الثَّاني للأُستاذة (فرنسيس يُونْغ) المحاضرة في دراسة الأناجيل في جامعة برمنغهام ، تقول : الأناجيل وثائق ذات أهداف متعدِّدة وآتية من خلفيَّات مختلفة ، يتوزَّع تاريخ تأليفها على ثلاثة أرباع قرنٍ ، وناقشت ألقاب يسوع في الأناجيل ومعانيها الممكنة في خلفيَّاتها التَّاريخيَّة ، واستنتجت ما يلي :

أ ـ إنَّ هذه الألقاب والأفكار كانت موجودة قبل أن يتبنَّاها المسيحيُّون الأوائل ، ويمكن الاطِّلاع عليها في وثائق غير مسيحيَّة ، وبتفسيرات غير مسيحيَّة .

ب ـ نُسِبَت هذه الألقاب إلى يسوع ... ولم يدَّعيها يسوع نفسُه .

جـ ـ لهذه الألقاب أُصول يهوديَّة ـ يونانيَّة .

د ـ لا توفِّر الأناجيلُ معلوماتٍ مباشرة من الوحي عن أُلوهيَّة يسوع .

ـ الفصل الثَّالث : لميكائيل غولدر (المحاضر في اللاَّهوت في جامعة برمنغهام) ، يقول : من الواضح تماماً أنَّ المعتقدات التَّقليديَّة عن : الله ، والمسيح ، والخلاص ، والدَّينونة .. وغيرها ليست متماسكة ، وغير مفهومة ، إلاَّ أنِّي أعتقد ـ وكذلك زملائي الَّذين شاركوا في هذا الكتاب ـ أنَّنا لسنا مجبرين على الاختيار بين هاوية الإلحاد أو جمود المعتقدات المسيحيَّة التَّقليديَّة .

إنَّ المسيحيَّة تقول بتجسُّد أقنوم الله في المسيح ، وهذه النَّظرة هي الَّتي قُدِّسَت في الكُتُب الدِّينيَّة مع كُلِّ مشاكلها ، وهي تضمُّ متناقضاتٍ لا يمكن حَلُّها .

ـ وفي المقالة الرَّابعة ، يكشف (غولدر) عن الأُصول الَّتي جاءت منها معتقداتُ ثنائيَّةُ الطَّبيعة ، والتَّجسُّد ، والتَّأليه ، ومن الَّذي أدخلها على المسيحيَّة الأصليَّة ، ومتى

كان ذلك ، ويؤكِّد (غولدر) رأيه بقوله : « إنَّ العمل الكامل في تأليه يسوع يقع عبؤه على كتف يوحنّا » .

ـ وفي المقالة الخامسة للأُستاذة (فرنسيس يونغ) تنقل بتفصيل من التَّاريخ اليوناني الوثني القديم قِصَصاً وأساطيرَ عن الآلهة ، وعمليَّة التَّأليه برأي الأُستاذة فرنسيس مستلهمة كليّاً من الوثنيَّة .

الأساطير الوثنيَّة اليونانيَّة أدخلت التَّجسُّد والتَّثليث والتَّأليه في المسيحيَّة ، إنَّ تأثير صورة يسوع بلورت عناصِرَ كانت موجودةً قبل ظهورِه ، ويبدو أن هناك عناصر أساسيَّة أربعة :

١ ـ استعمالُ جُمَلٍ مثل (ابن الله) كان متداولاً قبلاً بلا شك .

٢ ـ التَّأليه ، وصعود الإنسان الاستثنائي إلى مملكة سماويَّة من التَّقاليد اليونانيَّة واليهوديَّة .

٣ ـ الاعتقاد بكائنات سماويَّة بعضها ينوب عن الله في يوم الدَّينونة ، وأوَّلهم ربما كان أداةَ اللهِ في عمليَّة الْخَلْق .

٤ ـ فكرة ظهور رئيس لهذه الكائنات على الأرض في تجسُّدٍ حقيقي .

ـ الفصل السَّادس (لِسْلي هولدن) المحاضر في الأناجيل بجامعة لندن ، يلامس الموضوعَ نفسَه بقفازٍ حريري ، ويحاول بأنعم وأرقّ أُسلوب وعبارة ، إقناع المسيحيِّين بترك التَّعابير القديمة عن المسيح مثل (ابن الله) و (الله) للتَّاريخ ، لأنَّها لا تصلح للحاضر ، ولا يمكن للدِّفاع عنها بالمفهوم الحرفي ، فهي رمزيَّة ، وليست حقيقيَّةً .

ـ الفصل السَّابع (دُون كوبيت) عميد كلِّيَّة عمانوئيل بجامعة كمبردج ، وبدأ بذكر (يوحنّا الدِّمشقي ٦٧٥ـ٧٤٩ م) ، الَّذي دافع عن (الأيقونات) ، فيقول كوبيت :

« ومن السُّخرية أنَّ حرِّيَّتَهُ في الدِّفاع عنِ الأيقونات كانت بسبب حمايةِ المسلمين لـه ، وهو يعيش بينهم ، فكان قادراً على الدِّفاع من داخل بلاد الإسلام ، في وقت لم يكن يوحنَّا آمناً لاتِّخاذ مثل هذا الموقف في الإمبراطوريَّة المسيحيَّة » .

وردَّ يوحنّا على القائلين إنَّ الأيقونات ليست في الكتب المقدَّسة باعترافه بتلك الحقيقة مضيفاً : لن تجدوا أيضاً في الكتب المقدَّسة التَّثليث وثنائيَّة الطَّبيعة للمسيح ، ويعترف يوحنَّا الدِّمشقي أنَّ الأيقونات والتَّثليث والتَّجسُّد كلّها بدعٌ جديدة حثَّ النَّاس على التَّمسُّك الشَّديد بها كتقاليد مقدَّسة انتقلت إلينا من آبائنا ، فإذا ضاعت هذه البدعُ يصبحُ الإنجيل كلُّه مهدَّداً .

ثمَّ يورد (كوبيت) ما أضرَّت به عقيدة التَّجسُّد بالإيمان بالله الواحد ، ويقول :

إذا كان اللهُ ذاتُه متجسِّداً كلِّيّاً في المسيح ، يمكن عبادةُ يسوع مباشرةً على أنَّه الله دون المخاطرة بخطأ أو تجديف ، ويمكن الدِّفاع هكذا عن عبادة المسيح كأمرٍ متميِّزٍ عن عبادة الله ، وهذا ما حدث فعلاً فعاد التَّوجُّه المباشر للمسيح في الطُّقوس التَّعبُّديَّة ، والْمَثَلُ على وثنيَّة المسيحية كان في الاتِّفاق على تأسيس مجلس الكنائس العالمي على أساس العقيدة الَّتي تعترف بأنَّ سيِّدنا يسوعَ المسيح (هو الله) وهو (المنقذ) ولا شيء غير ذلك !!!

ـ الفصل الثَّامن للبرفسور (وايلز) يتحدَّث فيه أكاديميّاً عن الأُسطورة (الميثولوجيا) في عالم اللاَّهوت ، إنَّها خرافيَّة وليست حقيقيَّة .

ـ الفصل التَّاسع للبروفسور (جون هِيك) عن يسوع والديانات العالميَّة ، وقارن بين ظهور بوذا ونشوء البوذيَّة ، وظهور المسيح ونشوء المسيحيَّة من بعده .

بوذا : تجسيد لإلهٍ متسامٍ ، والماهايانا عقيدة الأجسام الثَّلاثة ، وكذلك يسوع .

ويقول : عبادة كائن بشري تحطِّم فكرة وجود إله واحد ، مع ميتافيزيكيَّة معقَّدة

للتَّثليث ، القدِّيس لوقا : أعلن يسوع أنَّه إنسان أرسله الله إليكم مُؤَيداً بـأعمـال ضخمـة وأمارات ، وبعد ثلاثين عاماً فقط افتتحَ إنجيلُ مرقسٍ : ابتـداءً إنجيل يسوع المسيح ابن الله ، وبعد ثلاثين عاماً أُخرى يوحنّا عزى هذا الكلام إلى يسوع نفسِـه وصوَّره على أنَّـه إله يمشي على الأرض .

ومع نموِّ اللاَّهـوت المسيحي عبر القرون حصـل الانتقـالُ الهـامُّ من (ابن الله) إلى (الإله الابن) ، وهـذا التَّعبير ظهر في الإنجيل الرَّابع ثم سمح بـه رسميّـاً داخل الكنيسـة بقبول هذا الإنجيل دون نقده .

إنَّ القول : (إنَّ يسوعاً النَّـاصري التَّـاريخي هو أيضـاً الله) هو قولٌ خـالٍ من أي معنى كما لوقلنا : إنَّ هذه (الدَّائرة) المرسومة بالقلم على الورق هي أيضاً (مربَّع) ، إنَّ فكرة التَّجسُّد هي أُسطورة ، ميثولوجيَّة بالمعنى الحرفي .

- وخُتِمَ الكتاب بالفصل العاشر بمقالـة البروفسّور (دِنِيس نـاينهـام) مـدير كلِّيَّـة كِسيبل بـأُكسفورد ، وبعـد أن أكَّـد إنسـانيَّـة المسيح قـال : لست مستعـدّاً للانضمام إلى الَّـذين ينكرون الـوجـود التَّـاريخي ليسـوع ، ولكن المسيحيَّـة الَّتي أضحت دين الإمبراطوريَّة الرُّومانيَّة ربما لم يكن له إلاَّ صلـة قليلـة بـالواقع التَّـاريخي لمؤسِّسي هـذا الدِّين .

إنَّ الَّذين يدَّعون التَّجسُّد والتَّأليه والتَّثليث يَعُون تماماً المشـاكلَ المتضمِّنـة في تقـديم وتبرير مثل هذه الادِّعاءات ، ومن المستحيل تبرير هذه الادّعاءات على أُسسٍ تـاريخيَّـة صرفة مهما توسَّعت الشَّبكةُ لاصطياد الأدلّة .

والأناجيل لا تستطيع توفيرَ الأدلَّة اللاَّزمة .



الكتاب ، مناقشات يمكن وصفها بأنَّها مراجعةٌ ذاتيَّةٌ للمعتقدات الشَّائعة في المسيحيَّة مع تحليلها ونبشِ أُصولِها ونقدِها واقتراح الاستغناء عنها بإجماع المؤلِّفين ، والجديد في هذا المجال هو أنَّ علماء اللاَّهوتِ الكبار هؤلاء من بروتستانت وكاثوليك يفكِّرون بصوت مرتفع كما يقول التَّعبير الإنكليزي : (Thinking Loud) للمرَّة الأُولى .

قال أليوت : « تُكيِّف المسيحيَّةُ نفسَها باستمرار لوضع يمكنُ معه الاعتقاد بها » ، هذا كان سابقاً . أمَّا مع تقدُّم البحث العلمي ، والمكتشفات الأثريَّة الحديثة ، والأبحاث المقارنة بين العقائد العالميَّة تجعلنا نقول :

« لا يمكن للمسيحيَّة ونحن على أبواب القرن الحادي والعشرين أن تكيِّف نفسها باستمرار لوضع يمكن معه الاعتقاد بها » .

« أنَّتام جُرحٌ والأُساةُ غُيَّبُ » .

هذه نماذج فقط من أفكار الَّذين يطالبون الإسلام بالعقلنة .

إنَّهم يطالبون الإسلام بالعقلنة ، وهو الَّذي يدعو إلى منهج : فكِّر ثم اقتنع ، بدلاً من منهجهم : آمن ولا تفكِّر .

يدعون الإسلام إلى العقلنة ، وهو الَّذي جعل جوهر العقيدة ، التَّوحيد المطلق لله عزَّ وجلَّ ، مع إعمال العقل ومحاكمته في كلِّ أُموره . بينما جوهر العقيدة المسيحيَّة الَّتي اخترعها شاؤول اليهودي لغزٌ لم يحل ، ولن يحلَّ ، أسفر عن مذاهب متناحرة ، فقد صارت الكنائس نفسها مسرحاً للقتال وسفك الدِّماء ، والاضطهاد الوحشي ، وكاد هذا الصِّراع يذهب بالمسيحيَّة لولا أنَّ الدَّولة سارعت إلى إنقاذها ، وكان قسطنطين فوزاً لها ، أبعدها عن نهايتها المؤلمة المحتومة .

أمَّا الإسلام ، فأغزر النَّاس علماً أسبق النَّاس إلى تأييده ، وقد أثارت هذه الظَّاهرة دهشة إحدى الصُّحف الهنديَّة ، الصَّادرة باللُّغة الإنكليزيَّة ، فلم تجد مندوحة

عن الاعتراف بأنَّ الحرِّيَّة العلميَّة في الغرب ، أدَّت إلى إفلاس العقيدة الدِّينيَّة ، وإثارة الشُّكوك حولها ، ونشر المذهب المادِّي ، على حين أنَّها أدَّت في الإسلام إلى زيادة تمسُّك المسلمين بدينهم .

ولذلك راح العلماء يقولون : إذا كان عيسى بشراً فَلِمَ تعبدونه ؟ وإذا كان إلهاً ففيم البكاء على آلامه ؟

عقيدة لم تتَّفق مع العقل منذ أن ادَّعت أنَّ المسيح الإله مات على الصَّليب ، ولم تقبل مواكبة العلم وتقدُّمه في يوم من الأيَّام ، ولم تعترف بحرِّيَّة المعتقد في فترة من فترات تاريخها ، والإفك والبهتان شيمة من شيم كهنوتها ، فأثمرت مَدَنيَّة (حضارة تجاوزاً) كسيحة ، الإنسان فيها وحش متعطِّش للمغانم المادِّيَّة ، فهانت دون ذلك القيم المُدَّعاة ، وتلاشت المبادئ المعلنة .. ويكفي الإسلام فخراً أنَّه كرَّم الإنسان فعلاً ، وحافظ على إنسانيَّته بقيم ثابتة منفَّذة ، ومبادئ سامية راسخة في نفوس أتباعه .

ولقد صوَّرت دائرة معارف لاروس (القرن التَّاسع عشر) تحت كلمة دين ، قول رجال الدِّين في أُوربة للإنسان : « **ولكن أطع وأنت أعمى** » ، فأين هذا من دعوة الإسلام للإنسان « هاتِ عقلك وأقبل » ؟

﴿ إنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَومٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الرَّعد : ٤/١٣] .
﴿ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الرُّوم : ٢٨/٣٠] .

لذلك يقول غوستاف لوبون : « إنَّ العرب أوَّل من علَّم العالم كيف تتَّفق حرِّيَّة الفكر مع استقامة الدِّين » ، فمن بحاجة إلى العقلنة ، الإسلام الَّذي يدعو إلى تحكيم العقل ، أم المسيحيَّة الَّتي تقول : أطع وأنت أعمى ، وصدِّق وآمن ولو لم يكن ذلك معقولاً ؟!!



الإسقاط
الثامن

الإسلام عدوُّ العِلْم

يقول أرنست رينان : « حارب الإسلامُ العِلْمَ والفلسفة » .

ويقول وليم جيفورد بالكراف : « متى توارى القرآن ومدينة مكّة عن بلاد العرب ، يمكننا أن نرى العربي حينئذ يتدرَّج في سبيل الحضارة الّتي لم يبعده عنها إلاّ محمد وكتابه »[1] .

ويقول كرومر[2] : « إنَّ الإسلام دينٌ منافٍ للمدنيَّة ، ولم يكن صالحاً إلاّ للزمن والمحيط اللّذين وُجِدَ فيهما ، وإنَّ المسلمين لا يمكن أن يرقوا في سلَّم الحضارة والتَّمدُّن ، إلاّ بعد أن يتركوا دينهم ، وينبذوا القرآن وأوامره ظهريّاً »[3] .

وركَّزت الكنيسة على أنَّ الإسلام لا يستقيم مع المدنيَّة في سبيل ، وهي ترى أنَّ ما قامت به أُوربة من استعمار ، عمل إنساني جليل ، والأُوربيُّون ـ ومبشِّروهم ـ جديرون أن يُسمَّوا برسل المدنيَّة .

---

(١) حاضر العالم الإسلامي ، ص : ٩٣ .

(٢) اللورد الإنكليزي كرومر (إڤلين بارينغ) Cromer : (١٨٤١ـ١٩١٧ م) ، مندوب إنكلترة في مصر : (١٨٨٣ـ١٩٠٧ م) .

(٣) الإسلام روح المدنيَّة ، ص : ١٣ .

إنَّه إسقاط ، ولكن مهما عادى متعصّب الإسلام ، وحاول إلصاق التُّهم به ، فإنَّه يجب أن يحذر من قول يوقعه في حفرة الجهل لدى من يعرف الإسلام ، ولو معرفة بسيطة ؛ ذلك لأنَّ الإسلام لا يماثله في دفع أتباعه نحو العلم والاستزادة من بحوره أي دين آخر ، إنَّه الدِّين الَّذي كانت أوَّل لبنة في بنائه كلمة ﴿ اقْرَأْ ﴾ ، ثمَّ وضع النَّاس عامَّة وأتباعه الدَّارسين لكتابه الكريم بصورة خاصَّة ، أمام مشاهد الكون بسمائه وكواكبه وشمسه وقمره وغيومه وأمطاره وبحاره وجباله وأنهاره ونباته وحيوانه وإنسانه .. وشجَّعهم على البحث والدِّراسة لكشف قوانين الكون ومعرفة أسراره : ﴿ قُلْ سِيْرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [العنكبوت : ٢٩/٢٠] .

وجعل نبي الإسلام محمد ﷺ طلب العلم فريضة على كلِّ مسلم ، وأوجب على كلِّ مسلم أن يكون عالماً أو متعلِّماً ، وفي فترة قصيرة من الزَّمن بعد انتشار الإسلام ، انحسرت موجة الأُمِّيَّة والجهل ، وارتفعت منارات العلم حيث وصل الإسلام وحلَّ المسلمون ، فمن سمرقند وبخارى شرقاً ، إلى قرطبة وطليطلة غرباً ، لا نجد مدينة ولا قرية إلاَّ وفيها المدارس (الكتاتيب) وحلقات العلم والمكتبات ، وأعداد كبيرة من العلماء ، وطلاَّب العلم ، وكانت ترتفع مكانة الإنسان بعلمه حتَّى ولو لم يكن مسلماً ، والأمثلة على ذلك لا حصر لها .

طبيعة الإسلام الاعتماد على العلم وتحكيم العقل ، وعنده أنَّ منزلة العالم فوق منزلة العابد . وفي القرآن الكريم أكثر من سبعمئة آية تحثُّ على العلم والنَّظر في الكون ، ويقول النَّبي ﷺ : « الحكمة ضالَّة المؤمن ، التقطها أينما وجدها » ، ثمَّ إنَّ الَّذين يقرؤون تاريخ العرب ويعونه ، يذكرون أنَّ هارون الرَّشيد[1] لم يكن ينظر إلى البلد الَّذي عاش فيه العالِمُ ، ولا إلى الدِّين الَّذي كان يعتنقه ، بل لم يكن ينظر إلاَّ إلى مكانته من العلم والمعرفة .

(١) هارون الرَّشيد ، الخليفة العبَّاسي الخامس : (١٧٠-١٩٣ هـ/٧٨٦-٨٠٩ م) .

ويذكرون أنَّه في حكم المأمون[1] كان رجال العلم من نصارى وصابئة .. يؤمُّون مجلس ذلك الخليفة ، ويجادلون في حضرته علماء المسلمين في العلوم العقليَّة والنقليَّة ، وفيما يختصُّ بآداب الديانات .

كلُّ ذلك كان يجري بفضل التَّسامح الإسلامي ، ولكنّا لا نذكر أنَّ أُمَّة من الأُمم المسيحيَّة في ذلك العصر[2] ، كانت تحتمل ظلَّ علماء المسلمين إذا هم أرادوا أن ينعموا في تلك البلاد بمثل ما ينعم به أقرانهم من النَّصارى في بلادهم ، بل إنَّ ما هو أدلُّ على بعد النَّصرانيَّة عن التَّسامح ، ما ردَّده التَّاريخ من أمر تعنُّت الطَّوائف المسيحيَّة بعضها مع بعض ، واضطهاد الواحدة للأخرى ، حتَّى بعد أن علَّمهم الإسلام سعة الصَّدر والتَّسامح ، أفلم يذكر لنا التَّاريخ أنَّ كثيراً من رجال العِلْم المبرِّزين من النَّصارى ، كانوا يذوقون أشدَّ أنواع المظالم والعسف من أيدي إخوانهم في الدِّين ، بسبب أنَّ أُولئك ينتمون إلى طائفة غير طائفتهم[3] .

أفلم يَعِ التَّاريخ ذكر أُولئك الحكماء الَّذين كانوا يُحَرَّقُون علانية باسم الدِّين ؟ بل قد وعى التَّاريخ ذكرهم ، وذكر همجيَّتهم الَّتي نافسوا فيها همجيَّة القبائل المتوحِّشة ، وطاولوا بها ما يفعله الوثنيُّون الَّذين يجعلون من أنفسهم قرابين لآلهتهم .

حكمت محكمة التَّفتيش الَّتي أسَّسها البابا[4] في مدَّة ثماني عشرة سنة ، من سنة ١٤٨١ م إلى سنة ١٤٩٩ م على عشرة آلاف ومئتين وعشرين شخصاً بأن يحرقوا وهم أحياء ، فأُحرقوا ، وعلى ستَّة آلاف وثمان مئة وستين بالشَّنق بعد التَّشهير ، فَشُهِّر بهم

(١) المأمون (عبد الله بن هارون الرَّشيد) ، الخليفة العبَّاسي السَّابع ، تولَّى بعد مقتل أخيه الأمين سنة : ١٩٨ هـ/٨١٣ م .

(٢) عصر الحضارة الإسلاميَّة الزَّاهر ، أيَّام الرَّشيد والمأمون .

(٣) الهلال والصَّليب ، ص : ٣٣ ، عن كتاب الإسلام والنَّصرانيَّة للأستاذ محمد عبده ، ص : ٢٦ .

(٤) محاكم التَّفتيش أو (محاكم التَّحقيق) ، شُكِّلت في إسبانية بمرسوم بابوي في تشرين الثَّاني (نوفمبر) سنة ١٤٧٨ م ، ثمَّ عمَّت أوربَّة كلَّها .

وشُنقوا ، وعلى سبعة وتسعين ألفاً وثلاثة وعشرين شخصاً بعقوبات مختلفة بهم ، فنفّذت[1] .

صادروا حرّيّة الفكر ، حتّى داخل أوساط رجال الكنيسة أنفسهم ، فأي كاهن أو راهب يتجرّأ على مناقشة المسلّمات الفكريّة للكنيسة ، أو يدعو إلى تطويرها كان يُحْكَم بكفره وزندقته ، أو يطرد من رحاب الكنيسة ، لا ، بل يعاقب بالموت شنقاً أو حرقاً ، فالتّسامح محظور في شؤون المعتقدات ، ولغة التّكفير والإعدام هي لغة التّعامل مع المخالفين ، وإن كانت مخالفتهم مظنونة غير ثابتة ، ولقد سنّ الملك الفرنسي (شارلمان) قانوناً يقضي بإعدام كل من يرفض أن يتنصّر ، وأصبحت حرّيّة الفكر جريمة يُعَاقب عليها بمنتهى القسوة ، حتّى تأسّست محاكم التّفتيش ، والّتي تولّى شؤونها رجال الدّين للدّفاع عن المعتقدات ، وكانت التُّهمة أو الوشاية كافية لإحراق المتّهم بعد التّنكيل به .

في مقاطعة (بريتانيا) الفرنسيّة ، وفي أواخر القرن الثّاني عشر ، مفكران مصلحان هما : أموري البيناوي ، وتلميذه داود الدّنيانتي ، كانا يهاجمان جمود الكنيسة وتحجُّرها و (ديكتاتوريّتها) ، فشكّلت الكنيسة لهما ولأتباعهما محكمة عاجلة حكمت عليهما وعلى أتباعهما بالحرق بالنّار ، وأُحرق بالفعل عدد من الأتباع ، أمّا المفكّران فقد هربا حتّى ماتا مختفين ، فأمرت الكنيسة بنبش قبريهما ، وإحراق رفاتهما .

---

(١) الهلال والصّليب ، ص : ٣٤ ، قالت صحيفة الجارديان البريطانيّة في ١٩٨٣/٦/٢٩ : عقدت لجنة علميّة دينيّة في الفاتيكان برئاسة البابا جون بول الثّاني لردّ اعتبار جاليلو ، وتصحيح خطأ الكنيسة بشأنه عندما قال إنّ الأرض هي الّتي تدور حول الشّمس على خلاف ما ذكر في العهدَيْن القديم والجديد ، ويعلّق الشّيخ ديدات بالتّالي : إنّ الكنيسة رفضت أيضاً في القرن السّابع الميلادي ما جاء به الرّسول ﷺ ، والآن بعد ثبوت إعجاز ما جاء في الإسلام في نواحي الحياة كافّة ، أدعو الكتابيّين إلى تدبُّر القرآن الكريم ، (المسلمون : ٢٧٧) .

وأُحرق في رومة الرَّاهب الفيلسوف الإيطالي (جورو أنو برونو) ، لأنَّه نادى بضرورة العلم ، وضرورة التَّجربة ، وبحرِّيَّة التَّفكير ، وإبداء الرَّأي ، فاتُّهم بالمروق والهرطقة ، وأُحْرِق .

والرَّاهب البوهيمي الدكتور جون هيس أحرقوه بالنَّار عام ١٤١٥ م لأنَّه كان يخطب باللُّغة البوهيميَّة الَّتي يفهمها النَّاس ، لا اللاَّتينيَّة ، ويخالف تحجُّر الكنيسة .

والرَّاهب الهولندي هرمان فان ديزويك أُحرق بتهمة المروق والهرطقة عام ١٥١٢ م في مدينة لاهاي لاتِّباعه - وإعجابه - لمذهب أرسطو وفلسفة الفيلسوف العربي ابن رشد .

لقد وقفت الكنيسة ورجالها في وجهِ العِلْم والعلماء ، لأنَّهم - أي رجال الكنيسة - وجدوا أنَّ طريق العقل والعِلْم يؤدِّي إلى كشف زيفهم ، وإبطال جهلهم ، وفضح تعاليمهم وتفاسيرهم .

لقد اعتقدت الكنيسة أنَّ الكتاب (المقدَّس) قد حوى بين دفَّتيه كل ما يمكن للإنسان أن يعرفه أو يبتغيه ، سواء في هذه الدُّنيا أو في الآخرة ، ومن ثمَّ وضعوا نظريّاتهم اللاَّهوتيَّة ، وبنوا عقائدهم الدِّينيَّة على هذا الأساس ، وانتهوا إلى أنَّ هذه النَّظريَّات والعقائد المستمدَّة من النُّصوص الصَّريحة للكتاب (المقدَّس) ، هي وحدها الَّتي ينبغي للنَّاس أن يؤمنوا بها ، وأنَّ الَّذين يعارضونها أو يشكُّون في صحَّتها ، إنَّما يستحقُّون اللَّعنة والعذاب والهلاك ، وبرَّروا لأنفسهم اتِّخاذ أقصى ضروب القهر والتَّنكيل بمن يعارضهم ، مستمدِّين هذا التَّبرير من نظريَّة توهَّموها ، هي أنَّهم طالما كانوا الممثِّلين لله في الأرض ، ورعاة كنيسته ، فلماذا لا يقلِّدونه إذ يعذِّب المارقين من دينه تعذيباً أبدياً في مدَّته ، رهيباً في قسوته ، ويفعلون بعباده كما يفعل هو بهم[1] .

(١) حضارة الإسلام ، جلال مظهر ، ص : ١٥٩ .

واعتقدت الكنيسة أيضاً ، أنَّ الدَّليل الَّذي قدَّمه المسيح على صدقه ، هو ما كان يصنع من الخوارق والمعجزات ، وهي كثيرة جدّاً تفيض بها صفحات الأناجيل ، ومن ثمَّة جعلت هذه الخوارق والمعجزات دليلاً على صحَّة الدِّين للآتين من بعده ، ولما كانت خوارق العادات أموراً مخالفة لقوانين الطَّبيعة وسنن الكون وشرائعه ، فإنَّها بالتَّالي كانت مضادَّة لكلّ علم من العلوم الَّتي اكتشف العلماء قوانينها الطَّبيعيَّة كالفلك مثلاً ، وهي علوم لا بدَّ أن نجد فيها ما يخالف هذه الخوارق[1] .

ومن هنا وقف هذا الأصل عائقاً كبيراً جداً في وجه العلوم ، وصدَّها عن الانطلاق في مداها الطَّبيعي ، وبرَّر لرجال اللاَّهوت المسيحي مواقفهم المعروفة ضدَّ العلم ، والَّتي لم يتنازلوا عنها تنازلاً نهائيّاً إلاَّ في أواخر القرن التَّاسع عشر[2] .

وكان لزاماً في عالم كهذا يعيش في هذا الجو العجيب ، أن يتناول آباء الكنيسة النُّصوص الدِّينيَّة الَّتي تحضُّ على احتقار العلم والعلماء ، ويجعلوا من تفسيرها جحيماً يلقون فيه بالعلم والعلماء :

« لا يخدعنَّ أحد نفسه ، إن كان أحد يظنُّ أنَّه حكيمٌ بينكم في هذا الدَّهر ، فليَصِرْ جاهلاً لكي يصيرَ حكيماً ، لأنَّ حكمة هذا العالم هي جهالةٌ عند الله ، لأنَّه مكتوب الآخِذُ الحكماء بمكرهم ، وأيضاً الرَّب يعلم أفكار الحكماء أنَّها باطلةٌ ، إذن لا يفتخرنَّ أحدٌ بالنَّاس .. »[3] .

« اختارَ اللهُ جُهَّالَ العالم ليخزي الحكماءَ ، واختارَ اللهُ ضعفاءَ العالم ليخزي الأقوياء .. »[4] .

---

(١) الإسلام والنَّصرانيَّة مع العلم والمدنيَّة للأُستاذ محمد عبده ، ص : ٢٢ و ٢٣ .

(٢) حضارة الإسلام ، جلال مظهر ، ص : ١٥٩ .

(٣) رسالة بولس الأولى إلى أهل كورنثوس : ٣/٨ـ٢١ .

(٤) رسالة بولس الأولى إلى أهل كورنثوس : ٢٧/١ .

« انظروا أن لا يكون أحدٌ يسبيكم بالفلسفة وبغرورٍ باطلٍ حسب تقليد النَّاس ، حسب أركان العالم ، وليس حسب المسيح »[1] .

لذلك .. أصبحت أعمال الفلاسفة والعلماء باطلة ، وأصبح المثل الشَّائع في طول العالم المسيحي وعرضه أنَّ الجهالة أُم التَّقوى ورأس العبادة ، وبناء عليه ، لم يعد غريباً أن يمعن رجال الكنيسة في القضاء على كلِّ مظاهر العلم القديم والفلسفة ، وأن يغالوا في اضطهادهم للعلماء والفلاسفة ، وبدا عصر عجيب انهارت فيه كلُّ أُسس الحضارة القديمة الَّتي بذل في وضعها قدماء المصريِّين والبابليِّين واليونان آلافاً من السِّنين .

« وأصرَّ قوَّاد الفكر الجديد على أنَّ كلَّ شيءٍ فيما عدا خلاص النُّفوس حمق وقلَّة عقل وسخافة ، واعتبروا أنَّ كلَّ علم دنيوي أمر لا طائل من ورائه ولا نفع فيه ، بل إنهم اعتبروا أنَّ العِلم خطر » .

وبدأت الكنيسة بعدها بعملية تخريب هذا العلم القديم ، الَّذي سمَّوه آنذاك بالعلم الوثني ، وثارت في طول العالم المسيحي وبعرضه موجة عارمة محمومة من الاضطهاد والبطش ضدَّ العلماء وكلامهم الباطل الدَّنس . وكما قال أحد القدِّيسين : هُدِم معبد القيصر الَّذي بالإسكندريَّة ، وأُحرقت مكتبته في سنة ٣٦٦ م ، وهدم معبد السرابيوم ، وأُحرقت مكتبته في سنة ٣٩١ م .

وفي سنة ٤١٥ م انقضَّ جماعة من الرُّهبان على العالمة الجليلة (هَيْبَاشيا) ، ابنة الفلكي (ثيون) ، وآخر أستاذة للطِّبِّ والرِّياضيّات بجامعة الإسكندريَّة وجرَّدوها من ثيابها ، وقادوها مكشوفة العورة إلى كنيسة في الإسكندريَّة بتحريض من كيرلس بطريق الإسكندريَّة ، الَّذي كان يغار من شعبيَّتها ، والَّذي أراد أن يضع حدّاً للعلم الوثني في مدينته »[2] .

---

(١) رسالة بولس إلى أهل كولوسي : ٨/٢ .

(٢) حضارة الإسلام ، ص : ١٦٦ ، عن :

G.Sarton: Ancient Science and Modern Civilization. P.105.

« وظلَّت موجات الاضطهاد ضدَّ العلم والعلماء تتكرَّر ، حتَّى شهدت أرض أُوربّة في القرن السَّادس آخر فلاسفتها بوثيوس (٤٨٠ ـ ٥٢٤ م) وهو يعدم بتهمة المروق من الدِّين والهرطقة ، وكان كلُّ اضطهاد من هذا القبيل يبعد عن دنيا المسيحيَّة عدداً من أحسن الرِّجال الَّذين كانوا يُقْتَلُون أو يفرِّون إلى الشَّرق (إلى فارس) ، ليحلَّ محلَّهم على رأس المجتمع ، أجهل الرِّجال ، وأسوأ المثل »[1] .

ونظرت الكنيسة منذ عصورها الأُولى إلى علم الفلك باعتباره من العلوم البائرة عديمة الجدوى ، ذلك أنَّه جاء في الكتاب (المقدَّس) أنَّ الأرض سوف لا تلبث أن تهلك وتزول ، وأنَّ الله سوف يخلق سماوات جديدة ، وأرضاً جديدة : « لأنِّي هأنذا خالق سماوات جديدة وأرضاً جديدة ، فلا تذكر الأُولى ، ولا تخطر على بال »[2] .

ولقد عبَّر القدِّيس أُوغسطين[3] عن هذا الشُّعور بقوله : « ماذا يعنيني أن تكون السَّماء كرة تضمُّ الأرض في وسط الكون ، أو أن تكون منسدلة عليها من كلِّ جانب » .

وتمسَّكت الكنيسة فترة طويلة ، وبناء على نصوص الكتاب (المقدَّس) بالفكرة القائلة بأنَّ قبَّة صلبة ـ أو سماء ـ تمتدُّ فوق الأرض ، وأنَّ الأجرام السَّماويَّة ما هي إلاَّ أنوار عُلِّقت فيها ، وأعلن القدِّيس فيلاسطريوس في مبحثه الشَّهير ، الَّذي ألَّفه في ضروب الهرطقة : « بأنَّ إنكار القول بأنَّ الله يُحْضِرُ النُّجوم من خزانته ويعلِّقها في السَّماء كل ليلة هرطقة ، وأنَّ أيَّ رأي يخالف هذا الرَّأي باطل في نظر المعتقد الكاثوليكي » .. ونتيجة لجهود عدد من رجال اللاَّهوت ، تكوَّن نظام فلكي ديني مقدَّس ، قاوم كل فكر فلكي علمي صحيح ، ولا تخفى علينا المآسي الَّتي تعرَّض لها عدد من علماء الفلك طوال قرون عدَّة .

---

(١) المرجع السَّابق (جورج سارتون) ، ص : ١٥ .

(٢) سفر اشعيا : ١٧/٦٥ .

(٣) أُوغسطين Augustin : (٢٥٤ ـ ٤٣٠ م) ، أُسقف هيبون (إفريقية) .

وهكذا .. فإنَّ النَّظريَّة الكنسيَّة القائلة بأنَّ كلَّ مساعي الإنسان باطلة أعاقت الفكر العلمي ، وشلَّت المحاولات العلميَّة قروناً طويلة ، ظلَّت سائرة حتَّى أواخر القرن التَّاسع عشر ، « ففي النِّصف الثَّاني من القرن الثَّامن عشر ، وعلى التَّحديد في سنة ١٧٧٢ م ، ألقى اللاَّهوتي الإنكليزي (إدوارد ماسي) عظةً عنوانها : (مزاولة التَّطعيم ضدَّ الجدري خطيرة وآثمة) ، أكَّد فيها أنَّ الشَّيطان هو بلا شكٍّ الَّذي يصيبنا بالأمراض ، وأنَّ العناية الإلهيَّة ترسل الأمراض عقاباً على الخطايا .

وفي سنة ١٧٨٥ م رفض الكاثوليك في مدينة مونتريال ـ في كندا ـ أن يُحَصِّنوا أنفسهم ضدَّ الجدري ، وهدَّدوا السُّلطات إن أرغمتهم على ذلك بحمل السِّلاح وإراقة الدِّماء »[1] .

ومن أعجب الأشياء أن نعلم أنَّ ضرب الممسوس بالسِّياط لإخراج الشَّيطان من جسده ، كان من أقلِّ العقوبات عنفاً وفظاعة ، وربَّما يكون أكثرها شيوعاً ، ولقد راقت هذه الطَّريقة المثيرة للعجب لرجل حكيم عاقل ، مفكِّر رحيم ، هو السِّير توماس مور في القرن السَّادس عشر ، فأمر بأن يجلد المجانين علناً .

وشكسبير جعل إحدى شخصيَّات رواياته يشير إلى الجنون باعتبار أنَّ المجنون يستحقُّ (منزلاً معتماً وسوطاً) .

أورد أُسامة بن منقذ في (الاعتبار : ١٣٢) الحادثة التَّالية : « ومن عجيب طبِّهم أنَّ صاحب (المنيطرة) كتب إلى عمِّي يطلب منه إنفاذ طبيب يداوي مرضى من أصحابه ، فأرسل إليه طبيباً نصرانياً يقال له ثابت ، فما غاب عشرة أيَّام حتَّى عاد ، فقلت له : ماأسرع ماداويت المرضى ! قال : أحضروا عندي فارساً قد طلعت في رجله دمَّلة ، وامرأة لَحِقَها نُشَافٌ ، فعملت للفارس لبيخةً ففتحت الدُّمَّلة وصَلَحَت ، وحَمَيْتُ المرأة ورطَّبتُ مزاجها ، فجاءهم طبيب إفرنجي فقال لهم : هذا ما يعرف شيئاً

(١) حضارة الإسلام ، جلال مظهر ، ص : ٥٤٠ .

يداويهم ، وقال للفارس : أيُّما أحبُّ إليك : تعيش برجل واحدة ، أو تموت برجلَيْن ؟ قال : أعيش برجل واحدة ، قال : أحضروا لي فارساً قويّاً وفأساً قاطعاً ، فحضر الفارس والفأس ، وأنا حاضر ، فحطَّ ساقه على قُرْمةِ خشب ، وقال للفارس : اضرب رجله بالفأس ضربة واحدة ، اقْطَعْها ، فضربه ـ وأنا أراه ـ ضربة واحدة ما انقطعت ، ضربه ضربة ثانية ، فسال مخُّ السَّاق ومات من ساعته ، وأبصر المرأة فقال : هذه امرأة في رأسها شيطان قد عشقها ، احلقوا شعرها ، فحلقوه ، وعادت تأكل مأكلهم : الثُّوم والخردل ، فزاد بها النُّشاف ، فقال : الشَّيطان قد دخل في رأسها ، فأخذ الموس وشقَّ رأسها صليباً ، وسلخ وسطه حتَّى ظهر عظم الرَّأس وحكّه بالملح ، فماتت في وقتها ، فقال لهم : بقي لكم إليَّ حاجة ؟ فقالوا : لا ، فجئتُ ، وقد تعلَّمتُ من طبِّهم ما لم أكن أعرفه » .

ليس هذا فقط ، بل إنَّهم كانوا يعتقدون أيضاً أنَّ الشَّياطين تدخل أجسام الحيوانات ، ومن ثمَّ كانت هذه الحيوانات الَّتي تصوَّروا أنَّ الشَّياطين دخلتها تُرقى وتحاكم وتضرب ، ويحكم عليها وتعدم ، ولا غرابة أنَّه في سنة ١٧٣١ م وُضِعَت مادة في لائحة المجلس البلدي لمدينة (ثوبون) تقول : تقرَّر أن تنضمَّ هذه المدينة مع غيرها من مدن المقاطعة في الحصول على حرم كنسي من روما ضدَّ الحشرات ، وأنّها سوف تدفع حصَّتها في تكاليف استصدار هذا القرار(١) .

وفي تشرين الأوَّل (أكتوبر) سنة ١٨٧٨ م ، أصدرت الهيئة الدِّينيَّة المشرفة على جامعة (فاندربلت) الأمريكيَّة ، وتحت تأثير مثل هذه الأفكار بياناً يتعلَّق برأيها في العلم غير المقرَّر شرعاً ، جاء فيه : « هذا عصر جرَّد فيه العلم نفسه من الثِّياب الَّتي تزيِّن الإنسانيَّة وتبجِّلها ، وأصبح يمشي في العراء في عريٍّ مخزٍ ، إنَّ الادِّعاءات الوقحة المتَّسمة بالعجرفة والغطرسة الَّتي يدَّعيها هذا (العلم الكاذب الاسم) ، كانت شديدة الوطأة ،

---

(١) المرجع السَّابق ، ص : ٥٤٢ .

مثابرة على المضيّ في سبيلها ، حتّى لقد ضلّ للأسف المجموع الأكبر من الطبقة المفكّرة ، غير أنّ جامعتنا وحدها تملك الشّجاعة الكافية لتضع قبضتها النّاشئة ، ولكن القويّة النّشطة ، على خناق هذه التّأمّلات الهوجاء ، وتقول : إنّنا سوف نقضي على هذا »[١] .

والحديث عن محاربة الكنيسة للعلم والعلماء يطول ، ويكفينا قول لكتانشيوس : « إنّي لفي حَيْرة من أمر هؤلاء الّذين إذا أخطؤوا مرّة ، واستمرّوا في غيّهم مدافعين عن الباطل بباطل آخر ! » .

إنّ الحقيقة العلميّة اختفت تماماً تحت وطأة هذا الضّغط اللاّهوتي قروناً من الزّمان ، حتّى بدأ تأثير الحضارة الإسلاميّة يؤتي ثماره نتيجة اطّلاع الأوربيّين على حضارتنا في صقليّة والأندلس وجنوبي إيطالية ، عندئذ بدأت قبضة هذا الأسلوب تضعف شيئاً بعد شيء ، وأذعن كبار رجال الكنيسة بعض الشّيء للاتّجاهات العلميّة تحت التّأثيرات الإسلاميّة .

يقول (نيكلسون) : « لقد صحب هذا التّوسّع (الفتوحات الإسلاميّة) نشاط فكري لا عهد للشّرق بمثله من قبل ، حتّى لقد لاح أنّ النّاس في العالم ـ الإسلامي ـ كلّه ابتداء من الخليفة ، إلى أقلّ المواطنين ، قد أصبحوا طلاباً للعلم ، أو على الأقلّ من مناصريه ، وكان النّاس طلباً للعلم يسافرون عبر قارات ثلاث ، ثمّ يعودون إلى ديارهم وكأنّهم نحل تشبّع بالعسل ، ليفضوا بما جمعوا من محصول علمي ثمين إلى حشود من التّلاميذ المتشوّقين للعلم ، وليؤلّفوا بهمّة عظيمة تلك الأعمال الّتي اتّصفت بالدّقّة وسعة الأفق ، والّتي استمدّ منها العلم الحديث ـ بكلّ ما تحمل هذه العبارة من معانٍ ـ مقوّماته بصورة أكثر فاعليّة ممّا نفترض »[٢] .

---

(١) المرجع السّابق ، ص : ٥٤٤ و ٥٤٥ .

(٢) R.A.Nicholson: A Literary History of the Arabs, P.281.

ومن الظَّواهر العجيبة الَّتي تحار فيها الأفهام بادئ الرَّأي ، ما هو مشاهد من فشل البعثات التَّبشيريَّة حتَّى في أوساط الجهلاء ، وما هو مشاهد من انتشار الإسلام في أوساط العلماء خاصَّة ، « ولكنِّي أدلُّكَ على أحد الأسباب الَّتي تميط اللِّثام عن هذا اللُّغز ، ذلك أنَّ القرآن ورسول الإسلام يعتمدان على العقل والمنطق ، ويستشهدان بالظَّواهر الكونيَّة على صحَّة العقائد الَّتي يناديان بها ، وفساد العقائد الَّتي يرفضانها »[١] .

« الإسلام من أكثر الديانات ملاءمة لاكتشافات العلم »[٢] .

« وكان المسلمون في القرون الوسطى (عندما قامت الكنيسة في أُوربة تحرق العلماء) متفرِّدين في العلم والفلسفة والفنون ، وقد نشروها أينما حلَّت أقدامهم ، وتسرَّبت عنهم إلى أُوربَّة ، فكانوا سبباً لنهضتها وارتقائها »[٣] .

« ولا نرى في التَّاريخ أُمَّة ذات تأثير بارز كالعرب المسلمين ، فجميع الأُمم الَّتي كانت ذات صلة بالعرب المسلمين اعتنقت حضارتهم ، ولو حيناً من الزَّمن »[٤] .

الإسلام عدوُّ العلم ، إسقاط قميء مفضوح ..

أَنَسِيَ الغرب ـ على سبيل المثال ـ فضل ابن خلدون في فلسفة الاجتماع وفلسفة التَّاريخ ، وسبْقَه لميكياڤيلي ، وجون لوك ، وباتيستاڤيكو ، وڤولتير ، وهردر ، وتارد ، وجان جاك روسّو ، ونيتشه ...؟

أَمْ نَسِيَ الشَّريف الإدريسي ، وابن رشد ، والرَّازي ، وابن سينا ، وابن زُهْر ، وابن النَّفيس ...؟

---

(١) المثل الأعلى في الأنبياء ، ص : ١٨٧ .

(٢) حضارة العرب ، غوستاف لوبون ، ص : ١٢٦ .

(٣) Sedillot في كتابه (تاريخ العرب) .

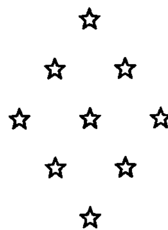
(٤) حضارة العرب ، غوستاف لوبون ، ص : ٥٨٥ .

أَمْ تراه نَسِيَ جابر بن حيَّان ، وموسى بن شاكر وأولاده ، وعبد الرَّحمن الخازن ، وبديع الزَّمان الجزري ...؟

أنَسِيَ لوغارتمات الخوارزمي ، وأبحاث إبراهيم الزُّرقالي التي اقتبس منها كوبرنيكس ؟

أَنَسِيَ ابن الهيثم رائد علم البصريّات بلا منازع ، وأبا المنهج العلمي ، إذ لولاه لما سمع النَّاس قطٌّ بروجر بيكن الَّذي لا يكاد يخطو خطوة في علم البصريّات دون أن يشير إلى ابن الهيثم ، أو ينقل عنه ، حتَّى قال : والجزء السَّادس من هذا المؤلَّف يكاد كلُّه يعتمد على كشوف هذا العالم الطَّبيعي ابن الهيثم .

أنسيَت أُوربَّة هذا ، في الوقت الَّذي كانت ترسم فيه المصوَّرات لجهنم ، وأين تقع تحت سطح الأرض ، وتمنع العلماء أن يقولوا بكرويَّة الأرض ، وما محاكمة غاليلو عنا بغائبة ! فأي عقيدة بحاجة إلى (عقلنة) الإسلام أم مسيحيَّة شاؤول ؟ ولكنَّه ... الإسقاط .



الإسقاط
التاسع

حارب الإسلام الفلسَفة

يدَّعي (أَرنست رينان) في كتابه : (الإسلام والعلم) ، أن الإسلام حارب العِلْم والفلسفة .

(إسقاط) آخر ، وقبل مناقشته ، علينا أولاً أن نتَّفق على المقصود من كلمة **الفلسفة** ، **فهل هي** التفكير الحر ، وإبعاد الفكر عن جميع القيود ، وسلوك طريق العقل ، واتِّباع أساليب المنطق العقلي للوصول إلى (**الحكمة**) ؟ إذا كان الأمر كذلك ، نستطيع القول مؤكِّدين بأنه ما عرفت الدنيا ديناً أو عقيدة ، أو نظاماً فكريّاً دفع الناس عامَّة ، وأبناءه خاصَّة في هذا الطَّريق كالإسلام ، فالحكمة ضالَّة المسلم ، أينما وجدها التقطها .

أما إذا كان المقصود بعبارة **حارَبَ الإسْلاَمُ الفلسفةَ** ، وقوفه في وجه بعض الفلاسفة ، أو نقده لأساليبهم ، فهذا أمر آخر ، وهو برهان على أن الإسلام سمح لأصحاب الآراء ـ ولو كانت هذه الآراء تناقض آراءه ـ بقول آرائهم انطلاقاً من حرية الكلمة ، ولكنه سلك طريق العقل في الحوار الفلسفي ، والنقاش العقلي ، فللإسلام فلسفته المتميِّزة ، أطلق بعضهم عليها في فترة من الزَّمن اسم (علم الكلام) .

أما الَّذين حاربوا الفلسفة ، وكل أنواع التَّفكير الحرّ ، فإنَّما هم رجال الكنيسة ، وذلك لأنَّ الكثير الكثير مِمَّا تقوم عليه دعاواهم ، لا يتفق مع العقل والتَّفكير الحرّ ، فهم يريدون أن يلقوا بما يريدون من أفكار وآراء ، وأنَّ الواحد يساوي ثلاثة ، والثَّلاثة

تساوي واحداً ، ولا يقبلون حولها نقاشاً أو حواراً ، وعلى من حولهم الإيمان بها والتَّصديق والتَّسليم ، أكانت مقبولة من العقل أو مرفوضة .

يقول الدكتور عبد الرَّحمن بدوي[1] : دور العرب في تكوين الفلسفة الأُوربِّيَّة في العصور الوسطى دور مزدوج :

دور الرَّسول الحامل لهم رسالة اليونان في الفلسفة .

ودور الفاعل المؤثِّر بما ابتكر وأنتج .

فعن طريق العرب عرفت أُوربة في القرنين الثَّاني عشر والثَّالث عشر مؤلَّفات أرسطو ، وقِطَعاً من فلسفة أفلوطين وأبرقلس ، ومعالم من فلسفة أفلاطون ، إذ قام المترجمون في طليطلة ، وفي صقلية ، بترجمة كتاب (البرهان) من منطق أرسطو ، أعني (التَّحليلات الثَّانية) ، و (السَّماء والعالم) ، و (الكون والفساد)، و (السَّماع الطَّبيعي) ، و (الآثار العُلْوِيَّة) ، كما ترجموا كتاب (الخير المحض) المنسوب إلى أرسطو ، وهي في الحقيقة فصول منتزعة من (إلهيَّات) أبرقلس .

وأعمق من هذا أثراً بكثير ، أثر الفلاسفة أنفسهم في أُوربَّة ، حينما تُرجمت بعض مؤلَّفاتهم إلى اللاَّتينيَّة ، وبعض اللُّغات الأُوربِّيَّة الحديثة النَّاشئة ، فترجم يوحنا الإسباني قسم (الطَّبيعيَّات) من كتابه (الشِّفاء) ، وقسم (النَّفس) ، و (الإلهيَّات) من (الشِّفاء) لابن سينا أيضاً ، كما ترجموا (مقاصد الفلاسفة) للغزالي ، ومن ناحية أُخرى ترجم جيرِردو الكريموني جملة رسائل للكندي فيلسوف العرب ، منها رسالة في العقل ، ورسالة في الجواهر الخمسة ، كما ترجم ـ فيما يبدو ـ رسالة (في العقل) للفارابي .

« ولما بدأت عقول ممتازة في قراءة آثار الفلاسفة المسلمين ، بدأت النَّهضة الحقيقيَّة للفكر الفلسفي الأُوربِّي ، وذلك في القرن الثَّالث عشر ، فأحدث ابن سينا أوَّلاً تأثيراً

---

(١) دور العرب في تكوين الفكر الأُوربّي ، ص : ٣٠ ، ط ٣ ، سنة ١٩٧٩ .

عميقاً واسعاً ، خصوصاً إلهيّاته المتأثِّرة بأرسطو والأفلاطونيَّة المحدثة معاً ، والَّتي يفسِّر فيها الكون ابتداء من الأوَّل الذي يصدر عنه العقل الثَّاني ، ثمَّ الثَّالث وهكذا حتَّى العاشر ، وهو العقل الَّذي يؤثِّر في الإنسان مباشرة ، فهذا التَّصوير لصدور العالم عن الله الواحد ، هو الَّذي سيعتنقه الفلاسفة الأُوربيُّون ، بدلاً من التصوير الوارد في التَّوراة ، والَّذي كان سائداً حتَّى ذلك الحين »[1] .

إن كبار الفلاسفة الأُوربيِّين في القرنين الثَّالث عشر ، والرَّابع عشر الميلاديِّين ، تأثَّروا واقتبسوا وتبنَّوا نتاج الفلاسفة المسلمين ، وأوَّلهم ألبرتس الكبير : (١٢٠٧ ـ ١٢٨٠ م) الَّذي درس ما ترجم إلى اللاتينيَّة من مؤلَّفات الفلاسفة المسلمين دراسة عميقة ، وكاد ينقل عنهم كل نظريّاته الرَّئيسيَّة في الفلسفة ، **وإن لم يستطع أحياناً الجهر بذلك خوفاً من السُّلطات الدِّينية المسيحيَّة .**

فقد أخذ عن ابن سينا القول بأنَّ النَّفس جوهر عقلي ، كما أخذ عنه نظريَّة الواحد وصدور العقول عنه ، وفضلاً عن ذلك ، فإنَّه في إدراكه وفهمه للفلسفة الأرسطيَّة ، إنَّما اعتمد كل الاعتماد على الفارابي وابن سينا وابن رشد .

وإذا ما انتقلنا من ألبرتس الكبير ، إلى أكبر الفلاسفة الأُوربيِّين في القرن الثَّالث عشر ، وهو القدِّيس توما الإكويني ، وجدنا آثار الفلسفة العربيَّة أعمق وأنضج ، وإن كان أخفى في الظَّاهر ، لأنَّه لم يكن يذكر مصادره .

وأوَّل شيء يظهر فيه تأثير الفلاسفة المسلمين في القدِّيس توما ، هو البراهين الَّتي أوردها لإثبات وجود الله بطريق العقل ، فالبرهان الثَّالث من بين براهينه الخمسة ـ وهو أقواها ـ إنما أخذه من الفارابي وابن سينا ، ويقوم هذا البرهان على أساس تقسيم الوجود إلى واجب وممكن ، والممكن لا يمكن أن يستمر في حال الإمكان إلى غير نهاية ،

(١) دور العرب في تكوين الفكر الأُوربي ، ص : ٣١ .

بل لا بـد من وجـود واجب الـوجـود ، تنتهي إليـه الممكنـات ، وهـذا الكائن الـواجب الوجود هو الله ، فإنَّ الممكن هو الَّذي يوجد ثمَّ يفسد ، وهو الَّـذي وجـد أو سيوجـد ، وكان من الممكن ألاَّ يوجـد ، أمَّـا الواجب فهو الَّـذي لا يمكن إلا أن يكون مـوجـوداً ، والممكن لا يستطيـع بنفسـه أن يفسِّر وجـوده ، إذ لـو لم يـوجـد إلا ممكنـات ، لأمكن ألا يـوجـد شيء ، فلكي يـوجـد شيء كان لا بـدَّ من أن يكـون هنـاك مـوجـود واجب الوجود ، وهذا الواجب الوجود هو الله .

وكان هذا البرهـان عمـدة البراهين لإثبـات وجود الله ، وهو البرهـان نفسـه الَّـذي عرضـه الفـارابي في كتـابـه : (آراء أهل المـدينـة الفـاضلـة) ، وعرضـه ابن سينـا في : (النَّجاة) ، و (الشِّفاء) ، ومن الثَّابت بيقين أن توما قد قرأ ابن سينا والفارابي ، لأنه يشير إلى مؤلفـاتها هـذه صراحـة ، فمن الثَّـابت بيقين أيضـاً أن تومـا إنَّما أخـذ برهـانـه الرَّئيسيّ على وجود الله من الفارابي وابن سينا .

كذلك أخذ القديس توما فكرة ضرورة الوحي الإلّهي عن الفلاسفة المسلمين .

وعن ابن رشد أخذ القدِّيس توما مـذهبـه في النقل والعقل ، أي الصِّلـة بين العقل والوحي ، أو النظر والإيمان ، فكلاهما يقرِّر أنَّ العقل يقدر على البحث عن الحق شيئاً فشيئاً ، وكلاهما يعترف بعجز العقل أمـام بعض الحقـائق الإلهيَّـة ، والاتِّفـاق بينهما - كما بيَّن أسين بلاثيوس[1] - اتِّفاق في كلِّ شيء : في الموقف العام الذي وقفه كلاهمـا من هـذه المسألة ، واتِّفاق في الآراء والأمثلة الَّتي أوردها كلاهما ، بل اتِّفاق أحيـانـاً في العبـارات الَّتي يستعملهـا كل منهما . ولا يمكن أن يكـون اتِّفـاقـاً بـالعرض ، ومن طريـق تـوارد الخواطر ، وإنَّما هو في الحقيقة نقل ، أي إنَّ القدِّيس توما أخذ هذه الآراء بحذافيرهـا من ابن رشد[2] .

(١) المرجع السابق ، ص : ٣٤ عن : كتاب أسين بلاثيوس (آثار الإسلام) :

Huellas del Islam, P.50-53.

(٢) بينما صاحب (المنجد في الأعلام) الأب لويس معلوف اليسوعي يـذكر عن تومـا الإكويني التـالي : =

ويقول الدكتور بدوي :

وهذا يفضي بنا إلى التَّحدُّث عن تأثير هـذا الفيلسوف العربي العظيم ، ابن رشـد ، وهو تأثير لا يجاريه فيه أيُّ فيلسوف عربي آخر ، لأنَّنا لا نستطيع مثلاً أن نتحـدَّث عن فارابيَّة أو سيناويَّة لاتينيَّة ، ولكنَّنا نجد في مقـابل ذلـك (**رشـديَّة لاتينيَّـة**) قويَّـة توافر لها أنصارها في أُوربَّة طوال أكثر من قرنين من الزَّمان .

وقد بدأت حركة الرُّشديَّة اللاتينيَّـة ، أي أَتبـاع ابن رُشـد من الأُوربيِّين منـذ أن ترجم ميخـائيل اسكوت شروح ابن رشـد على مؤلَّفـات أرسطو ، في الفترة الـواقعـة بين سنـة ١٢٢٨ و ١٢٣٥ ميلاديَّـة ، حينـما كان فلكيّـاً في بلاط فردريـك الثَّـاني في بـالرمـو بصقليّة ، وتزعمها سيجر البرابنتي الَّذي رأى في مذهب ابن رُشد الحقيقة نفسها ..

وعلى الرّغم ممَّا لقيتـه الرّشـديَّـة الـلاتـينيَّــة من هجـوم واضطهـاد من جـانب السُّلطات الدِّينيَّة ، في أواخر القرن الثَّالث عشر ، فـإنَّهـا استمرَّت تنمو وتنتشر وتكسب الأنصار طوال القرن الرَّابع عشر ، فنجد جان دي جاندان **Jean de Jandann** ، المتوفَّى سنـة ١٣٢٨ م ، يخلص كل الإخلاص لمـذهب ابن رشـد ، ويـدافـع عنـه ضـدَّ القـدِّيس توما ، لأنَّ ابن رشد هو في نظره نصير الفلسفة الكامل المجيد .

لقد عُرِف ابن رشد في أُوربَّـة بـاسم (الشَّـارح) ، ويعنون شـارح كتب أرسطو ، ولكنَّـه لم يكن شـارحـاً لكتب أرسطو فقـط ، فكثيراً مـا كانت شروحـه على أرسطو في حقيقتها حجَّة لإبراز آرائه الشَّخصيَّة ، أو تفسير الآراء القـديمـة تفسيراً صحيحـاً ، هـذه الشُّروح كانت الوسيلة الوحيـدة لفهم أرسطو ، حتَّى إنَّهـا كانت تطبع مع كتب أرسطو نفسهـا ، وحتَّى إنَّ وليم أكرز ، المتوفَّى سنـة ١٢٣١ م ، فقيـه بـاريس ، وعضو اللجنـة

= « توما الإكويني (١٢٢٥ ـ ١٢٧٤) راهب دومينيكاني ولد في إيطالية وعلَّم في جـامعـة بـاريس ، معلِّم الكنيسة وحجَّتها في اللاهوت والفلسفة المـدرسيَّـة (سكولاستيـك) ، اطَّلع على آراء ابن سينـا والغزالي وابن رشد عن طريق التَّرجمات اللاتينيَّة وانتقدها » ، ص : ١٩٦ ، الطَّبعة الثَّانية عشرة .

الَّتي أَلَّفها البابا غريغوريوس التَّاسع لتهذيب كتب أرسطو ، اعتمد على كتاب ماوراء الطبيعة لأرسطو ، وعلى شرحه لابن رشد ، وقد نُقِلَت كتب ابن رشد إلى العبريَّة واللاتينيَّة ، وطُبِعَت في البندقيَّة وحدها أكثر من خمسين مرَّة .

وكان من حسنات اقتباس الغرب فلسفة ابن رشد بكاملها ، أن حلَّت عقال الفكر الأُوربِّي ، وفتحت أمامه باب البحث والمناقشة واسعاً على مصراعيه ، وترك الاعتماد على الرِّوايات الدِّينيَّة[1] ، **عندها هبَّت الكنيسة لتقاوم هذا التَّيار الجارف بكل سبيل ، وأعلنت على ابن رشد حرباً شعواء دامت قرنين كاملين ، فحرَّمت دراسة الفلسفة وتدريسها ، وقتلت مناصريها ، وأحرقت كتبها .**

وكان على رأس المذهب الرُّشديّ (سيغر البابسوني) ، الَّذي احتلَّ مقاماً سامياً في جامعة باريس ، **فاستصدرت الكنيسة حكماً بطرده من تلك الجامعة** ولكن ذلك لم يبدِّل رأيه ، ولا خفَّف من نشاطه ، **إلاَّ أنَّه قُتِل غيلة .**

قال الفيلسوف الألماني (عمانويل كانت : Kant) : (١٧٢٤ ـ ١٨٠٤ م) رأيه في المكان والزمان ، وإنَّهما ليسا « شيئاً بذاته » ، إنهما وعاءان كبيران يحتويان على جميع الحقائق المحسوسة والمعقولة ، ولكنهما وعاءان بلا قعر ، ولا جوانب ، إنهما في الحقيقة (فكرة) خالصة ، تمكِّننا من تخيُّل الأشياء مرتَّبة بعضها إلى بعض ، أو منسوقاً بعضها خلف بعض ، وهما في ذلك كله قدر كان بأوَّل العقل ، وبالبديهة لا بالحواس ...

وابن رشد هو الَّذي قال : « والزَّمان معنى ذهني لا وجود له على الحقيقة » ، وقال أيضاً : « إنَّ الزَّمان شيء يفعله الذِّهن في الحركة ، لأنَّ الزَّمان ليس هو شيئاً غير ما يدركه الذِّهن من هذا الامتداد المقدَّر للحركة ، فإنكان من المعروف بنفسه أن الزَّمان موجود ، فينبغي أن يكون هذا الفعل للذِّهن من أفعاله الصَّادقة المنسوبة إلى العقل لا إلى الخيار ، والزَّمان ليس بذي وضع »[2] .

(١) عبقرية العرب في العلم والفلسفة ، ص : ١١٤ .

(٢) المرجع السَّابق ، ص : ١١٧ و ١١٨ .

وأبو النَّصر الفارابي[1] ، أكبر فلاسفة المسلمين ، هل تنسى أُوربة كتابه العظيم : (آراء أهل المدينة الفاضلة) ؟ ألم يقتبس الفيلسوف الإنكليزي (هبز) معظم أفكاره ؟

ولقد سبق الفارابي جان جاك روسّو ، وفردريك نيتشه عندما قال : إن الجمعيَّة أساسها الاتِّفاق ، أو العقد بين الأفراد ، وإن بقاءها رهن بقبول عدَّة قيود تفرضها العادة ، وينظِّمها القانون ، ورفض الفارابي أن يغزو القوي الضَّعيف ...

إنَّ في هذه الآراء لنسباً كبيراً ووثيقاً إلى الفلسفة الأُوربية في أواخر القرن الثَّامن عشر ، بل إنَّها فلسفة الثَّورة الفرنسيَّة ، وإنجيلها (العقد الاجتماعي) لمؤلِّفه جان جاك روسّو .

لقد كان أثر الفارابي في اتجاه التَّفكير الأُوربي عظيماً ، فكتبه نُقِلَت إلى اللاتينيَّة ، وطبعت جملة واحدة في باريس عام ١٦٢٨ م .

ومن فلاسفة العصور الوسطى الَّذين تأثَّروا بفلسفة الفارابي ، الرَّاهب الفرنسي (فِنْسان دوبوفيه Vincent de Beauvais) المتوفَّى نحو سنة ١٢٦٤ م ، الَّذي ضمَّ أجزاء من فلسفة الفارابي برمَّتها إلى كتابه .

أما ألبرتوس ماغنوس (ألبرت الكبير) كبير فلاسفة الكنيسة في العصور الوسطى فإنه لم يستطع عرض فلسفة أرسطو بأحسن مِمَّا عرضها الفارابي ، لذلك لم يجد بدّاً من أن يقتفي آثار الفيلسوف المسلم في عرض فلسفة أرسطو[2] .

وتأثَّر متى الأكواسبارطي ـ الَّذي أصبح كردينالاً عام ١٢٩١ م ، وتوفِّي عام ١٣٠٢ م ـ بنظرية الفيض عند ابن سينا .

---

(١) أبو النَّصر محمد بن محمد بن طَرْخان الفارابي ، (ت ٨٥٠ م ، المعلِّم الثَّاني ، تخرَّج ابن سينا على كتبه وانتفع بها ، ولد بفاراب على نهر جيحون ، ونزل بغداد فأتقن العربيَّة ومَلَكَ زمامها ، وألَّف بها كل تصانيفه .

(٢) عبقريَّة العرب في العلم والفلسفة ، ص ٩٥ ، ودائرة المعارف الإسلاميَّة : ٤٠٧/١ .

أما أبو العلاء المعرّي[1] ، الّذي لم يجمع آراءه في سلك واحد ، استطاع أن يثير التّفكير في أدمغة الّذين حوله ، كما كان يفعل سقراط تماماً .

جاء تحت عنوان : (المصادر الإسلاميّة للكوميديا الإلهيّة لِدَانْتي) : « كانت قنبلة هائلة تلك التي ألقاها المستشرق العظيم (أسين بلاثيوس) ، وهو يلقي خطاب استقباله في الأكاديميّة الملكيّة الإسبانيّة في جلسة ٢٦ كانون الثّاني (يناير) سنة ١٩١٩ م ، لما أعلن أن (دانته) في (الكوميديا الإلهيّة) قد تأثّر بالإسلام تأثّراً واسع المدى ، يتغلغل حتّى في تفاصيل تصويره للجحيم والجنّة ، إذ تبيّن له أنّ ثمّة مشابهات وثيقة بين ما ورد في بعض الكتب الإسلاميّة عن معراج النّبي [ﷺ] ، وما في (رسالة الغفران للمعرّي) ، وبعض كتب محيي الدّين بن عربي من ناحية ، وبين ما ورد في (الكوميديا الإلهيّة) ، وفي هذه المشابهات من الدّقّة والتّفصيل ما يجعل من المؤكّد أنّ التّشابه هنا لم يكن أمراً عرضيّاً وتوارد خواطر ، بل كان من تأثّر مباشر بالتّصوّرات الإسلاميّة للآخرة ، وراح (أسين) يعدّد نقط التّشابه هذه استناداً إلى المصادر الإسلامية ، مقارناً إياها بما ورد في (الكوميديا الإلهيّة) ، وكل ذلك بعلم غزير ، ومنهج دقيق »[2] .

وتجلّت آثار حجّة الإسلام أبي حامد الغزالي في أُوربة في ثلاث مظاهر :

في السّببيّة ، فيرى الغزالي أنّ الأمور تتمّ بإرادة الله لها ، لا بالأسباب الظّاهرة لنا ، واقترب (أرنست رينان) ـ الّذي قال : إنّ الإسلام حارب العلم والفلسفة ـ من الحقيقة عندما قال : إنّ (داڤيد هيوم) الفيلسوف الإنكليزي ، لم يقل شيئاً في السّببيّة فوق ما قاله الغزالي .

---

(١) أحمد بن عبد الله بن سليمان التّنوخي المعرّي (ت ١٠٥٧ م) من كتبه : لزوم ما لا يلزم ، وسقط الزّند ، وضوء السّقط ، وأشهرها : (رسالة الغفران) .

(٢) دور العرب في تكوين الفكر الأوربي ، ص : ٤٩ .

وفي الشَّكّ ، فقد بدأ (ديكارت) الفرنسي المتوفّى سنة ١٦٥٠ م ، كما بدأ الغزالي بخمسة قرون ونصف القرن : « لندع الشَّك يتسرَّب إلى كلّ اقتناع ، بل إلى كلّ عقيدة فينا ، ولكن لنهاجم شكوكنا واحداً واحداً ، ولنحاول أن نصرفها » .

وإخضاع العقل للدّين والفلسفة للفقه ، وهذا من أبرز ما تركه التَّفكير الإسلامي على التَّفكير الأُوربي في العصور الوسطى .

ولابن حزم الأندلسي (أبو محمد علي بن سعيد ، المتوفّى سنة ١٠٦٤ م) ، نظريَّة في المعرفة ، حيث يرى أنَّها تكون بشهادة الحواس ، أي بالاختيار لما تقع عليه الحواس ، أو بالعقل من غير حاجة إلى استعمال الحواس الخمس ، أو ببرهان راجع من قُرب أو من بُعد إلى شهادة الحواس .

ثمَّ إنَّ ابن حزم يعتقد أنَّ جميع أنواع المعرفة يجب أن تعتمد على الحواس الَّتي تعتمد هي بدورها على ما حولها من المحسوسات ، ويقول الدكتور عمر فرُّوخ : « هذه هي المشكلة الَّتي يزعم مؤرِّخو الفلسفة الأُوربيَّة أنَّها عرضت أوَّل ما عرضت للفيلسوف (كانت) في أواخر القرن الثَّامن عشر للميلاد ، مع أنَّها عَرضت لفيلسوفنا ابن حزم في أواسط القرن الحادي عشر ، قبل (كانت) بسبعة قرون ونصف القرن »[١] .

أمَّا أبو بكر محمد بن عبد الملك بن طفيل (ت ١١٨٥ م) ، صاحب قصَّة (حي بن يقظان) ، أعظم وأشهر قصَّة كُتِبت في العصور الوسطى ، لقد أراد منها أنَّ الإنسان العاقل بفطرته يصل عن طريق تفكيره الصَّحيح إلى مرتبه من السَّعادة ، كتلك الَّتي يصل إليها الَّذين يأخذون الشَّريعة من الأنبياء أخذاً صحيحاً[٢] .

لقد تأثَّر سبينوزا بقصَّة ابن طفيل ، كما نالت إعجاب ليبينتز ، وظهر أثر هذه القصَّة أيضاً في قصَّة روبنسون كروزو ، الَّتي أُلِّفت سنة ١٧١٩ م .

---

(١) عبقرية العرب في العلم والفلسفة ، ص : ١٠٤ .

(٢) قصّة الحضارة : ٣٦٩/١٣ .

وابن خلدون (عبد الرَّحمن بن محمد) المتوفَّى سنة ١٤٠٦ م ، يقول عنه (أرنولد توينبي) في كتابه : (دراسة التَّاريخ) : إنَّ ابن خلدون نسيج وحده في تاريخ الفكر ، لم يدانه مفكِّر كان من قبله ، أو جاء من بعده في جميع العصور .

وفلسفة ابن خلدون دارت حول نقطتين رئيسيَّتين : **فلسفة الاجتماع** ، حيث بحث في علم الاجتماع العام الاقتصادي ، ثمّ الاجتماعي ، ثمَّ السِّياسي ، ونظريَّة الدَّولة[1] .

أمَّا فلسفة التَّاريخ ، فقد أراد ابن خلدون أن يكتشف العوامل الَّتي تسيِّر الوقائع التَّاريخيَّة ، والقوانين العامَّة الَّتي تتمشّى عليها الدّول والشُّعوب في تطوُّرها ، مع إيجاد معيار صحيح يتحرَّى به المؤرِّخون طريق الصِّدق ، والخطأ فيما ينقلونه من الأخبار والوقائع .

جمع ساطع الحصري على التَّقريب أهمّ المؤلَّفات الَّتي تتعلَّق بفلسفة التَّاريخ مباشرة ، فوجدها بعد ظهور مقدمة ابن خلدون ، تنحصر في عشرة كتب ، منها : الأمير لميكياڤيلي الإيطالي ، والحكومة المدنية لجون لوك الإنكليزي ، والعالم الجديد لجان باتيستاڤيكو الإيطالي ، وطبائع الأمم وفلسفة التَّاريخ لڤولتر الفرنسي ، وآراء فلسفيَّة في تاريخ البشريَّة لهردر الألماني .. وكلُّهم اقتبسوا منه في كتبهم .

ولقد سبق ابنُ خلدون علماءَ الاجتماع بقرون : سبق غبرييل تارد بالقول وبالمحاكاة والتَّقليد ، وكان ابن خلدون أعمق وأنضج ، لأنَّه أعطى رأياً متميِّزاً ، واعتبر التَّقليد ظاهرة ضعف ، لا دلالة قوة .

---

(١) يرى ابن خلدون أنَّ الدَّولة هي التَّاجر الكبير ، وهي كالتَّاجر البارع البعيد النَّظر ، من واجبها أن تتأكَّد من أنَّ الضَّرائب الَّتي تستوفيها تعود إلى التَّداول بين النَّاس ، والضَّرائب المعتدلة أعظم حافز على العمل ، ومن النَّاحية الأخرى ، فإنَّ الضَّريبة لا تثمر إذا هي فرضت تعسُّفياً .

وسبق دوركهايم بالقول بالقسر الاجتماعي ، فالإنسان ابن مجتمعه ، والظّاهرة الاجتماعيَّة تفرض نفسها على الأفراد .

وامتاز عن ڤيكو في مجرى تاريخ الأمم وتطوراتها أنه كان موضوعياً .

والشَّبه جلي بينه وبين ميكياڤيلي في دراسات السُّلطة والحكومات والإمارات ، والأساليب التي يجب اتِّباعها في الحكم .

ووجه الشَّبه بينه وبين جان جاك روسّو واضحة من حيث الإيمان الشَّديد بحياة التَّقشُّف ، وبينه وبين فردريك نيتشه في نظريَّة : الحقُّ للقوَّة ، ولابن خلدون لمحات لتفسير الظَّواهر السِّياسيَّة بالعامل الاقتصادي(١) .

(لقد كان ابن خلدون) شغوفاً بفلسفة التَّاريخ ، مع (معاناته السِّياسيَّة) ، فكانت تجربته غنيَّة ، ولم يكن رائداً في علم الاجتماع السُّكوني ، بل هو رائد في علم الاجتماع الحركي ، بدليل أنه لم يدرس المدن الفاضلة ، بل المدن القائمة .

يقول (ريسلر J.C.Riesler) : « لم يسبق أن حمل أحد من العرب أو من الغربيِّين قبل ابن خلدون ، وجهة نظر تجمع بين الشُّمول والفلسفة الحقَّة في آن واحد ، والاعتقاد السَّائد بين منتقدي ابن خلدون ، هو أنَّه أعظم مؤرِّخ أنتجه الإسلام ، ومن أعظم المؤرِّخين في العصور الوسطى »(٢) .

الحديث يطول عن مآثر الفلاسفة المسلمين ؛ عن الفارابي وابن سينا ، والكندي وابن حزم ، والغزالي وابن رشد ، والمعرِّي وابن طفيل ، وابن باجَّة وابن خلدون ..

---

(١) سبق ابن خلدون بقرون كارل ماركس في نظريَّة فضل القيمة ، إن قيمة العمل إنَّما تقاس بكمِّيَّته ، يقول ابن خلدون حرفيّاً : « وقد يكون مع الصَّنائع في بعضها غيرُها مثل النِّجارة والحياكة معها الخشب والغَزْل ، إلاَّ أنَّ العمل فيهما (أي في النِّجارة والحياكة) أكثر ، فقيمتُه أكثر » ، (دور العرب في تكوين الفكر الأُوربي ، ص : ١٣٨) .

(٢) La Civilisation Arabe , Paris 1956

هؤلاء الفلاسفة المسلمون ، أين ترعرعت فلسفتهم ؟ وأين قدَّموا نتاجهم ؟ وأين نشروه ؟

وهل مُنِعَ واحد منهم باسم الإسلام عرض ما يرى ويعتقد أو نشره ؟ أم نعموا جميعاً بحرِّيَّة الفكر والاعتقاد ، في الوقت الذي كانت تحرق الكتب والعلماء ، ويُطارد الفلاسفة ؟

قال (إنج) عميد كلِّيَّة القدِّيس بولس مخاطباً شعبة اتِّحاد رجال الكنيسة في أكسفورد : « **يودُّ كثيرون من رجال الكنيسة لوأنَّ حركة الحرِّيَّة الفكريَّة وقفت خارج باب الكنيسة** ! ولكن انظروا ماذا تكون النَّتيجة لوأنَّ صوت الفكر الحر اختنق داخل الكنيسة الإنكليزيَّة ! إذن لكانت الكنيسة تعتقد الآن أنَّ الشَّمس تدور حول الأرض ، وأنَّ الجنَّة في مكان يمكن الوصول إليه في طيَّارة إذا عُرِف الطَّريق ، لأنَّ جهنَّم تحت أقدامنا ، وأن ثَوَرَان البراكين ـ كما يزعم رجل الدِّين في العصور الوسطى ـ ناشئٌ من زيادة سكَّان الجحيم ، كلٌّ هذه أُمور لم يؤمن بها رجل متعلِّم ، ولم يسعه الإيمان بها ، ولو أنَّ الكنيسة ظلَّت متمسِّكة بهذه العقائد ، لما بقي فيها مكان إلاَّ للحمقى والدَّجاجلة »[1] .

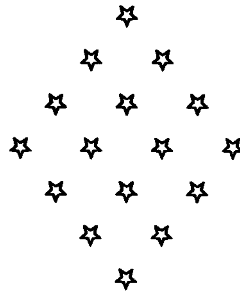
وكم كنّا نتمنَّى أنَّ (أرنست رينان) قد كتب الأدلَّة ، وأورد الأمثلة التي تثبت أنَّ الإسلام حارب العلم والفلسفة ، لنحاورها وناقشها ، ولكنَّنا أمام (إسقاط) ، والإسقاطات على مختلف أنواعها ، من طبيعة طرحها أنها لا تحتاج إلى أدلَّة أو براهين .

عندما قال (سيمون أُوكلي) في كتابه (تاريخ العرب) الذي ظهر المجلد الأوَّل منه سنة ١٧٠٨ م : « إنَّ المسيحيِّين الأُوربيِّين يدينون للمسلمين بأوَّل ما عرفوه من الفلسفة » ، أبدى الاستشراق رأياً يقول : إن موقف (أُوكلي) من المسلمين كان صدمة مؤلمة للجمهور الأُوربي !!

(١) المثل الأعلى في الأنبياء ، ص : ٥٧ .

الحقيقـة في عُرْف (الْمُسْقِطِين) صـدمـة مؤلـة ، خصوصـاً إن كانت بحق الإسـلام والمسلمين ، لقد قال (وليم وستن) - خليفة نيوتن في جـامعـة كمبردج - الحقيقـة في يوم من الأيَّام ، وأنصف الإسلام بكلمات ، أدَّت إلى طرده من كمبردج .

فمن الذي حارب العلم والفلسفة وحرِّيَّة الرَّأي والكلمة ؟!!



الإسقاط العاشر

حرّق المسلمون الكتب والمكتبات خلال فتوحاتهم

حارب الإسلام العِلْم[(١)] ، ودليل ذلك : إحراق المسلمين لمكتبة الإسكندريَّة بأمر من الخليفة الرَّاشدي الثَّاني عمر بن الخطَّاب ، عندما فتحوا مصر سنة ٦٤٢ م بقيادة عمرو بن العاص ، « إن المسلمين كانت لهم رغبة عظيمة في محوِ كلِّ كتاب غير القرآن والسُّنَّة » .

روى قصَّة إحراق مكتبة الإسكندريَّة غريغوريوس ، أبو الفَرَج المعروف بابن العبري[(٢)] ، كما رواها البغدادي[(٣)] وابن القفطي[(٤)] ، اللَّذان عاشا في القرن الثَّالث عشر الميلادي ، دون ذكر السَّند ، ولا يستبعد أن يكونا مع ابن العبري ، قد أخذوا عن مصدر ضائع معادٍ للمسلمين .

---

(١) كما يدَّعي أرنست رينان ، في كتابه : الإسلام والعلم .

(٢) غريغوريوس أبو الفَرَج بن أهرون المعروف بابن العبري - كان أبوه يهودياً تنصَّر - ولد سنة ١٢٢٦ م في مدينة ملطية قاعدة أرمينية الصُّغرى ، وتوفِّي سنة ١٢٨٦ م في مدينة مراغة من أعمال أذربيجان ، نُصِّب أُسقفاً لليعاقبة في مدينة حلب ، وارتقى إلى رتبة (جاثليق) على كرسي المشرق سنة ١٢٦٤ م ، والجاثليق : رياسة رؤساء الكهنة السُّريانيِّين في بلاد المشرق ، العراق وفارس وما إليهما ، ويقال لصاحب هذه الرُّتبة عند رجال الكنيسة المفريان ، أي (المثمر) ، (الأعلام : ١١٧/٥) .

(٣) عبد اللطيف البغدادي : (١١٦٢- ١٢٣١ م) .

(٤) علي بن يوسف بن إبراهيم الشَّيباني القفطي : (١١٧٢ - ١٢٤٨ م) .

وأسهب بعض المؤرِّخين المحدثين في تفنيد رواية الإحراق ، لاسيا رواية أبي الفَرَج ، وذكروا ما يدلُّ على أن عَمْراً وعُمَر بريئان ممَّا نُسِب إليهما ، وهذه هي رواية أبي الفَرَج عن كيفيَّة الحريق على يد عمرو بن العاص ، قال :

« كان في وقت الفتح رجل اكتسب شهرة عظيمة عند المسلمين يسمَّى يوحنا النَّحوي ، كان قسِّيساً قبطيّاً من أهل الإسكندريَّة ، وفي هذا الزَّمان اشتهر بين الإسلاميِّين بيحي المعروف عندنا (بغرماطيقوس) أي النَّحوي ، وكان إسكندريّاً يعتقد اعتقاد النَّصارى اليعقوبيَّة ، ويشيد عقيدة (ساوري) ، ثمَّ رجع عمَّا يعتقده النَّصارى في التَّثليث ، فاجتمع إليه الأساقفة بمصر وسألوه الرُّجوع عما هو عليه ، فلم يرجع ، فأسقطوه من منزلته ، وعاش إلى أن فتح عمرو بن العاص مدينة الإسكندرية ، ودخل على عمرو وقد عرف موضعه من العلوم ، فأكرمه عمرو وسمع من ألفاظه الفلسفيَّة ، التي لم تكن للعرب بها أُنسة ، ماهاله ففتن به[1] .

وكان عمرو عاقلاً حسن الاستماع ، صحيح الفكر ، فلازمه وكان لا يفارقه ، ثمَّ قال له يحي يوماً : إنَّك قد أحطَّت بحواصل الإسكندريَّة ، وختمت على كلِّ الأشياء الموجودة بها ، فمالك به انتفاع فلا أُعارضك فيه ، وما لا انتفاع لكَ به فنحن أوْلى به ، فقال له عمرو : وما الذي تحتاج إليه ؟ قال : كتب الحكمة التي في خزائن الملوكيَّة ، فقال له عمرو : لا يمكنني أن آمر إلا بعد استئذان أمير المؤمنين عمر بن الخطَّاب ، وكتب إلى عمر وعرَّفه قول يحي ، فورد عليه كتاب عمر يقول فيه : وأما الكتب التي ذكرتها ، فإن كان فيها ما يوافق كتاب الله ، ففي كتاب الله عنه غنى ، وإن كان فيها ما يخالف كتاب الله ، فلا حاجة إليه فتقدَّم بإعدامها ، فشرع عمرو بن العاص في تفريقها على

---

(١) الطَّبعة الأخيرة من كتاب أبي الفرج : (تاريخ مختصر الدُّول) والمتواجدة في الأسواق حالياً ، تقف في الرِّواية إلى هنا ، وحذفت الفقرة التَّالية ، وهذا اعتراف ممن يطبع تراث أبي الفرح بكذبه وافترائه ، انظر ص : ١٠٢ وما بعدها .

حمامات الإسكندريَّة وإحراقها في مواقدها ، فاستنفدت في ستَّة أشهر ، فاسمع ما جرى واعجب ! » .

هذه الرِّواية أشبه بالخرافة ، فقد ذكر فيها ابن العبري أنَّ كتب المكتبة كفت أربعة آلاف حَمَّام ، وهي عدد حمامات الإسكندريَّة كما ذكرها ابن العبري ، لمدة ستَّة أشهر ، وهذا غير معقول ، فالمخطوطات التي ادَّعى أنَّها أُحرقت ٧٠٠ ألف مخطوط ، أُحرقت في ٤٠٠٠ حمام عام ، فيكون نصيب كلّ حمام ١٧٥ مخطوطة ، وهذا يكفي لعدَّة أيَّام ، لا لستَّة أشهر كما يدَّعي ، لذلك قال البروفيسّور ألفرد بتلر : « لا يمكن الشَّك بهذه المسألة أكثر من هذا »[1] .

ولو قصد عمرو تدمير المكتبة ، لأحرقها في الحال ، ولم يتركها تحت رحمة أصحاب الحمَّامات ، وإلا لتمكن يوحنا النَّحوي الَّذي بنى ابن العبري روايته عليه من أخذ ما يلزم من هذه الكتب بثمن بخس ، ولتسرَّب قسم كبير من الكتب ، ليظهر فيما بعد ، وهذا مالم يحدث .

ويذكر (بتلر) : أنَّ يوحنا هذا مات قبل الفتح الإسلامي لمصر بثلاثين أو أربعين سنة .

ولو كانت الرِّواية صحيحة ، لذكرها (أُوتيخا) المؤرِّخ المعاصر للفتح الإسلامي لمصر ، والذي وصف فتح مصر بإسهاب .

ـ الأولى سنة ٤٨ ق . م على أثر إحراق أُسطول يوليوس قيصر .

ـ والثانية في عهد القيصر تيودوسيس ، وذلك سنة ١٣٩١ م ، فنُسِجَت هذه الرِّواية على منوال الحريقين السَّابقين .

(١) انظر تاريخ الإسلام : ٢٤١/١ ، وعدد الهلال آب (أُغسطس) ١٩٧٢ ، وبحث لستفين بيترو بعنوان : Did the Conguering Muslims Destroy the Library of Alexandria في مجلَّة : The Islamic Review عدد ١٩٥٥ ، صفحة : ٢٩ـ٣٠ .

زار (أُورازيوس Orazius) الإسكندريَّة في أوائل القرن الخامس الميلادي ، فذكر أنَّ رفوف المكتبة خالية من الكتب عند زيارته « ينعق فيها البوم » بعد أن أُتلفت بنحو عشرين سنة ، وقد أتلفها (تيوفيل) بطريق الإسكندريَّة ، بعد أن نال الأمر الإمبراطوري بإتلافها .

وهكذا .. مع أنَّ التَّعاليم الإسلاميَّة تخالف هذه الرِّواية ، لأنَّها تحترم الكتب الدِّينيَّة لأهل الكتاب ، فهي أيضاً مخالفة لعادات المسلمين التي عُرِفوا بها عند الفتح ، ولو فرضنا أنَّ هذه المكتبة بقيت إلى الفتح الإسلامي ، لم يكن هناك ما يمنع من نقلها إلى القسطنطينيَّة على أيدي الرُّوم أثناء الهدنة التي عقدت مع المسلمين ، وقد أجاز لهم عمرو في هذا الصُّلح أن يحملوا كلَّ ما يقدرون عليه ، وكان لديهم من الوقت ما يمكِّنهم من نقل مكتبات لا مكتبة واحدة ، فالحكاية محض افتراء .

الإسلام لم يكن في يوم من الأيام عدوّاً للعلم ، إنَّه الدِّين الذي بدأ دستوره الإلهي الخالد بكلمة ﴿ اقْرَأْ ﴾ ، وثنَّى بِقَسَمٍ (بنون) - التي هي الدّواة - ﴿ ن ، وَالقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ .

الغرب المتمسِّك بالمسيحيَّة ، هو الذي ظلَّ بضعة عشر قرناً عدوّاً للعِلْم محارباً له ، بعيداً عن المدنيَّة والعلوم والمعارف والصِّناعات النَّافعة إلى غاية يخجل العقل من تصوُّرها ، وما نفع أُوربَّة ما لديها من الدِّين ورجاله في رفعها مما كانت فيه من التَّأخُّر والهمجيَّة ، ولم تتقدَّم نحو المدنيَّة إلاّ يوم اختلطت بالمسلمين ، وعندها قامت قيامة الإكليروس عليها ، وكفَّروا كلَّ من يتعلَّم غير علوم الكنيسة واضطهدتهم وقتلتهم حرَّقتهم ، إلى غير ذلك من الفظائع التي شوَّهت وجه الإنسانيَّة .

متى كان للمسيحيَّة مدنيَّة يُفْتَخَرُ بها ، سوى تعاليم الكنيسة التي لا يجوز لأحد أن يتلقَّى سواها ؟ وهي تعاليم أُخرويَّة بحتة ، وتأمر بالنَّفرة من كلِّ رقيٍّ وتقدُّم دنيوي ، حتَّى إنَّها تنظر إلى الأغنياء نظرها إلى أعظم المجرمين المذنبين ، فحرَّمت عليهم الدُّخول

في ملكوت السّماوات ، فزمام أمر الأُمّة كان بيد رؤسائها الرُّوحيِّين ، وبيدهم الحلّ والرّبط حتّى إنّهم صرّحوا أنّ إرادة السّماء تابعة لإرادتهم ، فما رأوه حسناً وإن كان سيّئاً فهو حسن عند الله بزعمهم ، فأثّروا بذلك في نفوس النّاس ، وملكوا إرادتهم وحرّيّتهم ، حتّى أيقن أتباع الكنيسة أن لا عزم لهم ولا إرادة ، فما يأمر به الكاهن فهو الحق ، وإن كان خطأ صراحاً[1] .

« من هنا أعرض المسيحيّون الأوّلون عن شواغل هذا الكون ، وصدّوا عن سبيل النّظر فيه إظهاراً للغنى بالإيمان والعبادة عن كلّ شيء سواهما ، وحجروا على همم النّفوس أن تنهض إلاّ إلى الدّعوة إلى ذلك الإيمان ، وتلك العبادة ، ووسائل الدّعوة هي الإيمان والعبادة كذلك ، فإذا نزعت العقول إلى علم شيء من العالم ، وضعوا أمام نظرها كتب العهد القديم ، وحصروا العِلْم بين دفّاتها استغناء بالوحي عن كلّ عملٍ للعقل سوى ما يفهمه من عبارات الوحي ، ولا يسمح لكلّ ذي عقل أن يفهم ما يشاء ، بل يتلقّى فهمه من رؤساء الكنيسة خوفاً من الزّيغ عن الإيمان السّليم[2] .

حصروا التّعليم في الأديار ، ومنعت الكنيسة أن ينشر بين العامّة إلاّ ما كان دعوة إلى الصّلاح وتقرير الإيمان على وجه ظاهر ، وبقي غير القسّيسين في جهالة حتّى بأُمور الدّين وحقائقه وأسراره ، وعندما ظهرت النّجمة ذات الذّنب ، التي تنسب إلى (هالي)[3] في سنة ١٦٨٢ م فاضطربت لظهورها أُوربّة ، ولجؤوا إلى البابا واستجاروا

---

(١) الإسلام روح المدنيّة ، ص : ١٠٤ .

(٢) البروتستانت ـ بعد الإصلاح الدّيني وانفصالهم عن الفاتيكان ـ رأوا أنّه يجوز تفسير الكتاب لغير الكنيسة .

(٣) لاحظ إدموند هالي Halley الفترات الزّمنيّة المتساوية لظهور المذنّب في الأعوام : ١٥٣١ ، ١٦٠٧ ، ١٦٨٢ ، وتابع هالي بنفسه عام ١٦٨٢ حركة المذنّب ومداره في السّماء ، فقال : إنّ هذا المذنّب يظهر كلّ ٧٦ عاماً على شكل دوري ، وتحقّق ما تنبّأ به هذا العالم ، ولهذا أُطلق اسمه على المذنّب ، وصار يعرف بمذنب هالي .

به فأجارهم وطردها من الجو ، فولَّت في الفضاء مذعورة من لعنته ، ولم تعد إلا بعد ستّ وسبعين سنة !!

لم يكن يُسمح لأحد أن يُبدي رأياً يخالف صريح ما في الكتاب ، (التَّوراة والإنجيل) ، وعندما أظهر (بلاج) رأيه في أن الموت كان يوجد قبل آدم ، أي إنَّ الحيوانات كان يُدركها الموت قبل أن يُخطئ آدم بالأكل والجلاد إلى صدور أمر إمبراطوري بقتل كلّ شخص يعتقد بذلك !! يقول المؤرّخ[1] : وهكذا عُدَّ الاعتقاد بأن الموت كان يزور الأحياء قبل آدم جريمة على المَلِك .

أُحرقت كتب البطالسة والمصريّين بالإسكندريَّة على عهد جول قيصر ، ثمَّ إنَّ تيوفيل بطريق الإسكندريَّة انتحل أدنى الأسباب لإثارة ثورة في المدينة لإتلاف ما بقي في مكتبة البطالسة ، بعض بالإحراق ، وبعض بالتَّبديد ، وقال (أُورازيوس) المؤرّخ إنَّه رأى أدراج المكتبة خالية من الكتب بعد أن نال (تيوفيل) الأمر الإمبراطوري بإتلافها بنحو عشرين سنة .

ثمَّ جاء بعد (تيوفيل) ابن أخته (سيريل) ، وكان خطيباً مفوَّهاً ، له على الشَّعب سلطان بفصاحته ، وكان في الإسكندرية بنت تُسَمَّى (هيباتي الرِّياضيَّة) ، تشتغل بالعلوم والفلسفة ، وكان يجتمع إليها كثير من أهل النَّظر في العلوم الرياضيَّة ، وكان لا يخلو مجلسها من البحث في أُمور أُخر ، خصوصاً في هذه المسائل الثَّلاث : مَن أنا ؟ وإلى أين أذهب ؟ وماذا يُمكنني أن أعلم ؟ فلم يحتمل ذلك القدّيس (سيريل) ، مع أن البنت لم تكن مسيحيَّة ، بل كانت على دين آبائها المصريّين ، فأخذ يُثير الشَّعب عليها حتّى قعدوا وقبضوا عليها وهي سائرة إلى دار ندوتها وجرَّدوها من ثيابها ، وأخذوها إلى الكنيسة مكشوفة العورة وقتلوها هناك ، ثمَّ قُطِّع جسمها وجُرِّد اللَّحم عن العظم ، وما بقي منها أُلقي في النَّار »[2] .

(١) لم يذكر النصّ اسم المؤرّخ ، ولعلّه (بلاج) .

(٢) الإسلام روح المدنيّة ، ص : ١٠٥ ، عن كتاب : الإسلام والنّصرانيّة مع العلم والمدنيّة .

وجاء في مجلَّة (المقتبس)[1] : « قال (كوندي) في تاريخه : إن مسيحي إسبانية لما استولوا على قرطبة حرقوا كل ماطالت إليه أيديهم من مصنَّفات المسلمين ، وعددها مليون وخمسون ألف مجلَّد ، وجعلوها زينة وشعلة في يوم واحد ، ثمَّ رجعوا على سبعين مكتبة في الأندلس ، وأنشأوا يتلفون كل ما عثروا عليه في كلِّ إقليم من مؤلَّفات العرب ، وقال أحد مؤرِّخيهم (ربلس) : إنَّ ما أحرقه الإسبانيول من كتب الأندلسيِّين بلغ ألف ألف وخمسة آلاف مجلد ، وذكر بعض المؤرِّخين أنَّ أحد جثالقتهم[2] أمر بإحراق ثمانين ألف مجلد في ساحات غَرْناطَة عقيب استيلائهم عليها ، وإنَّهم قبضوا على ثلاث سفن قاصدة مَراكش تقلُّ ماعزَّ على المسلمين أن يخلِّفوه وراءهم من أسفارهم ، فألقوها في قصر (الإسكوريال) ، ثمَّ لعبت فيها النِّيران » .

وبعد كلِّ ماسبق ، أليس اتِّهامهم للإسلام وأهله ، بعدائه للعلم ، وتحريق الكتب في مكتبة الإسكندريَّة ، من قبيل (الإسقاط) ؟

إن أعمال الخلفاء من بني أُميَّة ، ومن بني العبَّاس في الحفاظ على الكتب الهنديَّة والفارسيَّة والرُّوميَّة واليونانيَّة والسريانيَّة كثيرة جداً ، بل وسعى بعض هؤلاء الخلفاء إلى جلب هذه الكتب من مدن أُوربة وغيرها ، وبذلوا الكثير من أجل الحصول عليها ، وسعوا إلى ترجمتها إلى العربيَّة والاستفادة منها في مختلف الاختصاصات كالطِّب والفلك والرِّياضيات والنَّبات وغيرها ، أمَّا كتب الفلسفة اليونانيَّة فقد درسوها ونقدوها ، وأوجدوا فلسفة إسلاميَّة تقف في وجه الفلسفة اليونانيَّة ذات الأصول الوثنيَّة المادِّيَّة .

---

(١) لصاحبها محمد كرد علي (١٨٧٦ ـ ١٩٥٣ م) مؤرِّخ وأديب سوري من الكبار ، من مؤسِّسي المجمع العلمي في دمشق ورئيسه ، أنشأ جريدة المقتبس سنة ١٩٠٨ م ، أشهر كتبه : خطط الشَّام .

(٢) إنَّه الكردينال اكسيمينس الذي قاد بنفسه حملة همجيَّة لحرق التُّراث العربي الإسلامي ، فأحرق مئة ألف مجلَّد وأكثر ...

وهذا الموقف السَّليم من كتب الشُّعوب ومكتباتهم أمر طبيعي في الإسلام ، اقتبسه المسلمون من سُنَّة رسول الله ﷺ ، فعندما فتح المسلمون حصن الوطيح ، وحصن السُّلالم في غزوة خيبر ، وجدوا صحائف متعدِّدة من التَّوراة ، فجاء اليهود يطلبونها ، فأمر رسول الله ﷺ بدفعها إليهم .

وهذا التَّسامح ، والموقف الإنساني ، سبقه تسامح آخر عندما ترك صحائف اليهود ولم يتعرّض لها بسوء ، ولم ينظر لها نظرة غير طبيعيَّة ، مع شدة عداوة اليهود للمسلمين ، فقد سمح لبني النضير بعد غزوة أُحُد بحمل صحفهم عند جلائهم عن المدينة المنوَّرة .

لقد انتشرت الكتب والمكتبات في ظل حكم المسلمين وحضارتهم في المشرق والمغرب ، أي من مناطق ما وراء النَّهر في بخارى وسمرقند ، مروراً بمدن الهند وفارس وبغداد ودمشق ومصر ، حتى مدن المغرب والأندلس ، وضاعت أصول كثير من الكتب اليونانية في أُوربّة ، وعرفت من ترجمتها العربيَّة .

إنَّ التَّعصُّب الذَّميم جعلهم يلصقون بالمسلمين ما وقعت فيه أُوربّة الَّتي رعتها الكنيسة ورجالها خلال عصورها الوسطى المظلمة ، وبدايات عصر النَّهضة ، فقد أبادوا الكتب العربيَّة حقداً منهم على العرب والإسلام ، مهما كان نوع تلك الكتب واختصاصها ، يقول غوستاف لوبون : « وأمَّا إحراق مكتبة الإسكندريَّة المزعوم ، فمن الأعمال الهمجيَّة الَّتي تأباها عادات العرب المسلمين .. ولا شيء أسهل من أن نثبت بما لدينا من الأدلَّة الواضحة أنَّ النَّصارى هم الذين أحرقوا كتب المشركين في الإسكندريَّة قبل الفتح العربي الإسلامي »[١] .

وكذلك (ريسلر) في (الحضارة العربية ، ص ١٠١) ، اعتبر حريق الإسكندريّة أُسطورة . فهل لسنا (الإسقاط) بعد هذا كلّه ؟

---

(١) حضارة العرب ، ص : ٢١٣ .

الإسقاط
الحادي عشر

الإسلام
عدو المرأة !

يعترف ڤولتير[1] بالتَّالي :

لقد نسبنا إلى القرآن كثيراً من الأباطيل ، ولكنَّه في الحقيقة براء منها ، فالقُسُس صنَّفوا كتباً كثيرة في ذمِّ المسلمين ، وكتب كتَّابُنا ـ وهم لا يحصرهم العدُّ ـ مؤلَّفاتٍ واسعة ، استطاعوا بها أن يجعلوا النِّساء من حزبهم ، ذلك بأنَّهم نقلوا إليهنَّ بأنَّ محمداً يعتبرهنّ حيوانات ذات ذكاء ، وأنَّ الشَّريعة الإسلاميَّة لا تراهنَّ إلاَّ إماء لا يملكن من دنياهنَّ شيئاً ، ولاحظ لهنَّ في الحياة الآخرة[2] .

ويقرِّر ڤولتير : وبديهي أنَّ هذا الكلام باطل ، ومع ذلك فقد كان النَّاس يصدِّقونه ، ويقول :

« إنَّ الذين عزوا إلى القرآن أنَّه يخفِّض من مقام المرأة ، إنَّما يعزون إليه ذلك بهتاناً وكذباً »[3] .

---

(١) ڤولتير (فرانسوا ماري أرواي) Voltaire : (١٦٩٤ ـ ١٧٧٨ م) ، مؤلِّف فرنسي ، من نوابغ زمانه ، تزعَّم حركة الفلسفة المادِّيَّة ، وقاوم رجال السُّلطة الدِّينيَّة والمدنيَّة ، ونقدهم بقلمه الرَّشيق اللاَّذع .

(٢) الهلال والصَّليب ، ص : ٨٩ .

(٣) المرجع السَّابق ، ص : ٩٠ .

ومن الذين عزوا - زوراً وبهتاناً - إلى الإسلام (إسقاطاً) ما ليس منه ، اللُّورد (كرومر)[1] الذي قال : « إنَّ لفشل الإسلام كنظام اجتماعي أسباباً ، منها أنَّه جعل المرأة في مركز منحطٍّ كثيراً عن الرَّجل »[2] .

والسِّير (وليم مور) في كتابه : (حياة محمد) ، عندما ادَّعى أنَّ المسلمين يجهلون معنى الارتباط الزَّوجي جهلاً كبيراً[3] ، وحال المسلمين ترتقي عندما يتَّبعون سُنَّة النَّصارى في مجال الرَّابطة الزَّوجيَّة (!) .

ويكرِّر رجال الكهنوت في مواعظهم ونشراتهم قولهم : « إنَّ الكنيسة دون سواها ، هي التي حرَّرت[4] ورعت حقوق المرأة » .

إسقاط ، ودعوى باطلة بطلان ما يتَّهمون به القرآن الكريم ، من أنَّه يحطُّ من منزلة المرأة .

ونحن هنا لسنا في صدد إيراد بحث شامل عن مكانة المرأة وحقوقها في الإسلام ، فالموضوع موضوع (إسقاط) ليس غير ، لكنَّنا مضطرُّون إلى إيراد ومضات من القرآن الكريم ، تبدِّد وهمهم وبهتانهم ، وتلقي شعاعاً من الحقيقة على جوانب مكانة المرأة في الإسلام .

جاء في كتاب الله المجيد :

---

(١) اللُّورد كرومر (إفلين بارينغ) Cromer : (١٨٤١ - ١٩١٧) ، المعتمد البريطاني في مصر من سنة ١٨٨٣ إلى ١٩٠٧ م .

(٢) الإسلام روح المدنيَّة ، ص : ٢٥٧ .

(٣) الهلال والصَّليب ، ص : ١١٨ .

(٤) التَّحرير لا يكون إلاَّ من عبوديَّة ، والمسلم (ذكر وأُنثى) لا يعطي العبوديَّة لمخلوق ، بل يعطيها للخالق وحده .

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَن خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُم أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتفكَّرُونَ ﴾ [الرُّوم : ٢١/٣٠] .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ٱتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِن نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَٱتَّقُوا اللهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُم رَقِيباً ﴾ [النِّساء : ١/٤] .

﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُم أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللهُ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ☆ وَعَدَ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [التَّوبة : ٧١/٩ـ٧٢] .

﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَو أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُم أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [النَّحل : ٩٧/١٦] .

﴿ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [غافر : ٤٠/٤٠] .

﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً ﴾ [النِّساء : ١٩/٤] .

وقال رسول الله ﷺ :

« أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خُلُقاً وألطفهم بأهله » .

« خيركم خيركم لأهله ، وأنا خيركم لأهلي » .

« ما أكرم النِّساء إلاَّ كريم ، وما أهانهنَّ إلاَّ لئيم » .

ومن آخر ما وصَّى به ﷺ ، وهو في سكرات الموت : « اللهَ اللهَ في النِّساء » .

ومن حقّ المرء أن يتساءل : ولكن - في الإسلام - للرِّجال على النِّساء درجة ، وسمح بتعدُّد الزَّوجات ، وسمح أيضاً بالطَّلاق ... فأين الإسقاط ؟!.

أوّلاً : ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ﴾ [البقرة : ٢٢٨/٢] ، إنَّها درجة إدارة مؤسَّسة الأسرة تحت شعار المودَّة والرَّحمة ، فهي درجة مسؤوليَّة تسمَّى (القوامة) .

فالقوامة للرَّجل ، وظيفة داخل كيان الأسرة لإدارة هذه المؤسَّسة الخطيرة ، وصيانتها وحمايتها ، ووجود القيِّم في مؤسَّسة ما ، لا يلغي وجود حقوق الشُّركاء فيها ، والعاملين في وظائفها .

ومن الدَّلائل الفطريَّة الطَّبيعيَّة لقوامة الرَّجل ، شعور المرأة بالحرمان والنَّقص والقلق وفقدان السَّعادة ، وعندما تعيش مع رجل لا يزاول مهام القوامة ، وتنقصه صفاتها اللازمة .

ثانياً : أمَّا تعدُّد الزَّوجات ، فالقول الحقُّ : الزَّوجة الواحدة هي الأصل في الإسلام ، وسار على ذلك أكثر من ٩٨٪ من المسلمين ، ولكن عوامل متعدِّدة تدفع الرَّجل - مسلماً كان أو غير مسلم - إلى التَّزوُّج بزوجة أُخرى ، كعدم الإنجاب ، ومرض الزوجة المزمن .. ومهما كان الباعث مقبولاً ، فينبغي أن يكون العلاج بقدر العلَّة .

والشَّريعة أباحت للمرأة أن تشترط على زوجها حين العقد ، بأن لا يتزوَّج عليها ، فحينئذ لا يسوغ له الزَّواج بغيرها .

ثالثاً : والطلاق - مع أنه في الغرب أكثر منه في الشَّرق بكثير - هو إراحة كلٍّ من الزَّوجَين حيث يتعذَّر اتِّفاقهما ، إنَّه مباح عند الضَّرورة ، وذلك أنَّ الخصام واللَّجاج من طبائع المخلوقات ، لا يمكن محوها من النُّفوس ، والمشارب تختلف باختلاف العقول .

فمن الحكمة إن لم يمكن اتّفاق الزّوجين وإزالة ما بينهما من الكره والنُّفور أن ينفصلا ، وبذلك يهنأ بالُهما ، وتطيب قلوبُهما .

وللمرأة حقُّ التَّخلُّص من زوجها أيضاً ، متى أثبتت للقاضي أذاها منه ، وإضراره بها .

وقبل الإجابة عن الإسقاط في موضوع (المرأة) ، نذكر أمرين اثنين :

- حقوق المرأة في المِلْكيَّة في جميع أشكالها : (بيع ، شراء ، تأجير ، استئجار ، دَيْن ، هبات ..) ليس منحة من مجلس نيابي ، بل هو تشريع إلهي غير قابل للحوار .

- إذا حال الزَّوج بين زوجته وبين طلب العِلْم ، فإنَّها لا تطيعه ، بل تخرج لطلبه ودراسته ، وتحصيل ما يلزمها من العلوم التي تجعلها سعيدة في الحياتَيْن ، وهذا ما ذكرته كتب الفقه .

الإسقاط في موضوع المرأة :

أوّلاً : جاء في العهد القديم : « درتُ أنا وقلبي لأعلم ولأبحث ولأطلب حكمة وعقلاً ، ولأعرف الشَّرّ أنَّه جهالةٌ والحماقة أنَّها جنونٌ ، فوجدتُ أَمَرَّ من الموت المرأة التي هي شباكٌ وقلبها أشراكٌ ويداها قيود ، الصَّالح قُدَّامَ اللهِ ينجو منها ... » [الجامعة : ٢٥/٧ و ٢٦ و ٢٧] .

وكبَّلت النَّصرانيَّة المرأة في أغلال الرِّقّ ، وقالت عنها :

أَما تعلمنَّ أنَّ كلَّ واحدة منكنَّ حواء ؟ أنتنَّ باب الشَّيطان ، أنتنَّ الآكلات من الشَّجرة !

إنَّ المرأة هي مطيّة الشَّيطان ، والعقرب الذي لا يتردَّد قط عن لدغ أيِّ إنسان ، وهي الأفعى التي تنفث السُّمَّ الزُّعاف ، وهي اللُّعاب الذي يسيل من فم الأُفعوان ..

يقول خواجه كمال الدِّين معلِّقاً[1] : هـذه بعض البركات التي فـاضت على المرأة من رجـال لهم شـأن كبير في الكنيسـة ، كالقـدِّيس برنـار ، والقـدِّيس أنتـوني ، والقـدِّيس جيروم ، والقدِّيس سبريان ، والقدِّيس بولص الذي يعدُّ في نظري أبا عُذْر هذا القول ، ولعلَّ السَّبب في حقده على المرأة أنَّه خطب فتاة يهوديَّـة ، فـأبت أن تتزوَّجـه ، وكانت هذه الفتاة بنت الكاهن الأكبر .

قال القدِّيس (جون كريسوستم) في كتـابـه عن القـدِّيس بولص : « مـاذا تقولين أيَّتهـا المرأة ؟ إنـك قـد أصبحت لا تملكين لـذاتـك بـدنـاً ، فهـل يبقى لـكِ مـالٌ تملكينه ؟ »[2] .

ثـانيـاً : المسيحيَّـة لا تحظِّر التزوُّج بـأكثر من واحـدة ، وليس في الإنجيل مـا يمنـع ذلـك ، بل في العهـد القـديم مـا يسمح بـه ، ووجـوب الاقتصـار على زوجـة واحـدة في المسيحيَّة ، حدث بعد مضي زمن من نشأتهـا على يـد رؤسـاء الـدِّين ، ولو شـاؤوا لكان تعدُّد الزَّوجات جائزاً عنـدهم ، أُسوة بـأنبيـاء بني إسرائيل وشيوخهم ، الـذين كان بوسع أحدهم أن يؤوي خمسمئة زوجة تحت سقف واحـد . ولكن رؤسـاء الكنيسـة القـدمـاء ، وجدوا الاكتفاء بزوجة واحدة ، فلم يعجزهم تأويل ما ورد في الكتـاب المقـدَّس ، حتّى صار التَّزوُّج بزوجة ثانية حراماً كما هو مشهور .

جاء في كتـاب (أكاذيب مـدنيتنـا) لمـاكس نوردو[3] : « أنَّ الإنسـان ليعيش في بلادنا المتمدينة في حالة منكرة من تعدُّد الزَّوجات على الرَّغم من التَّوحيد الذي يقضي به القانون ، فإنك لا تكاد تجد واحـداً من مئـة ألف شخص يستطيع وهو على فراش الموت أن يُقْسِم لك على أنه لم يختلف في حياته إلا إلى امرأة واحدة » .

---

(١) المثل الأعلى في الأنبياء ، ص : ١٦٢ و ١٦٣ .

(٢) الهلال والصَّليب ، ص : ٩٤ .

(٣) المرجع السَّابق ، ص : ١١٨ .

وما يسمّى في الغرب (الخدينة : Mistress) ، إسقاط لكرامة فتاتَيْن ، إحداهما امرأته الشَّرعيّة ، والأخرى تلك التي اتَّخذها صاحبة ، « فأما الأولى فهو بجهله واجباته الأدبيّة حيالها ، واتّخاذ صاحبة دونها إنَّما يهينها في كرامتها ، وأمّا الثَّانية فهو يهتك عرضها بين من يعرفون أمرها ، ثمّ إنها إذا بلغت من العمر سن الكبر ، أصبحت حالتها شرّاً كبيراً ، وإذا قضى لها سوء حظّها أن تلد منه أولاداً فإنَّها تصبح فريسة الأكدار والأحزان وقتئذ ، وموضوع احتقار العالمين لها »[1] .

ثالثاً : تقدُّم المرأة الغربيَّة في المجال العلمي لا ينسب إلى دينها ، بل إلى رجال الإصلاح الذين نبذوا تعاليم المسيحيَّة ظهريّاً ، أما دينها فيكره تعليمها ، قال بولص مخاطباً تيموثاوس : « لستُ آذنُ للمرأة أن تُعَلِّمَ ولا تتسلَّطَ على الرَّجل بل تكون في سكوتٍ ، لأنَّ آدم جُبِلَ أوّلاً ثمّ حوَّاء ، وآدم لم يُغْوَ لكن المرأة أُغويت فحصلت في التَّعدي .. » [رسالة بولص الرسول إلى ايموثاوس : ١٣/٢ و ١٤] ، لذلك .. عُقِد في فرنسة اجتماع سنة ١٥٨٦ م بحث شأن المرأة ، وما إذا كانت تعدُّ إنساناً أو لا تعدُّ إنساناً ، وبعد النِّقاش ، قرَّر المجتمعون أن المرأة إنسانٌ ولكنَّها مخلوقة لخدمة الرَّجل[2] .

وفي إنكلترة بقيت النِّساء حتى السنة ١٨٥٠ م غير معدودات من المواطنين ، وظلَّت المرأة حتى سنة ١٨٨٢ م وليس لها حقوق شخصيَّة ، فلا حقَّ لها بالتَّملُّك ، وإنَّما كانت

---

(١) يقول (جيبون) في الجزء الثَّاني من كتابه (سقوط الدَّولة الرُّومانيّة) :
« كان بين المسيحيّين في العصور الأولى عديد من الرِّجال والنِّساء جعلوا حياتهم وقفاً على العفاف !! وكان من أمر طهارتهم جميعاً أن العذارى كنّ يسمحن للقسوس بمضاجعتهنَّ في الفراش ، وكنَّ يزهين بصونهنَّ بين استعار العفاف ، واشتعال الطَّهارة » .
ثمَّ قال بعد ذلك : « كان رأي أولئك المسيحيين الأقدمين أن أول زواج يلائم دواعي الطَّبيعة والمجتمع ، ولكنهم كانوا يسمون ثاني زواج زنا شرعيّاً » ، (الهلال والصَّليب ، ص : ١١٤) .

(٢) مقارنة الأديان : ١٨٨/٣ .

المرأة ذائبة في أبيها وزوجها ، ولم تُسَوِّ جامعة أُكسفورد بين الطّالبات والطُّلاب في الحقوق (في الأندية واتِّحاد الطَّلبة) إلا بقرار صدر في ٢٦ تموز ١٩٦٤ م[(١)] .

وهكذا .. عدو المرأة هو النِّظام ، أو المجتمع ، أو المنهج .. الذي لم يعترف للمرأة بإنسانيَّتها ، ولا بكيانها شخصيّة مستقلّة ، ولا بكرامتها ، ذلك المجتمع الذي تدارس رجاله في يوم من الأيام : هل المرأة إنسان ؟ المجتمع الذي نظر إلى المرأة سلعةً تباع للرَّجل لتكون متعة لشهواته وغرائزه ، المجتمع الذي أنزلها لتعلم في كلِّ مجال ، دون مراعاة لطبيعتها وأُنوثتها ، المجتمع الذي ألحق المرأة بالرَّجل عند زواجها منه ، فيلحق اسمها به وبأُسرته ، دون أن تحتفظ بما يدلُّ على أُسرتها وكنيتها[(٢)] .

المرأة في الإسلام .. مودَّةٌ ، ورحمةٌ ، وسكنٌ ، ولباس الطمأنينة والهناءة ، وحصن الفضيلة ، ومنار العفاف .. وليست مصدراً للشَّر أو الآثام مطلقاً .

---

(١) صحيفة الأهرام : ١٩٦٤/٧/٢٧ م .

(٢) والطَّلاق اليوم في الغرب من أهون الأمور ، شائع وعادي ، وعندما يتمّ تقدّم بطاقات التَّهنئة للطَّرفين ، ومعدل الطَّلاق في أمريكة ٣٣٪ خلال الأعوام العشرة الماضية ، (الأسبوع العربي ، العدد : ٦٨١ ، ص : ٦٥) .

وجاء في صحيفة (تشرين) العربية السورية [الخميس ٣ المحرم ١٤١٦ هـ /١٩٩٥/٦/١ م العدد : ٦٢٤٣ ، ص ١٢] : « نيويورك : ذكرت دراسة أمريكية أن خلية الأسرة التقليدية شهدت تبدلاً في العمق سواء في الدُّول الغنية أو الفقيرة لعدة أسباب أبرزها الدور الاقتصادي المتزايد للمرأة وارتفاع نسب الطلاق والأُسر القائمة على أحد الأبوين فقط .

وقال التقرير الذي نشره معهد الدراسات السُّكانية أن عدد حالات الطلاق في الولايات المتحدة حوالي ٦٠ من كلِّ مئة زواج في ١٩٨٥ م ، أما في الدنمارك فبلغت نسبة الطلاق في التسعينات ٤٥ من كلِّ مئة زواج ، وفي فرنسة ٣٠٪ .

وخلال العقدين الأخيرين ارتفعت حالات الطلاق في الدول النامية حيث أن ربع النساء في الأربعين من العمر مطلقات ، وفي كل القارات ارتفع عدد الولادات خارج إطار الزواج ، وبلغت نسبة هذه الولادات ٣٠٪ في الولايات المتحدة ، وشكلت ثلث الولادات في شمال أوربة .

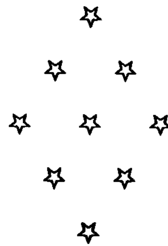
أمّا النساء فيعملن مدَّة أطول خارج المنزل من الرجال في عدد كبير من دول العالم ، ففي الدول النامية يعملن مدَّة أطول ٣٠٪ من مدة عمل الرجل ، وفي الدول الصناعية ٣٠٪ » .

وهي في المسيحيَّة .. باب الشَّيطان ، والأفعى ، والعقرب ، واللُّعاب الـذي يسيل من فم الأُفعوان .. ومصدر الشُّرور والآثام .

فَمَنْ ظلمها ؟!! ومَن عَدُوَّها ؟!!

إنَّه الإسقاط بكلِّ معانيه النَّفسيّة والواقعيّة .

يقول عزَّ وجلَّ في محكم التَّنزيل : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ☆ ادْخُلُوا أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُم تُحْبَرُونَ[1] ☆ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [الزُّخرف : ٤٣/٦٩ـ٧١] .



(١) تحبرون : تسرُّون سروراً عظيماً ظاهر الأثر ، وفي اللِّسان (حبر) : يُحْبَرون : ينعمون ويكرمون ، والْحَبْرَة في اللُّغة : كلُّ نعمةٍ حسنةٍ محسَّنة ، النِّعمة التَّامة .



الإسلام
دين للعرب فقط

يدَّعي (مور Muir) : « أنَّ فكرة عموم الرِّسالة جاءت فيما بعد ، وأنَّ هذه الفكرة على الرَّغم من كثرة الآيات والأحاديث التي تؤيِّدها ، لم يفكِّر فيها محمد نفسه ، وعلى فرض أنَّه فكَّر فيها ، فقد كان تفكيره تفكيراً غامضاً ، فإنَّ عالمه الذي كان يفكِّر فيه إنَّما كان بلاد العرب ، كما أنَّ هذا الدِّين الجديد لم يهيّأ إلاَّ لها ، وأنَّ محمداً لم يوجِّه دعوته منذ بُعِثَ إلى أن مات إلاَّ للعرب دون غيرهم ، وهكذا نرى أن نواة عالميَّة الإسلام قد غُرسَت ، ولكنَّها إذا كانت قد اختمرت ونمت بعد ذلك ، فإنَّما يرجع هذا إلى الظُّروف والأحوال أكثر منه إلى الخطط والمناهج[١] » .

وأوضح (جاك س . ريسلر) في كتابه : (الحضارة العربيَّة)[٢] أنَّ الإسلام للعرب فقط .

ويقول (غيتاني Caetani) : « لم يتخطَّ محمد بفكره حدود الجزيرة العربيَّة ليدعو أُمم العالم في ذلك الوقت إلى هذا الدِّين »[٣] .

---

(١) Muir. The Caliphate, P. 34-44.

(٢) ترجمة غنيم عبدون ، نشر الدَّار المصريَّة ، ص : ٢٧ . والمستشرق الهولندي (فنسنك) يعتنق هذا الرَّأي أيضاً ، انظر (الدَّعوة الإسلاميَّة دعوة عالميَّة) ، لمحمد الرَّاوي ، طبع : الدَّار العربيَّة .

(٣) Caetani: Annali del Islam vol. V.P323.

« وليس من الميسور أن تقرِّر ، على وجه الدِّقَّة ، ما إذا كان النَّبي نفسه قد استشعر أنَّه مدعو لمثل هذه الرِّسالة العالميَّة »[1] .

فالإسلام في رأيهم « **دين للعرب فقط** » ، وليس لغيرهم ، وفكرة عالميَّة الإسلام فكرة لاحقة ، وبهذا الرَّأي وقعوا عن قصد وعلم بالإسقاط . وهذا بيان ذلك ..

آيات القرآن الكريم ، وسيرة النَّبي ﷺ وأحاديثه الشَّريفة ، هي التي تحدِّد عموميَّة الدَّعوة الإسلاميَّة أو خصوصيَّتها .

وآيات القرآن الكريم ـ مصدر الإسلام الأوَّل ـ كلُّها تتَّجه ، وبوضوح تام ، نحو عموميَّة الدَّعوة :

﴿ إنْ هُوَ إلاَّ ذِكْرٌ لِلعَالَمِينَ ☆ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴾ [ص : ٨٧/٣٨و٨٨] .

﴿ تَبَارَكَ الَّذي نَزَّلَ الفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلعَالَمِينَ نَذِيراً ﴾ [الفرقان : ١/٢٥] .

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إنِّي رَسُولُ اللهِ إلَيْكُم جَمِيعاً ﴾ [الأعراف : ١٥٨/٧] .

﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ [التَّوبة : ٣٣/٩] .

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إلاَّ كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً ، وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ [سبأ : ٢٨/٣٤] .

هذه الآيات الدَّالَّة على عالميَّة الإسلام ، يقابلها أدلَّة على أنَّ ألفاظ القرآن الكريم واضحة محدَّدة ، فعندما ذكر الأنبياء والمرسلين حدَّد أنَّهم لأقوامهم فقط ، مثل :

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إلى قَوْمِهِ .. ﴾ [الأعراف : ٥٩/٧] .

---

(١) تاريخ الشُّعوب الإسلاميَّة ، ص : ٧٠ و ٧١ .

﴿ وَإلى مَدْيَنَ أَخَاهُم شُعَيْباً .. ﴾ [الأعراف : ٨٥/٧] .

﴿ وَإلى ثَمُودَ أَخَاهُم صَالِحاً ﴾ [الأعراف : ٧٣/٧] .

﴿ وَإلى عَادٍ أَخَاهُم هُوداً ﴾ [هود : ٥٠/١١] .

هذه الآيات واضحة ، إنَّ نوحاً ، وشعيباً ، وصالحاً ، وهوداً ، أُرسل كلٌّ منهم إلى (قومه) ، أمَّا محمد ﷺ ، فبوضوح إنَّه (للعالمين) ، فكيف فهم النَّصارى من فقه اللُّغة العربيَّة أنَّ كلمة (عالمين) تعني العرب فقط ؟!!

أمَّا سيرة النَّبي ﷺ وأحاديثه ، فقد ورد :

تنبَّأ ﷺ عند هجرته إلى المدينة ، وهو في أشدِّ ساعات الحرج والخطر ، بأنَّ سُراقة بن مالك سيلبس سِوارَيْ كسرى ونطاقه ، عندما قال له : كيف بك يا سراقة إذا سوِّرت بسوارَيْ كسرى ؟ قال سراقة : كسرى بن هرمز ؟ قال ﷺ : نعم[1] .

وتنبَّأ ﷺ لأُم حرام الرُّميصاء بنت ملحان ، زوجة عبادة بن الصَّامت ، أنَّها ستركب البحر عندما نام في بيتها ، ثمَّ استيقظ يضحك ، فقالت : ما أضحكك يا رسول الله ؟ فقال : « ناسٌ من أُمَّتي عُرِضوا عليَّ يركبون ثبج هذا البحر ، مثل الملوك على الأسِرَّة » ، قالت : يا رسول الله ادع الله أن يجعلني منهم ، قال ﷺ : « أنت معهم » .

ثمَّ نام فاستيقظ وهو يضحك ، فقال مثل ذلك ، فقالت : ادع الله أن يجعلني منهم ، قال ﷺ : « أنت من الأوَّلين » . فكانت أُمُّ حرام في فتح قبرص ، وماتت بها ، وكانت الثَّانية عبارة عن غزو القسطنطينيَّة[2] .

---

(١) الكامل في التَّاريخ : ٧٤/٢ ، البداية والنِّهاية : ١٨٥/٣ ، عيون الأثر : ١٨٢/١ ، السِّيرة النَّبويَّة : ٣٧٢/١ .

(٢) البداية والنِّهاية : ١٥٣/٧ .

وصيَّة النَّبي ﷺ لصحابته بأن يستوصوا بأهل مصر خيراً عندما قال : « إنَّ اللهَ سيفتح عليكم بعدي مصر ، فاستوصوا بقبطها خيراً ، فإنَّ لهم فيكم صهراً وذمَّة »(١) .

ومن أحاديثه ﷺ : « إنِّي بعثت رحمة وكافَّة ، فأدُّوا عنِّي يرحمكم الله »(٢) .

وقال لرسولَيْ باذان عامل اليمن من قبل كسرى : « إنَّ ديني وسلطاني سيبلغ ما بلغ ملك كسرى »(٣) .

فهل يطلبون تصريحاً أبلغ من هذا ؟!

ورسائل النَّبي ﷺ - بعد صلح الحديبية - إلى من كان حول جزيرة العرب من الحكَّام والملوك ، مثل نجاشي الحبشة ، وقيصر الرُّوم ، وكسرى الفرس ، والمقوقس حاكم مصر .. أليست أكبر شاهد على عموم الدَّعوة الإسلاميَّة ؟

أمّا المسيحيَّة :

فقد أُرسل يسوع إلى بني إسرائيل فقط ، جاء في إنجيل متَّى على لسان يسوع : « لم أُرسل إلاَّ إلى خراف بيت إسرائيل الضَّالَّة » [متّى : ٢٤/١٥] .

« هؤلاء الاثنا عشر أرسلهم يسوع وأوصاهم قائلاً : إلى طريق أُممٍ لا تمضوا ، وإلى مدينة للسَّامريِّين لا تدخلوا ، بل اذهبوا بالحريِّ إلى خراف بيت إسرائيل الضَّالَّة » [متّى : ٥/١٠ و٦] .

جاء في (ينابيع المسيحيَّة) : لم يكن الدِّين غير القومي معروفاً لدى عيسى ، وكان كل عمله خاصّاً ببني إسرائيل ، وظلَّ عمله بينهم كل زمن حياته ، إلاَّ أنَّنا قرأنا ما يناقض ذلك في إنجيل مَرْقُس ، حيث روي أنَّه قد قال لتلاميذه الأحد عشر ، عندما

---

(١) الطَّبري : ٢٢٨/٤ .

(٢) الطَّبري : ٦٤٥/٢ .

(٣) الكامل في التَّاريخ : ١٤٦/٢ .

جلسوا إلى اللحم : « اذهبوا إلى العالم أجمع وأكرزوا بالإنجيل للخليقة كلّها » [مرقس : ١٥/١٦] ، وأُنبئنا أنَّ ذلك حصل بعد قيامه من الموت ، لأنَّه قبل وفاته لم يفكِّر إلاَّ في عشيرته فقط ، وقد منحهم أيضاً القدرة على إتيان المعجزات : « يخرجون الشَّياطين باسمي ، ويتكلَّمون بألسنة جديدة ، يحملون حيَّاتٍ وإن شربوا شيئاً مميتاً لا يضرُّهم ، ويضعون أيديهم على المرضى فيبرؤون » [مرقس= ١٨/١٦] .

ترى إرساليات التَّبشير المسيحيَّة ، أنَّ الآيات الإنجيليَّة الماضية تخوِّلهم حقّاً يبرِّر استمرارهم في تبشيرهم في سائر الجهات ، إلاَّ أنَّه يظهر أنَّ هؤلاء المُرْسلين الحديثين لا يستطيعون إحداث المعجزات التي يجب أن يحدثها من يرسل لنشر الدِّين المسيحي ، ولعلَّ السَّبب في عدم قدرتهم على إحداث هذه المعجزات راجع إلى قول عيسى في الإنجيل : « وهذه الآيات تتبع المؤمنين » ، فمن المؤكَّد أنَّ مركزهم والحالة هذه ليست مما يشتهى أو يرغب فيه ، إذ كيف يمكن لقوم أن ينشروا الإيمان وهم ليسوا بمؤمنين[١] ؟

إنَّ الإحدى عشرة آية الختامية لإنجيل مرقس التي أخبرت عن قيام المسيح بعد الموت ، والمرسلين ومعجزاتهم ، والحكم المتوقَّع على غير المسيحيِّين ، ذلك الحكم غير اللائق وغير الخليق بنفس وديعة ، كنفس عيسى ، قد برهن على أنَّها حشو وإضافة مزيَّفة ، وليس لها وجود في التَّرجمة اللاتينيَّة للكتاب المقدَّس ، ولا في الأصول اليونانيَّة القديمة .

إن ناقلي الكتاب المقدَّس إلى اللُّغة الإنكليزيَّة الأوَّل في عهد جيمس الأوَّل[٢] ، وجدوه كذلك ، وأشاروا إلى ذلك في الهامش بملاحظة عن تلك الإحدى عشرة آية التي لم تكن موجودة في الأصل اللاتيني ، وتعلم ذلك جمعيَّة الكتاب المقدَّس البريطانيَّة علم

(١) ينابيع المسيحيَّة ، ص : ١٦٦ .

(٢) جيمس James ملك اسكوتلاندة .

اليقين ، ومع ذلك فهم لا يهتمّون بحذفها من كتابهم المقدّس ، ولا يجدون هناك حاجة لأن يضعوا ملاحظة على الهامش كما فعل المترجمون الإنكليز الأُول ، إنَّ تركهم للنَّاس يتخبَّطون في الظَّلام من هذه الوجهة ، موضوع يجب عليهم أن يعتبروه ويمنحوه عنايتهم ، ولو لخدمة الحقيقة وأداء الأمانة فقط[1] .

والجزء اللُّغزي في هذا الإسقاط : ما أُضيف إلى تعاليم يسوع فيما بعد ، وما (حُشِيَت) الأناجيل به على مرِّ العصور ، فما جاء في إنجيل مرقس [١٦/١٥] : « اذهبوا إلى العالم أجمع وأكرزوا بالإنجيل للخليقة كلِّها » ، ليس له وجود في التَّرجمة اللاتينيَّة للكتاب المقدَّس ، ولا في الأصول اليونانيَّة القديمة ، والأصل في المسيحيَّة : أُرسل يسوع إلى خراف بيت إسرائيل الضَّالَّة فقط ، ومن هنا جاء الإسقاط ، فاتُّهِم الإسلام أنَّه للعرب فقط .

قال تعالى في محكم التَّنزيل : ﴿ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِن ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُم شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُم عِندَ اللهِ أَتْقَاكُم إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [الحجرات : ٤٩/١٣] ، فالنَّاس ـ جميعاً ـ في نظر الإسلام سواسية كأسنان المشط ، ولا فضل لعربي على أعجمي ، ولا أبيض على أسود إلاَّ بالتَّقوى ، وهذه العموميَّة والمساواة بين النَّاس جميعاً ، كانتا من أهمِّ عوامل انتشار الإسلام بين شعوب الأرض .

☆

☆ ☆ ☆

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

(١) ينابيع المسيحيَّة ، ص : ١٦٧ و ١٦٨ .

الإسقاط
الثالث عشر

انتشر الإسلام بالسَّيف قهراً للشُّعوب

(إسقاط) يردِّده المبشِّرون والمستشرقون المتعصِّبون كثيراً ، ويردِّده كلّ مسيحي عندما يحاور مسلماً ، إنَّهم يقولون : انتشر الإسلام بالسَّيف ، وانتشرت المسيحيَّة بكسب القلوب ، بالمحبَّة ..

قال المنسنيور كولي : « لقدوضع محمد السَّيف في أيدي الذين اتَّبعوه ، وتساهل في أقدس قوانين الأخلاق ، ثمَّ سمح لأتباعه بالفجور والسَّلب ، ووعد الذين يهلكون في القتال بالاستمتاع باللَّذات ، وبعد قليل أصبحت آسية الصُّغرى وإفريقية فريسة له »[١] .

« يتحتَّم على المسلم أن يعلن العداوة على غير المسلمين حيث وجدهم ، لأنَّ محاربة غير المسلمين واجب ديني »[٢] .

« من الثَّابت أنَّ الإسلام لم يكن يصادف نجاحاً إلاَّ عندما كان يهدف إلى الغزو »[٣] .

---

(١) البحث عن الدِّين الحقيقي ، للمنسنيور كولي ، الصَّادر عن اتِّحاد مؤسَّسات التَّعليم المسيحي (باريز ١٩٢٨) .

(٢) تاريخ الشُّعوب الإسلاميَّة ، كارل بروكلمان ، ص : ٧٨ .

(٣) فردريك دينسون موريس ، في : The Religions of the World, P.28 (Cambridge 1852)

ويُرْجع كلٌّ من مــور Muir ، وغيتــاني Caetani : « ازديــاد عــدد المسلمين إلى الانتصارات العسكريَّة ، وإكراه النَّاس على الدَّعوة الموجودة في تعاليم الإسلام »[1] .

« وأخضع سيفُ الإسلام شعوبَ إفريقية وآسية شعباً بعد شعب »[2] .

« إنَّ تاريخ الإسلام كان سلسلة مخيفة من سفك الدِّماء والحروب والمذابح »[3] .

« في القرن السَّابع للميلاد برز في الشَّرق عدو جديد ، ذلك هو الإسلام الذي أُسس على القوَّة ، وقام على أشدِّ أنواع التعصُّب .. »[4] .

« وقـد أمر محمَّـد أتبـاعـه أن يحملـوا العـالم كلّـه على الإسـلام بـالسَّيف إذا اقتضت الضَّرورة »[5] .

« إنَّ هؤلاء العرب قـد فرضوا دينَهُم بـالقوَّة ، وقـالوا للنَّـاس : أَسْلِموا أو موتـوا ، بينما أَتباع المسيح ربحوا النُّفوس ببرِّهم وإحسانهم »[6] .

« إنَّ سيف محمد والقرآن هما أكثر أعداء الحضارة والحرِّيَّة »[7] .

« لم تدر الحروب الصَّليبيَّـة حول إنقـاذ كنيسـة القيـامـة فحسب ، بل دارت حول معرفة من الذي سينتصر على هذه الأرض ، مـذهب تعبُّـدي هو عـدو الحضـارة ، محبِّـذ

---

(1) الدَّعوة إلى الإسلام ، ص : ٤٦٩ ، عن : The Religion of the World P.82

(2) التَّبشير والاستعمار ، ص : ٤١ ، عن : Islam and Mission, 43

(3) لطفي ليفونيان : Levonian, 9

(4) البحث عن الدِّين الحقيقي ، المنسنيور كولي ، ط : ١٩٢٨ ، ص : ٢٢٠ .

(5) تـاريـخ محـاضرات ج . إيـزاك للشَّرق الأدنى ، ص : ٣٢ ، والكتـاب يـدرّسـه التَّبشير لطـلاَّب الصَّف الخامس في المدارس الفرنسيَّة في بيروت .

(6) تاريخ فرنسة ، هـ . غيومان ، وُف . لوستير ، ص : ٨٠-٨٢ ، وكان يُدَرَّس في لبنان .

(7) أرنست رينان ، انظر : الاستشراق ، إدوارد سعيد ، ص : ١٦٨ .

باطِّراد للجهل ـ وذلك هو الإسلام طبعاً ـ وللطُّغيان وللعبوديَّة ، أو مذهب تعبُّدي أدَّى إلى أن يوقظ في البشر المعاصرين عبقريَّة الزَّمن ، وألغى العبوديَّة الدِّينيَّة »[1] .

من أكبر التُّهم ـ والإسقاطات ـ البعيدة عن الحقيقة التي حاول الجهلة والمتعصِّبون الحاقدون إلصاقها بالإسلام ، هي أنَّه انتشر بالسَّيف ، أي بقهر النَّاس واضطهادهم ، لكن هذه التُّهمة الباطلة سرعان ما تذوب أمام شمس الحقيقة ، ونور العقل ، ومنهج العلم ، بتحيصها ودراستها على ضوء أمرين اثنين ، هما :

١ ـ شرعة الإسلام وموقفها من غير المسلمين .

٢ ـ موقف المسلمين العملي وسلوكهم مع غير المسلمين .

أما بالنسبة للشَّريعة الإسلاميَّة مع غير المسلمين ، فموقفها صريح وواضح جداً ، ففي القرآن الكريم : ﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الغَيِّ ﴾ [البقرة : ٢٥٦/٢] ، ﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَبِّكُم فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ [الكهف : ٢٩/١٨] ، ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوا فَإِنَّمَا عَلَيكَ البَلاَغُ الْمُبِينُ ﴾ [النَّحل : ٧٢/١٦] ، فأيَّة حرِّيَّة للعقيدة بعد هذا الدُّستور الخالد ، فالعالم كلُّه حتّى اليوم لم يستطع مع كلِّ نظريّاته التَّقدُّميَّة أن يصل إلى حرِّيَّة الفكر التي نصَّ عليها القرآن الكريم ، فاضطهاد المعارضين لفكر الدَّولة يجري في دول عديدة ، وبأشكال مختلفة ، وبمبرِّرات متعدِّدة ، تحت ستار العلمانيَّة يُحَارَب الإسلام ، ويترك غيره من يهوديَّة ومسيحيَّة .

أمَّا بالنسبة لموقف المسلمين العملي وسلوكهم خلال فتوحاتهم ، فإنَّ تاريخهم بريء من أيَّة حادثة فيها ضغط ـ أو اضطهاد ـ على إنسان لإجباره على اعتناق الإسلام ، وما كانت الفتوح واستخدام السَّيف إلاَّ لإزالة أنظمة من الحكم من أكاسرة وقياصرة وملوك وقفوا في وجه الدَّعوة للإسلام ، فاستخدم المسلمون القوَّة لإزالة هذه العقبات

(١) الاستشراق ، إدوارد سعيد ، ص : ١٨٦ـ١٨٧ ، عن : (شاتو بريان ، المؤلَّفات : ١٠١١/٢ـ١٠٥٢) ، وشاتو بريان (١٧٦٨ ـ ١٨٤٨ م) وزير خارجية فرنسة قبيل فرض الحصار البحري على الجزائر سنة ١٨٢٧ م .

لتأمين حرِّيَّة نشر الإسلام ، وليس لإجبار النَّاس على اعتناقه ، بل لإيصاله إليهم وتركهم بعد معرفتهم بالإسلام أحراراً في أن يعتنقوه أو يبقوا على ديانتهم ، وأكبر شاهد على صحَّة ما نقول ، وجود مئات الألوف من اليهود والنَّصارى في بلاد المسلمين ، مع حرِّيَّتهم في إقامة عباداتهم ومعابدهم وصلبانهم وأعيادهم منذ أربعة عشر قرناً وحتّى اليوم ، وأعظم وثيقة تاريخيَّة تثبت ذلك العهد الذي أعطاه عمر بن الخطَّاب لأهل القدس (العهدة العمريَّة) ، والتي جاء فيها :

« بسم الله الرَّحمن الرَّحيم ، هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء(١) من الأمان ، أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم ، ولكنائسهم وصلبانهم ، وسقيمها وبريئها وسائر ملَّتها ، أنَّه لا تُسْكن كنائسهم ولا تُهْدَم ، ولا ينتقص منها ولا من حيِّزها ، ولا من صليبهم ، ولا من شيءٍ من أموالهم ، ولا يُكْرَهون على دينهم ، ولا يضارّ أحد منهم ..

وعلى ما في هذا الكتاب عهد الله وذمَّة رسوله ، وذمَّة الخلفاء ، وذمَّة المؤمنين .

شهد على ذلك خالد بن الوليد ، وعمرو بن العاص ، وعبد الرَّحمن بن عوف ، ومعاوية بن أبي سفيان ، وكتب وحضر سنة خمس عشرة »(٢) .

وعلى مضمون (العهدة العمريَّة) وقَّع أبو عبيدة بن الجرَّاح معاهدة مع أهل دمشق ، ووقَّع عمرو بن العاص معاهدة مع أهل مصر ..

هذا .. وها هو الإسلام نرى ملايين أفراده اليوم في بلاد مثل أندونيسية ، والفيليبين ، وماليزيا ، وجنوبي خط الاستواء في القارَّة الإفريقيَّة ، لم يصل إليهم سيف ، أو جيش فاتح ! .

---

(١) إيلياء : اسم مدينة بيت المقدس ، ومعناه : بيت الله ، (معجم البلدان : ٢٩٣/١) .

(٢) الطَّبري : ٦٠٩/٣ ، واليعقوبي : ١٦٧/٢ .

أما إذا أردنا أن نسمع عن عقيدة حاول أصحابها أن يجبروا النَّاس على اعتناقها بالسَّيف وبالحرق وبالتَّعذيب ، وتقطيع الأوصال ، وبألوان لم يعرف تاريخ البشريَّة مثيلاً لها بالاضطهاد ، وباستخدام أدوات ووسائل لم تخطر على بال أعتى المجرمين في العالم ، فلنعد إلى ما سجَّله التَّاريخ عن أعمال محاكم التَّفتيش ، وبخاصَّة في إسبانية ، وعن أعمال رجالها ببقايا المسلمين الذين نشروا في ربوع الأندلس التَّسامح والحضارة والرُّقي والعلوم .. نشروا رسالة الإخاء الإنساني حين كان الحكم بأيديهم ، ثمَّ حين تحوَّل الحكم إلى يد الإسبان ، ومن وَرَائهم الكنيسة والبابويَّة ، نالهم من الاضطهاد ما تقشعرُّ لهوله الأبدان ، ويخجل منه اليوم أحفاد أولئك الطُّغاة المتعصِّبون ، فضلاً عن اضطهادات أُخرى بين الكاثوليك والبروتستانت ، وبين النَّصارى واليهود ، والأمثلة التَّاريخيَّة على كلِّ ذلك تملأ الصَّفحات ، ولكن فقدت الصَّليبيَّة الحياء - من يومها - فعمدت إلى اتِّهام الإسلام والمسلمين بما كان فيها .

أَنَسِيَت الصَّليبيَّة أنَّ مجمع نيقية سنة ٣٢٥ م ، أمر بتحريق الكتب التي تخالف رأيه ، وتتبعها في كلِّ مكان ، وحثَّ النَّاس على تحريم قراءتها ، فهو بهذا منع أن يصل النَّاس إلى علم بأيِّ أمر من الأمور التي تخالف رأيه ؟ فأين حُرِّيَّة المعتقد ؟!

والأب توماس دو طوركادا Tomas de Torquemada الرَّاهب الدُّومينيكاني ، الذي عُيِّن رئيساً لمحكمة التَّفتيش في إسبانية عام ١٤٨٢ م ، وكان أعطى أشدَّ الأوامر وأقساها وأصرمها لمحاكم التَّفتيش في طول البلاد الإسبانيّة وعرضها ، بإحراق عشرات الأُلوف من الأبرياء الذين لم يكن لهم ذنب من الذُّنوب سوى أنَّهم أبوا ورفضوا أن يصبؤوا عن معتقدهم الإسلامي ، وينصاعوا إلى المسيحيِّين .

والأب بليدا Bleda أكثر تصوُّراً وتخيُّلاً ، إذ إنَّه كان يعتقد استحالة التَّفريق بين الذين اعتنقوا النَّصرانيَّة عن عقيدة ورغبة وحبٍّ بدين المسيح ، وبين الذين اعتنقوا النَّصرانيَّة عن خيفة ورهبة ، وإنَّه من الأنسب والأصلح قطع دابرهم ، واستئصال شأفتهم عن بكرة أبيهم ، وأن لا يستثنى منهم أحد ، ويذبحوا كالأنعام ، وبذلك يكون

يوم القيـامـة أسهل على الله تفريـق وتميِّز من تنصَّر عن قلب سليم فيـدخلـه الجنَّـة ودار النَّعيم ، ومن كان تنصُّره خوفاً ورهبةً ، فيلقيه في نار الجحيم مخلَّداً أبد الآبدين .

ومع أنَّ هذا القرار قد صُدِّق من رجال الدِّين الإسبـان جميعـاً ، إلاَّ أنَّ الحكومـة لم تَرَ من الحكمة أن تضعه موضع التَّنفيـذ على هـذه الطَّريقـة ، وبهـذه الصَّرامـة والشِّـدَّة ، ولكنَّها أمرت المسلمين بمغادرة إسبانية إلى المغرب ، وأوعزت إلى سكَّـان البلـدان والقرى التي كان على المسلمين أن يمرُّوا عليهـا أن يقضوا عليهم بجميـع الـوسـائـل والـذَّرائـع لكي لا يبقى منهم بـاقيـة ، وهكـذا لم يصل إلى السَّـاحل من هؤلاء الملايين الثَّـلاثـة الـذين رفضوا التَّنصُّر بمحاكم التَّفتيش ، إلاَّ حوالي مئة الألف فقط .

الإسلام انتشر بالسَّيف ، عبارة يهدف الغربيُّون من ورائها إلى وصم الإسلام بالبعد عن حرِّيَّة الفكر ، وعن الرَّحمة والإنسانيَّة .

التَّوراة نصَّت على حمل السَّيف ، بهـدف القتل للقتـل ، والقتـل للفسـاد ، والقتـل للعلو في الأرض بغير الحق ، جاء ـ على سبيل المثال ـ في سفر التثنيـة : [٢٠/١٠-١٦] : « حين تقرب من مدينة لكي تحـاربهـا استـدعهـا إلى الصُّلح ، فـإن أجـابتـك إلى الصُّلح وفتحت لـك فكل الشَّعب الموجـود فيهـا يكـون لـك للتَّسخير ويُستعبَـدُ لَـكَ ، وإن لم تسالمك بل عملت معك حرباً فحاصرها ، وإذا دفعها الرَّب إلهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحدِّ السَّيف ، وأمَّـا النِّسـاء والأطفـال والبهـائم وكل مـا في المـدينـة كلُّ غنيمتهـا فتغتنمها لنفسك وتأكُلُ غنيمـة أعـدائـك التي أعطـاك الرَّب إلهـك ، هكـذا تفعل بجميع المـدن البعيـدة منـك جـدّاً التي ليست من مـدن هؤلاء الأمم هنـا ، وأمَّـا مـدن هـؤلاء الشُّعوب التي يعطيك الرَّب إلهك نصيباً فلا تستبق منها نسمة ما .. » .

والإنجيل نصَّ على حمل السَّيف :

« لا تظنُّوا أنِّي جئتُ لأُلقي سلاماً على الأرض ، ما جئت لأُلقي سلاماً بل سيفاً » [متّى : ١٠/٣٤] .

« ومن ليس له سيف فليبع ثوبه ويشتر سيفاً » [لوقا : ٣٧/٢٢] .

والإسلام حمل السَّيف ، فليس الخلاف بين الشَّرائع في حمل السَّيف ، وإنَّما الخلاف في الهدف من حمله ، والأسباب التي حُمِلَ بسببها ، والأُسلوب الذي حُمِلَ به ، والهدف المرجو من حمله : ﴿ ..فإِنِ ٱعْتَزَلُوكُم فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللهُ لَكُمْ عَلَيْهِم سَبِيلاً ﴾ [النِّساء : ٩٠/٤] .

﴿ لاَ يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُم في الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِن دِيَارِكُم أَن تَبَرُّوهُم وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ☆ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ في الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُم وَمَن يَتَوَلَّهُم فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [الممتحنة : ٨/٦٠و٩] .

لقد عرف العالم في الفتوحات الإسلاميَّة الإنسانيَّة ـ الحضاريَّة ، وجه الصَّواب في استعمال السَّيف ، ويكفيه أنَّه لم يكره شعباً ، ولا فرداً ، على اعتناقه ، وجعل من المعاهدات التي وقَّعها مع الشُّعوب وثائق مقدَّسة ، لا قصاصات ورق .

ولا يحقُّ للنَّصارى ، ولا لغيرهم ، أن يتَّهموا الإسلام بأنَّه دين العنف والقتل وسفك الدِّماء ، وفي كتابهم (المقدَّس) من النُّصوص ما يفحمهم ويدينهم .

أمَّا أعمالهم وتاريخهم ، ففاحم أسود ، ونتن آسن ، فالسَّيف هو الرَّفيق الأوحد للصَّليب أينما سار وحلَّ ومشى وارتحل ، وهذه نماذج منها :

شجَّع ثيودوسيوس الأوَّل تحطيم المعابد الوثنيَّة ، وحرَّم إقامة الشَّعائر القديمة ، وقام المسيحيُّون بقيادة الرُّهبان بعمليَّة تحطيم المعابد وتخريبها ، وفي سنة ٣٩١ م صدر مرسوم إمبراطوري لقاضي القضاة ، بالعمل على تنفيذ أمر تحريم زيارة الأماكن الوثنيَّة المقدَّسة ، وبعد ذلك بقليل صدرت الأوامر المشابهة لحكَّام مصر ، فبدأ أُسقف الإسكندريَّة اضطهاداً واسعاً تؤيِّده القوَّة العسكريَّة الرُّومانيَّة .

إنَّ انتشار المسيحيَّة ابتداءً من أواخر القرن الرَّابع الميلادي ، إنَّما أخذ صورة أخرى غير الصُّورة القديمة ، إذ بدأت الكنيسة التي تعضدها سلطة الدَّولة المادِّيَّة حينئذ ، تفرض الدِّين بالقوَّة ، وبمختلف الوسائل كما تشير جميع دلائل التَّاريخ وأحداثه[١] .

شارلمان ، حارب السّكسونيِّين ثلاثاً وثلاثين سنة ، بغاية العنف ، وذروة الوحشيَّة ، حتَّى أخضعهم وحوَّلهم قسراً ـ بالسَّيف ـ إلى الدّيانة المسيحيَّة[٢] ، على يد القدِّيس ليودجر Liudger ، وويليهاد Willehad .

وأُكرهت مصر على انتحال النَّصرانيَّة[٣] .

ونشر الملك كنوت Cnut المسيحيَّة في الدانيارك بالقوَّة والإرهاب[٤] .

وفُرِضَت المسيحيَّة في روسية على يد جماعة اسمها :

« إخوان السَّيف[٥] : Brethers of The Sword » .

وعلى يد فلاديمير دوق كييف (٩٨٥ ـ ١٠١٥ م) الذي يضرب به المثل في الوحشيَّة والعنف والشَّهوانيَّة .. وبلغ من حمقه وطيشه أن أمر بتعميد أهل دوقية روسية كلّهم مرّة واحدة في مياه نهر الدنيبر[٦] .

وفي النَّروج ، أمر الملك أُولاف ترايجفيسون بذبح الَّذين أبَوْا الدُّخول في المسيحيَّة ، أو بتقطيع أيديهم وأرجلهم ، أو بنفيهم وتشريدهم .

---

(١) حضارة الإسلام ، جلال مظهر ، ص : ١٥٨ .

(٢) تاريخ أُوربة في العصور الوسطى ، فيشر : ٦١/١ .

(٣) حضارة العرب ، ص : ٣٣٦ .

(٤) الدّعوة إلى الإسلام ، ص : ٣٠ .

(٥) الدّعوة إلى الإسلام ، ص : ٣٠ .

(٦) تاريخ أُوربة في العصور الوسطى ، ص : ٤٠٧ .

أمّا في أمريكا ، فقد حلّت حرب الإبادة ضدّ الهنود الحمر ، وقُضي فعلاً على حضارة الأنتيل ، والمايا ، والآزتيك ، والأنكا .

نشرت مجلّـــة : Cuba International ، عـــدد تمـوز ١٩٧٢ ، تحت عنـوان : La Historiy ، الصّفحة : ٦ ، صورة لمبشّر بيـده صليب ، وزعيم هنـدي أحمر مقيّـد إلى سـاريـة ، وقـد غُطّي حتّى منتصفـه بحـزم الحطب والقش لحرقـه ، أمّـا المبشّر فرافـع الصّليب في وجهه يدعوه إلى المسيحيّة قبل إحراقه !!

وماذا تقول عن الكشوف الجغرافية الأُوربيّة ؟

لقـد ظهرت قسوة الأُوربيّين ووحشيّتهم وتعصّبهم منـذ أوّل يوم نزلـوا فيـه أراضي إفريقية وآسية .

إنّها كشوف جغرافيّة أُوربيّة ، ومـا هي في حقيقتهـا إلاّ امتـداد لوحشيّـة الحروب الصّليبيّة ، وفي جوهرها حركة تبشيريّة ، واستمرار لمحـاكم التّفتيش ، ودليل ذلـك : بقي البرتغاليّون ـ مثلاً ـ نحو مئتي سنة في إفريقية الشّماليّـة ، لم يتركوا بعـدهـا أثراً من آثـار الحضارة النّافعة ، ولم يعقبوا بعدهم غير ذكرى الخراب الـذي حلّ على أيـديهم بـالمعـاهـد والمعابد الإسلاميّة ، ولم يزالوا حيثما نزلوا يخرّبون وينهبون ، وما حـدث من الـدّمـار لم يكن في إفريقيـــة فحسب ، بـــل حـــلّ في كل بقعـــة وصلهـــا المبشّرون الصّليبيّـــون المستعمرون[1] .

وعلى الرّغم من هـذا كلّـه ، يقول (خليـل خـالـد أفنـدي)[2] في كتـابـه (الهلال والصّليب) :

---

(١) الإسلام في إفريقية الشّرقية ، ليندن هاديس .

(٢) خليل خالد أفندي ، كاتب عثماني ، أُستاذ اللّغة التركيّة في جامعة كمبردج ، وصـاحب التـأليف المشهورة في الدّفاع عن الشّرق والإسلام ، ولد خليل خالد أفندي في أنقرة سنة ١٢٨٧ هـ ، (انظر مقدّمـة الشّيخ عبد العزيز جاويش لكتاب (الهلال والصّليب) طبعة الهداية ـ القاهرة سنة ١٣٢٨ هـ/١٩١٠ م) .

« يقولون إنَّ الإسلام ما قام إلاَّ بقائم السَّيف ، ولا امتدَّ رواقه إلاَّ فوق الدِّماء التي أسالها ، ولا اعتنقته القلوب حتَّى خشيته الرِّقاب ، ذلك رأي كبارهم ، وما الجمهور فيه بمرتاب ، بل هو يأخذه أخذاً دون بحث ، ويقول به وهو غير كظيم .

كثر ذكر السَّيف في صحفهم وخطاباتهم ، وقالوا : إنَّ الإسلام ما انتشر إلاَّ به .. وكأنِّي بقسِّيس منهم يقول لصاحبه وهو ينصح له : قل لقد كان المسلمون يدخلون المسيحيِّين في دينهم بالسَّيف ، فاذكر السَّيف كلما خطبت ، واذكر السَّيف أينما احتفلت ، ولكي تؤيِّد قولك وتعزِّز حجَّتك ، اقتضب من آيات القرآن بعضها ، وترجمها للسَّامعين لتريهم كيف يأمر الإسلام باضطهاد من ليسوا على مذهبه ، فلقد رأيتُ كثيراً من أعضاء البرلمان وغيرهم من رجال الكنيسة يتوخَّون ذلك المنهج في كلِّ حادثة من حوادث الشَّرق ، ونحن جديرون أن نقلِّدهم ونتَّبع سنَّتهم ، والغاية تبرِّر الوسائل ، فإذا تصدَّى لك من المسلمين نفرٌ لتكذيبك واتِّهامك بأنَّك متعمِّد تشويه الحقائق الإسلاميَّة مخطئ في نقل الآيات القرآنيَّة ، مفترٍ على محمد ودينه ، فلا تأبه به ، ولا تعر مطاعنه لفتة منك ، وكيف تهتم بقول شرقي مسلم عريق في الهمجيَّة ، أو تأبه بما يعارضك به ذلك الأخرق المستطار ، وأنت في جمهور المسيحيِّين الذين يؤمنون بقولك ، ويؤمِّنون عليه ببساطة ، ويبجِّلونك من أجل طعنك في دين محمد ، ذلك الدِّين القذر المقوت ؟.. استمع لقولي واعمل بوصيَّتي ، فإنك بالغ قصدك على كل حال »[1] .

هذا نزر يسير من دجلهم وافتراءاتهم وأُسلوبهم وإسقاطهم ، فصليبيَّتهم الحاقدة أوصلتهم إلى ما هو أبعد من هذا ، يقول (أرنست رينان) : « إنَّ الشَّرط الجوهري

---

(١) الهلال والصَّليب ، خليل خالد أفندي ، ص : ٦٤ وما بعدها ، طبع في مطبعة الهداية في القاهرة ، سنة : ١٣٢٨ هـ/١٩١٠ م ، نظر فيه وأجازه وقدَّم له : الشَّيخ عبد العزيز جاويش ، عرَّبه عن الإنكليزيَّة : إبراهيم رمزي أفندي .

لنشر الحضارة الأوربيَّة ، هو زوال الإسلام ، وستظلُّ الحرب قائمة في هـذا المضار ، ولن تنتهي إلاَّ عندما يموت آخر ولد في ذرِّيَّة إسماعيل بؤساً ، أو عندما يـدحره الإرهـاب ، فيتقهقر حتّى قلب الصَّحراء » .

وستبقى الحقيقـة ثـابتـة تصرخ في وجـه المفترين ، بتســامح الإسـلام وتعصُّب المسيحيَّة ، « وبأن تاريخ الأمم النَّصرانيّة ، وأكثر من هذا ، تاريخ الكنيسة بـالـذات ، مضرَّج بالدِّماء وملطَّخ ، ولربما أكثر تضرُّجاً ووحشيَّـة من أي شعب وثني آخر من العـالم القديم »[1] .

« ليت شعري ، هل أوجـدت الكنيسـة وأحـدثت في إسبـانيـة حضـارة ذات بـالٍ تستحق الذِّكر ؟!

إنَّهم المسلمـون العرب ، هم الـذين غيَّروا وبـدَّلـوا وقلبـوا وحـوَّلـوا هـذه البـلاد إلى حدائق ورياض وبساتين وجنان ، وهم في الوقت نفسـه مشتغلون بجميع أنواع العلوم ، وشتّى الفنون ، مكوِّنين وموجدين تمدُّناً وعمراناً وحضارة حقيقيَّة .

إن أُمماً ذوات حضارات زاهية باهرة قد أُزيلت وأُبيدت ومُحِيَت ببساطـة وسهولـة من عالم الوجود ، وكلُّ ذلك باسم الدِّين النَّصراني ! »[2] .

في جزيرة هيسبانيولا Hispaniola (هاييتي والدُّومينيكان) قائد الحملة الإسبانيَّـة (هرناندو كورتيس) ومعاونه (دييغو فلاسكيز) أبديا من ضروب الوحشيَّة مـا ينـدى له جبين الإنسانيَّة على مدى تاريخ البشريَّة تفنُّنهما في تعذيب سكَّان المناطق التي كانوا يمرُّون بهـا ، من قطـع رؤوس الهنـود الحمر ، وفـقء عيــونهم ، وصبِّ الـزَّيت المغلي ، والرَّصاص المذاب في جراحهم ، أو بإحراقهم أحياء على مرأى من الآخرين من السُّكَّـان

---

(١) تبدُّد أوهام قسِّيس ، ص : ٤٠٢ .

(٢) تبدُّد أوهام قسِّيس ، ص : ٣٩٢ .

الأصليّين ، بهدف إجبارهم على الاعتراف بالأماكن الّتي يوجد بها الذّهب أو إكراههم على اتّباع الدّين المسيحي[1] .

فهبط عدد السُّكّان الهنود في المكسيك من ٢٥ مليون نسمة في عام ١٥١٩ م ، إلى ٦,٣ مليون نسمة في عام ١٥٤٨ م ، وإلى مليون وسبعين ألف نسمة فقط بحلول عام ١٦٠٥ م .

بينما انخفض العدد في بيرو من سبعة ملايين نسمة إلى ١,٨ مليون نسمة في عام ١٥٨٠ م .

مع مصادرة الأراضي لمنفعة الإسبان خاصّة ، باستثناء الأراضي الموقوفة للكنيسة .

وفي الفيليبين : رفض المسلمون عام ١٥٧١ م التّنصير على يد المستعمرين الإسبان ، فسمّى الحاكم الإسباني (ليكاسي) المسلمين (الموروس) أو (الموركسيُّون) ، أي المسلمون الذين رفضوا التّنصير في إسبانية بعد سقوط غرناطة ١٤٩٢ م ، فأقام محاكم التّفتيش ، وتتبّع المسلمين لتنصيرهم .

وفي عام ١٥٩٥ م استُرِقّ المسلمون لأنّهم مسلمون ، وهُدِمَت المساجد .

وفي عام ١٩٠٠ م اشترت أمريكة الفيليبين من الإسبان بمئتي مليون دولار ، ورافق ذلك تنصير وإكراه ، فدام القتال بين المسلمين والمستعمر الجديد ٣٨ عاماً ، استخدمت أمريكة في حربها ضدّ المسلمين الجراثيم ، فمات مئات الأُلوف .

والجدير بالذّكر أنّ الإسبان فرضوا على البلدان المستعمَرَة في الأمريكتين تكاليف الاستعمار ، شأنهم في ذلك شأن البرتغاليّين في الهند ، وغيرهم من الأُوربيّين الآخرين في استعمار إفريقية .

---

(١) ما الذي تغيّر في الحضارة الغربيّة الاستراتيجيّة أمْ التّكتيك ؟ موسى الزعبي ، ص : ٦٤ ، دار الشّاوي ، دمشق .

وقبل أن نورد شهادات منصفة ، من قلم علماء كبار ، رفضوا البهتان والكذب ، نذكّر أنّ يوحنا ملك إنكلترا عرض على محمَّد النَّاصر[(١)] أن يحميه ضدّ البابا ، مقابل جزية سنويَّة ، واعتناق الإسلام هو وشعبه ، ولكن محمَّد النَّاصر رفض هذا العرض ، لأنَّ أريحيّته أبت عليه استغلال الضَّائقة السِّياسيَّة الإنكليزيَّة لحملهم على اعتناق الإسلام[(٢)] .

ومن الشَّهادات المنصفة :

يقول (ڤانسان مونتيه)[(٣)] : « من أسباب إسلامي ، تسامح الإسلام تجاه أبناء الأديان الأخرى ، وعلى العكس كما يقول سوليناك Soliynac : داء الجهاد العصبي المسيحي » .

وروبرتسون يقول : « إنّ أتباع محمد [ﷺ] هم الأُمّة الوحيدة التي جمعت بين التَّحمُّس في الدِّين والتَّسامح فيه ، أي إنّها مع تمسُّكها بدينها لم تعرف إكراه غيرها على قبوله »[(٤)] .

أما غوستاف لوبون فيقول : « إنَّ القوَّة لم تكن عاملاً في انتشار القرآن ، فقد ترَك العربُ المغلوبين أحراراً في أديانهم ، فإذا حدث أن اعتنق بعض الأقوام النَّصرانيَّة الإسلام ، واتَّخذوا العربيَّة لغة لهم ، فذلك لما رَأَوْه من عدل العرب الغالبين ، ممَّا لم يَرَوْا مثله من سادتهم السَّابقين ، ولما كان عليه الإسلام من السُّهولة التي لم يعرفوها من قبل .

ولم ينتشر الإسلام بالسَّيف ، بل انتشر بالدَّعوة وحدها ، وبالدَّعوة وحدها اعتنقت الإسلامَ الشُّعوب[(٥)] .

---

(١) محمد بن يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن الموحِّدي ، النَّاصر لدين الله (ت ١٢١٣ م) ، من سلاطين دولة الموحِّدين ، كان له المغرب الأقصى وتونس والأندلس ، (الأعلام : ١٤٥/٧) .

(٢) تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين ، يوسف أشباخ : ١٥٣/٢ .

(٣) أُستاذ اللُّغة العربيَّة والتَّاريخ الإسلامي بجامعة باريس ، ثمَّ أصبح رئيس مؤسَّسة الدِّراسات الإسلاميَّة في مدينة (داكار) ، وهو مؤلِّف كتاب : الإرهاب الصُّهيوني ، وكتاب الإسلام في إفريقية السَّوداء ، وكتاب : مفاتيح الفكر العربي .

(٤) حاضر العالم الإسلامي : ١٠٤/١ .

(٥) حضارة العرب ، ص : ١٦٢ .

والكونت (هنري دي كاستري) في كتابه : الإسلام خواطر وسوانح ، بعد وصفه الفتوحات الإسلاميَّة ، وانتشار الإسلام بين الشُّعوب ، وصف المسلمين بقوله : « فلم يقتلوا أُمَّة أبت الإسلام »[1] .

أمّا المستشرقة الإيطاليَّة (لورا ڤيشيا ڤاغليري) فتقول عن شعوب البلدان التي فتحها المسلمون : « مُنِحَت تلك الشُّعوب حرِّيَّة الاحتفاظ بأديانها القديمة .. فليس من الغلو أن نصرَّ على أنَّ الإسلام لم يَكتَفِ بالدَّعوة إلى التَّسامح الدِّيني ، بل تجاوز ذلك ليجعل التَّسامح جزءاً من شريعته الدِّينيَّة »[2] .

لما سبق ، يقول (فردريك نيتشه)[3] : « حارب الصَّليبيُّون شيئاً كان الأجدر بهم أن ينبطحوا بِذُلٍّ أمامه ، حضارة يمكن لقرننا التَّاسع عشر أن يعتقد أنَّه فقير جداً ، ومتأخِّر جداً ، بالمقارنة معها »[4] .

« إنَّ تاريخ الكنيسة يحمل صفحات حمراء دامية في أمريكة وإفريقية وآسية وأُوربة »[5] .

ويقول (نيتشه) عن المبشِّرين ورجال الكهنوت المسيحيِّين : « لا يخطئون فقط في كلِّ جملة يقولونها ، بل يكذبون ، أي إنَّهم لم يعودوا أحراراً في أن يكذبوا ببراءة وبسبب الجهل »[6] .

تسامح الإسلام معروف قديماً وحديثاً :

---

(١) ص : ٣٥ ، ترجمة أحمد فتحي زغلول .

(٢) دفاع عن الإسلام ، ص : ٣٤ و ٣٥ .

(٣) فردريك نيتشه Nietzsche : (١٨٤٤ ـ ١٩٠٠) فيلسوف ألماني ، قال : إنَّ الإنسان الأعلى هدف يجب الوصول إليه .

(٤) عدو المسيح ، لنيتشه ، الفقرة : ٦٠ .

(٥) المرجع السَّابق ، الفقرة : ٣٦ .

(٦) المرجع السَّابق ، الفقرة : ٣٨ .

﴿ لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾ [البقرة : ٢٥٦/٢] .

﴿ ٱدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [النَّحل : ١٢٥/١٦] .

﴿ أَفَأَنْتَ تُكْرِهَ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس : ٩٩/١٠] .

وتعصُّب المسيحيَّة معروف قديماً منذ أيَّام قسطنطين ، وحديثاً في تبشيرهم الذي رافق الكشوف الجغرافيَّة ، والاستعمار الأُوربي ، مروراً بالحروب الصَّليبيَّة ، ومحاكم التَّفتيش ، وحتَّى يومنا الحاضر[(١)] .

ولكنه الإسقاط ـ رمتني بدائها وانسلَّت ـ مكراً وخداعاً ، كذباً وتشويهاً .

ونذكر بأنَّ سلطة الإسلام السِّياسيَّة تلاشت ، وعلى الرَّغم من كلِّ الجهود والأموال التي تقدِّمها الكنيسة لتنصير المسلمين ، فالإسلام هو الدِّين الأوَّل انتشاراً في العالم اليوم ، وإنَّنا نقول : لا نظنّ أنَّ المؤثِّرات التي تحرِّكها الفاتيكان قادرة على صدِّ الإسلام عن الانتشار في أُوربة ذاتها ، فضلاً عن بقاع العالم الأُخرى .

وبعد .. إنَّ الدِّماء الَّتي سفكت في أُوربة لنشر المسيحيَّة أيَّام شارلمان ، مع الَّتي سفكت في إفريقية ، وآسية ، وأمريكة شمالها وجنوبها ، أغزر بكثير ، وبما لا يقارن مع الدِّماء الَّتي سفكت في الفتح الإسلامي[(٢)] .

والدِّماء الَّتي سفكت من قبل الأُوربيِّين ، سفكت لفرض عقيدة قهراً ، والدِّماء الَّتي سفكت في الفتح الإسلامي ، سفكت لتحقيق ﴿ لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾ .

وشتَّان بين الموقفَيْن .

---

(١) نكتفي بهذا القدر الموجز ، لأنَّ كتابنا (تحرير لا استعمار) أعطى الموضوع جُلَّ حقِّه .

(٢) باعتراف المستشرق الألماني (روديغر براون) ، انظر كتاب : الحوار دائماً ـ حوار مع مستشرق ، طبع دار الفكر ١٩٩٤ .

الإسقاط
الرابع عشر

نشر الإسلام الرَّقيق وشجَّع عليه

قال كارل بروكلمان : « ولم يتعرَّض محمد لنظام الرَّقيق بأكثر مَّما تعرَّضت الكنيسة المسيحيَّة الأولى لهذا الأساس الذي قامت عليه الحياة الاقتصاديَّة عند القدماء »[(١)] .

ويعيب وليم مور على الإسلام أنَّه لم يلغِ الرِّقَّ ، فالرِّقُّ « معضلة إسلاميَّة »[(٢)] .

قال أعداء الإسلام ـ عن تعصُّب أو جهل ، أو كليهما معاً ـ إنَّ الإسلام نشر الرَّقيق وشجَّع عليه ، وعكس ذلك تماماً هو الصَّحيح ، إنَّهم مهرة في قلب الأُمور رأساً على عقب ، وحذَّق في تصوير الباطل حقّاً ، والجريمة إحساناً ، إنَّه (الإسقاط) ، والدَّليل على ذلك التَّالي :

كان الرَّقيق معترفاً به قبل الإسلام عند العرب وغيرهم ، وكان من الأُمور الطَّبيعيَّة والعاديَّة ، وكان الرَّقيق يشكِّل جزءاً من ثروات عدد كبير من الأغنياء ، ومصادره متعدِّدة ، أهمها من أسرى الحروب ، ومن أسواق النّخاسة ، أي بالشِّراء ، وجاء الإسلام فلم يشرِّع تحريم الرِّق مباشرة لعدَّة أُمور ، أهمها : أنَّ إعتاق الآلاف من الرَّقيق الفقراء مباشرة ، يهدِّد حياتهم بالخطر والموت ، كما يهدد المجتمع بهزَّة اقتصاديَّة واجتماعيَّة خطيرة ، لذلك .. رسم الإسلام الطَّريق السَّليم لتحرير الأرقَّاء تدريجيّاً ، واعتبر الرِّق أمراً

(١) تاريخ الشُّعوب الإسلاميَّة ، ص : ٨١ .
(٢) انظر (حقوق الإنسان) للشَّيخ محمد الغزالي ، ص : ١٢٤ .

عـارضـاً ، فشجَّع بمختلف وسـائـل التَّشجيـع على تحرير رقـاب الرَّقيـق ، حيث جعـل تحريرهم من أكبر وأعظم ما يتقرَّب به الإنسان إلى ربِّه ، وفتح أبواب الإعتـاق ، ووضع الخطَّة التي تؤول إلى تحرير جميع الأرقَّـاء ، وأمر خلال هـذه المرحلـة أن يعـامل الرَّقيق أحسن معاملة ، أي كأفراد الأُسرة لباساً وطعاماً ومعاملة .

هذا .. وليس في القرآن الكريم آيةٌ واحدة تحثُّ على الرِّق أو تحضُّ عليه ، وكذلك الحديث النَّبوي الشَّريف .

لقد حرَّم الإسلام الرِّقَّ جميعـاً ، ولم يبح منـه إلاَّ مـا هو مبـاح إلى يومنـا هـذا[1] ، وفحوى ذلك أنَّه قد صنع خير مـا يطلب منـه أن يصنع ، وأنَّ الأُمم الإنسـانيَّـة لم تـأتِ بجديد في هذه المسألة بعد الذي تقدَّم به الإسلام قبل ألف ونيِّف وأربعمئة عام[2] .

وضع الإسلام مبدأين مهمَّيْن لإلغاء الرِّق همـا : تضييق المـدخل ، وتوسيع المخرَج ، أو ضَيَّقَ موارده ، وأفسح مصـارفـه ، أو يمكن القـول : إنَّـه سـدَّ منـابـع الرِّق ، ووسَّـع مصارف العتق .

جـاء الإسلام وللرِّق وسـائـل أو مـداخـل كثيرة ، كالبيـع ، والمقـامرة ، والنَّهب ، والسَّطو ، ووفاء الدَّيْن ، والحروب ، والقرصنة .. فألغى جميع هـذه المـداخل ، ولم يُبق منها إلاَّ مدخلاً واحداً ، وقد ضيَّقه حتَّى لم يعـد ينفـذ منـه إلى الرِّق إلاَّ القليل النَّـادر أشدَّ النُّدرة ، وذلك المدخل هو الجهاد في سبيل الله لردِّ اعتـداء يقوم بـه غير المسلمين .. فلا استرقاق إلاَّ في حرب شرعيَّة ، مراعى فيها أن تكون مسبوقـة بـاعتـداء غير المسلمين عليهم ، « فالَّذي أباحه الإسلام من الرِّق ، مباح في أُمم الحضارة التي تعاهـدت على منع الرَّقيق مند القرن الثَّـامن عشر إلى الآن .. لأنَّ هـذه الأُمم التي اتَّفقت على معـاهـدات الرِّق ، تبيح الأسر واستبقاء الأسرى ، أو التَّعويض عنهم بالفداء والغرامة .. » .

---

(١) من الحرب فقط ، وذلك (معاملة بـالمثل) ، لقـد كان غير المسلمين يستحلُّون استرقـاق المسلمين ، فكان لا بد أن يعاملهم المسلمون بالمثل .

(٢) حقائق الإسلام ، ص : ٢١٨ و ٢١٩ .

« وهذا هو كلُّ ما أباحه الإسلام من الرِّقِّ أو من الأسر على التَّعبير الصَّحيح »[1] ، ناهيك عن توسيع المخرج ، أو توسيع المصارف . عندما فتح الأبواب ليعيد الحرِّيَّة إلى الرَّقيق ، بالعتق (تحرير الرِّقاب) ، وبالْمُكَاتَبَة[2] ، الَّتي يلتزم السَّيِّد فيها بالقبول ، وبمساعدة العبد على الوفاء بما التزم .

يقول المرحوم العقّاد : « إنَّ مسألة الرِّق تصلح للدِّعاية الواسعة بين النَّاشئة الإسلاميَّة والأُمم الإفريقيَّة التي تتحرَّر من قيودها ، وتتلمَّس سبيلها إلى عقيدة مُثْلى ، وحضارة تصلح لها ، وتخاطبها بما يقنعها ، ولكنَّها دعاية للإسلام وليست بالدِّعاية التي يحارب بها الإسلام .. فإذا انعكست الآية ، وذهب بها سماسرة المادِّيَّة والتَّبشير مذهب الحملة الشَّعواء على الإسلام ، بسمع المسلمين ومشهدهم ، فمن ذا يلام على ذلك غير أُولئك المسلمين »[3] .

« لقد ظلَّ صوت الإسلام يزمجر حتَّى استجاب له العالم بعد عدَّة قرون من تشريعه الحكيم ، وإنَّ زوال الرِّق هو إحدى الهدايا التي قدَّمها الإسلام للإنسانيَّة »[4] .

وإذا أردنا أن نعرف الحقيقة ، ونعلم مَنْ نشر الرَّقيق وشجَّع عليه ، فلنعد إلى تاريخ أُوربة في مختلف عصورها ، حتَّى في عصر ما تسمِّيه النَّهضة ، حين حدثت الكشوف الجغرافيَّة ، والمراسيم البابويَّة الصادرة بشأن الاسترقاق ، إنَّها أوسمة من الخزي والعار على جبين الأُوربيِّين ، من برتغاليِّين وإسبان وإنكليز وفرنسيِّين وهولنديِّين .. وما فعله هؤلاء - بتشجيع ملوكهم ، ومباركة كنيستهم ورجالها - مع شعوب إفريقية

---

(١) حقائق الإسلام وأباطيل خصومه ، ص : ٢١٩ .

(٢) المكاتبة : عقد بين السَّيِّد والعبد لإعادة الحرِّيَّة نظير دفعه مالاً لسيِّده ، ويرى بعض الفقهاء أنَّ المكاتبة واجبة ، وبعدها يُعطى العبد حقَّ التِّجارة والعمل ، وحقَّ التَّملُّك ، وحقَّ العمل لنفسه ، بل يتحرَّر لكسب سداد الأقساط الَّتي تسمَّى (نجوماً) .

(٣) ما يُقال عن الإسلام ، ص : ١٩٤ .

(٤) مقارنة الأديان : ٢٢٣/٣ .

يندى له الجبين خجلاً وحياءً ، ولا يتصوَّر إنسان ما فعله أولئك لاسترقاق أبناء القارَّة الإفريقيَّة ، وكتاب الجذور (The Roots) ، الذي وضعه الكاتب الزِّنجي (إليكس هيلي Alex Haley) صورة صادقة وأمينة لما فعله نخَّاسو أُوربة في تلك الحقبة من التَّاريخ ، وليت أحفاد أولئك خجلوا ممَّا فعل أجدادهم ، لكنَّهم تعلَّموا فنوناً جديدة في استرقاق الشُّعوب ، فبعد أن كان الرِّق عند أجدادهم بشكل فردي ، ويشمل جماعات محدودة ، جعله أحفادهم على نطاق واسع ، فاسترقُّوا الشُّعوب الضَّعيفة ، وفعلوا بأبنائها الأفاعيل ، فما فعلته فرنسة في الجزائر ، وبريطانية في الهند ، وإيطالية في ليبيا ، وهولندة في أندونيسية .. وما تمارسه أمريكة اليوم بعصا غطرستها وهيمنتها وقوَّتها في العالم ، صفحات من التَّاريخ الأسود غير المشرِّف .

لقد رأت المسيحيَّة منذ سنيها الأُولى أنَّ الأرواح المؤمنة بيسوع تتساوى في مملكته السَّماويَّة ، أمَّا الجسد فقد خُلِق لهذه الدُّنيا ، وعليه أن يخضع لكلِّ ذي سلطان عليه ، وأن يتحمَّل ما يلقى من ألم وعذاب كما تحمَّل جسد المسيح ، « وبهذا التَّفريق استطاعت المسيحيَّة أن تجمع بين النَّقيضَيْن ، فخصَّت المساواة بالرُّوح ورفعتها عن مستوى الأرض ، وجعلت النَّاس متساوين أمام الله ، وخصَّت الخضوع بالجسد ، ودعت إلى الصَّبر والتَّسامح ليهون الخضوع على المؤمنين ، ومن أجل أن توفِّق بين النَّقيضَيْن ، وتبرِّر سلطة الحاكم على المحكومين ، اعتبرت السُّلطة ترتيباً من الله ، يجب الخضوع لها خضوعاً مطلقاً ، فمن يقاومها يدينه الله لأنَّها من أمره ، وهذا ما أعلنه القدِّيس بولس في رسالته لأهل رومة : « لتخضع كلُّ نفسٍ للسَّلاطين الفائقة ، لأنَّه ليس سلطان إلاَّ من الله ، والسَّلاطين الكائنة هي مرتَّبة من الله ، حتَّى إنَّ من يقاوم السُّلطان يقاوم ترتيب الله ، والمقاومون سيُدانون »[1] .

---

(١) رسالة بولس إلى أهل رومية : ١٣/١ و ٢ .

وعلى أساس هذا المبدأ القائم على الخضوع ، دعا هذا القدّيس العبيد إلى طاعة سادتهم ، وحضّهم على تسخير أجسادهم لخدمتهم والإخلاص لهم ، لا بالمظهر الّذي يرضي النّاس ، بل بالقلب الّذي يرضي الله ، ونراه يخاطبهم بقوله : « أيُّها العبيد ، أطيعوا سادتكم حسب الجسد ، بخوف ورعدة ، في بساطة قلوبكم كما للمسيح ، لا بخدمة العين كمن يرضي النّاس ، بل كعبيد للمسيح ، عاملين بمشيئة الله من القلب ، خادمين بنيّة صالحة كما للرّب ، ليس للنّاس »[١] ، ويوصي القدّيس بطرس[٢] العبيد ألاّ يقصّروا في إخلاصهم على الصّالحين الرّحماء من ساداتهم ، بل عليهم أن يُخلصوا في خدمة القُساة منهم ، وفي ذلك يقول : « كونوا خاضعين ، بكلّ هيبة ، ليس للصّالحين ، بل للعنفاء أيضاً »[٣] .

وعلى مبدأ الخضوع المبني على ترتيب هو من أمر الله ، أقامت الكنيسة شرعيّة الرّق ، واتّبع آباء الكنيسة ، من بعد ، هذا المبدأ ، وساروا على نهجه ، فأباحوا الاسترقاق ، واستند القدّيس (سيريانوس)[٤] ، والبابا (جريجوار الأكبر)[٥] على أقوال القديسَيْن بولس وبطرس ، وصرّحا بضرورة الإبقاء على الرّق ، ونصح القدّيس (إيزيدوروس)[٦] العبيد بأن لا يطمعوا في التّحرُّر من الرّق ، ولو أراده أسيادهم ، بل لا يسوغ للعبد أن يتشوّق إلى الحرّيّة ، فإنّه ببقائه على الرّق يحاسب يوم القيامة حساباً يسيراً ، لأنّه يكون قد خدم مولاه الذي في السّماء ، ومولاه الذي في الأرض ، وبمثل ذلك نادى (بوسويه)[٧] في مواعظه .

(١) رسالة بطرس إلى أهل أفسس : ٦/٥ ـ ٧ .

(٢) أحد حواريي المسيح والمقدّم فيهم ، كان اسمه (سيمون) فسمّاه المسيح (بطرساً) Pierre أي الحجر . قتله نيرون سنة ٦٤ م ، ودفنت رفاته في الفاتيكان بروما .

(٣) رسالة بطرس الأولى : ١٨/٢ .

(٤) Cyprianus ولد في أوائل القرن الثّالث للميلاد في مدينة قرطاجة ، من أكابر آباء الكنيسة .

(٥) Grégoire Le Grand (٤٥٠ ـ ٦٠٤ م) من أشهر باباوات رومة .

(٦) القدّيس Isédor : (٣٧٠ ـ ٤٥٠ م) اشتهر بسعة علمه ، ودوّن آراءه في ألفي رسالة .

(٧) Bossuet (١٦٢٧ ـ ١٧٠٤ م) من رجال الدّين والأدب في فرنسة ، اشتهر بمواعظه وخطبه .

وقد حاول القدّيس أُوغسطين[1] ، ومن بعده القدّيس توما الإكويني[2] التّوفيق بين المسيحيّة والأفلاطونيّة ، فذهبا إلى أنّ الله خصّ بعض النّاس بالرِّقّ ليكونوا محكومين ، وخصّ آخرين بالحرِّيَّة ليكونوا حاكمين ، فالإنسانيّة جسم كبير ، وكلّ فرد هو عضو منه ، له عمله ووظيفته ، وعليه أن يقوم بعمله ، ويؤدِّي وظيفته بأمانة وإخلاص ... »[3] .

وفي ١٤٥٥ م صدر مرسوم بابوي يقرِّر سيادة النَّصارى على الكفَّار ، وأقرَّ هذا المرسوم استرقاق الزُّنوج والهنود الحمر ، وصاحَبَهُ لعدَّة قرون دعاية واسعة أشرفت عليها الكنيسة والأوساط المسيحيَّة ، مفادها أنَّ الاسترقاق هو سبيل خلاص الرَّقيق الذين غضب الله عليهم ، فالرِّق في التَّصوُّر المسيحي لعنة من الله ، وبدخولهم في الرِّقّ يدخلون مملكة الله ، وأفهمت أُوربة النَّصرانيَّة الرَّقيق أنَّ الرِّقّ خلاص لأرواحهم فقط ، أمَّا أجسادهم فتبقى في الرِّقّ ، وهذه الدِّعاية الواسعة الَّتي أشرفت عليها الكنيسة ، استندت إلى أقوال الباباوات والقدِّيسين ، وإلى إنجيل متَّى : ٢٩/٢٥ : « لأنَّ كلَّ من له يُعطى فيزداد ومن ليس له فالَّذي عنده يؤخذ منه ، والعبد البطَّال اطرحوه إلى الظُّلمة الخارجيَّة ، هناك يكون البكاء وصرير الأسنان » .

فالمرسوم البابوي الصَّادر سنة ١٤٥٥ م ، اعتبر غير النَّصارى كفَّاراً ينبغي إذلالهم واسترقاقهم ، وبهذه الرُّوح عامل الأُوربيّون الأفارقة والهنود الحمر ، وبهذه النَّظرة ، نظرة السَّيِّد للعبد ، جرى قنص الأفارقة باسم المسيح ، وتمَّ نقلهم وبيعهم في أُوربة

---

(١) Augustin : (٣٥٤ ـ ٤٣٠ م) أُسقف إفريقية ، تبع هواه في شبابه واعتنق مذهب ماني ، ثمَّ ارتدَّ بفضل أُمّه مونيكا والقدّيس امبروسيوس ، أشهر آباء الكنيسة الغربيَّة ، خطيب ولاهوتي وفيلسوف وكاتب .

(٢) St. Thomas d Aquin : (١٢٢٥ ـ ١٢٧٤ م) حجَّة الكنيسة في اللاهوت والفلسفة المدرسيَّة .

(٣) انظر (الرِّق ماضيه وحاضره) د . عبد السَّلام التِّرمانيني ، ص : ٣٠ ـ ٣٢ .

وأمريكة ، وعلى الرَّغم من تعميدهم وإدخالهم في المسيحيَّة غصباً وإكراهاً ، فإنَّ عبوديَّتهم ظلَّت قائمة[1] .

مهَّد البرتغاليُّون منذ أوائل القرن السَّادس عشر الطَّريق لنقل أُلوف من بني البشر المستَرَقِّين من إفريقية إلى أمريكة .

اقتناص العبيد والاتِّجار بهم :

وصلت طلائع هذه التِّجارة من العبيد الأفارقة إلى جزر الهند الغربيَّة سنة ١٥٠١ م ، أي بعد تسع سنوات فقط ، على أوَّل رحلة قام بها كولومبس . ونتيجة ارتفاع الطَّلب عليهم من قبل المستعمرين الإسبان والبرتغاليِّين للعمل في مزارع السُّكَّر ، بدأ العرش الإسباني يبيع الإجازات (Asientos) للحصول على العبيد من إفريقية ، وبيعهم في أمريكة ، وفي عام ١٥٩٢ م دفع شخص يدعى (غومز رينال) قرابة مليون دوقة ، مقابل منحه إجازة تسمح له شحن ٤٥٠٠ من العبيد كل عام ، ولمدَّة تسع سنوات ، أي مقابل عدد إجمالي يصل إلى ٣٨٢٥٠ من العبيد .

أما العدد الذي استقرَّ به المقام في الأمريكتين فما زال موضع جدل بين المؤرِّخين وآخر الدِّراسات تقول : إنَّ العدد الإجمالي يصل إلى ١٢ مليون من العبيد ، ولما كانت أهوال الرِّحلة وخسائرها تساوي تقريباً أربعة أضعاف العدد الذي تمَّ أسره بالأصل في قلب إفريقية ، أو أربعة أضعاف العدد الذي وصل إلى الأمريكتين ، فإنَّ العدد الإجمالي يقفز إلى ٤٨ مليون نسمة ، اقتلعوا جميعاً من إفريقية كالطَّرائد الوحشيَّة ، وكلهم تقريباً في ريعان طاقاتهم الإنتاجيَّة .

وارتفعت الخسائر والوفيات في صفوف العبيد إلى ٣٦ مليون إصابة عند القنص

---

(١) الاستعمار والتَّنصير في إفريقية السَّوداء ، عبد العزيز الكحلوت ، ص : ٤٩ وما بعدها .

والمسير إلى السَّاحل مع الانتظار الطويل في المحطَّات وبالحشد الوَحشي والحرارة الخانقة والغذاء الرَّديء خلال عبورهم المحيط إلى أمريكة .

أمَّا وجبة الغذاء (المثاليَّة) الوحيدة في كلِّ أربع وعشرين ساعة ، فقد تـألَّفت من الذرة والماء ، وكان هؤلاء الزُّنوج يتعرَّضون لِلْجَلْد والكَيِّ بقضبـان الحـديـد الملتهبـة إذا رفضـوا تنـاول الطَّعـام لإجبـارهم على الأكل أيضــاً ، وتفشَّت الأوبئــة في ظـلِّ تلـك الظُّروف الوحشيَّة الصَّعبة ، وكان يُلقَى بالمرضى منهم في مياه البحر ، وهم أحياء خوفاً من انتقـال العـدوى ، وفي بعض الأحيـان ، كان هؤلاء الـزُّنـوج يعمـدون إلى الانتحـار الجماعي بإلقاء أنفسهم من السَّفينة للخلاص من تعرُّضهم لهذه التَّعاسات والآلام الَّتي كانوا يقاسونها ، ثمَّ أصبح ذلك الإجراء في غاية الشُّيوع ، ممَّا استـدعى تثبيت الشِّبـاك حول جسم السَّفينة الخشبي منعاً للإقدام على الانتحار[١] .

لقد استمر الاتِّجار بالإنسان والعبوديَّة القذرة أربعة قرون[٢] .

وأوَّل حملــة إنكليزيَّــة نقلت الأُلـوف من الرَّقيــق من (غينيــة) إلى المستعمرات الإسبانيَّة كانت في سنة ١٥٦٢ م برئاسة النَّخَّـاس الشَّهير (جون هوكنز) ، وذلـك أيَّـام الملكــة إليزابيت الأولى ملكــة إنكلترة ، وحــاميـــة حمى المسيحيِّين ، ومن السُّفن التي استعملهـا هـذا النَّخَّـاس لنقـل الرَّقيـق ثـلاث ، اسم إحـداهـا (سليمـان) ، والثَّــانيــة (يسوع) ، والثَّالثـة (يوحنـا المعمـدان) ، وفي تلـك إشـارة إلى أنَّ عملهم إذ ذاك عمل مبرور[٣] .

---

(١) ما الَّذي تغيَّر في الحضارة الغربيَّة .. ص : ٨٢ .

(٢) كان أهمّ المراكـز لتَّجميـع الرَّقيـق جـزيرة (جـوريـه) الـواقعـة على مرمى البصر من (داكار) عـاصمـة السَّنغال وما زالت قائمة فيها تلك الدُّور الَّتي كان يُجمع فيها العبيـد وهم مقيَّـدون في سلاسل مثبتـة في جدران الغرف الَّتي كان يكدَّس فيها العبيد وقد رُصَّ بعضهم إلى بعض .

(٣) الهلال والصَّليب ، ص : ١٣٨ .

وفي عـام ١٧٠١ م أجبرت فرنسـة إسبـانيـة على التّنـازل لهـا عن حقّ نقل الرّقيق ، وبذلك أسّست فرنسة الشّركة المعروفة بالجمعيَّة الفرنسيَّة الغينيَّة .

وفي عام ١٧١٣ م انتقل مركز التّجارة العظيمـة ـ تجـارة الرَّقيق ـ من قطر مسيحي إلى آخر ، فقـد اغتصبت إنكلترة من فرنســة حـق احتكار نقـل الرَّقيـق إلى أمريكـة ، واستطاعت إنكلترة بمضي الزَّمن أن تحفظ لرعاياها حقَّ إمـداد النَّـاس بمـا يريـدون من الرَّقيق ، وافتخرت جلالة الملكة (حنا) في خطاب ألقته على البرلمـان الإنكليزي بـأنَّهـا نجحت في الحصول على سوق عظيمة لتجارة الرَّقيق ، ينتفع بها رعاياهم وحدهم[(١)] .

كلُّ ذلك وتبكيت الضَّمير مفقود ، وسببه : « أنّـه لا يحسن بنـا أن ننسى أنَّ أُولئـك العبيد قد أُدخلوا إلى ديننا المعزّي »[(٢)] ، لقد مَنُّوا على العبيد باعتناق المسيحيَّـة ، وهـذا يكفي ، فهي دين العزاء والسَّلوى !.

« فللّه درُّ المسيحيَّـة ومـا أنبغت ، إنَّـه من السَّهل على أهلهـا أن يلتمسوا الحجَّـة إذا أعوزتهم الضَّرورة إليها ، ولو كان العذر في ذاتـه أقبح من الـذَّنب »[(٣)] ، ولـذلـك قيل : **« اتَّجـه المستعمرون إلى استعبـاد جسـد الإفريقي ، أمَّـا المنصِّرون فقـد استهـدفـوا روحه »**[(٤)] .

وحين حطَّ المستعمرون في إفريقية بادروا ببنـاء الكنـائس الجميلـة ، وصوَّر المسيح زنجيّاً ، والعذراء زنجيَّة ، بملامح إفريقيَّة محليَّـة ، ونحتت تمـاثيل للعـذراء أو المسيح بـاللَّون الأسود ، وبـالمـلامـح الـزنجيَّـة ، وكان المنصِّرون يمثِّلون طـلائـع الاستعمار وعيـونـه وقـواه الخفيَّة والمرئيَّة .. فحين يقيم المنصِّرون الكنائس الجميلة وسـط الحـدائق الخضراء المحـاطـة

---

(١) الهلال والصّليب ، ص : ١٣٩ .

(٢) القول للمسيو (والون) في كتابه (الرّق عند الأقدمين) ، انظر : الهلال والصّليب ، ص : ١٤٥ .

(٣) الهلال والصّليب ، ص : ١٤٥ .

(٤) الاستعمار والتّنصير .. عن : Cristianity in Africa Missionaries and Change Published

بـالأشجـار البـاسقـة ، فـإنَّهم لا يقصـدون بـذلـك خـدمـة الرَّب ، وإنَّما خـدمـة القُوَى الاستعماريَّة .

يقول تومـاس هـودجكين Thomas Hodgkin : لـوأنَّ مـواطنـاً من تمبـوكتـو زار أوكسفـورد في القرن الرَّابـع عشر ، لشعر وكأنَّــه في بلـــده على الرَّغم من الاختـــلاف في المناخين الفكريين الإسلامي والمسيحي ، ولو زارها في القرن السَّادس عشر لوجد عـدَّة نقـاط مشتركـة بين جـامعتي المـدينتين ، وبحلول القرن التَّـاسع عشر تتَّسع الهوَّة وتزداد عمقاً بينهما » .

لقـد اتَّهم الأُوربيُّون إفريقيـة بـالتَّـوحش وسفـك الـدِّمـاء والتَّخلُّف ، في العصـور الحديثة ، ولم يكن هذا الاتِّهام إلاَّ محاولة أُوربيَّة لتوفير الأسـاس المنطقي ، شعوريّـاً أو لاشعوريّاً ، لتبرير الاسترقاق لملايين الإفريقيِّين ، وتنفيـذ المشروع التَّبشيري ، لتنصير (البرابرة الملحـــدين وتمـــدينهم) وتقسيم إفريقيـــة إلى عشرات المستعمرات ، واستغـلال الطَّـاقـات البشريَّـة والموارد الطَّبيعيَّـة فيهـا لكن العبـارة التي كتبهـا مـؤرِّخ بريطـاني معاصر ، المبيَّنة أعلاه تفضح زيف هذه المدرسة الفكريَّة ، مدرسة (أنهار الدِّماء وجبال الجماجم)[1] .

والحـديث عن الاسترقـاق بـاسم المسيح يطول ، وعن القنص الآدمي بـاسم بـولس بطرس يطول ، وما خلا التَّـاريخ من أُوربِّي منصف متحرِّر جريء ، ليصف معـاملـة الإسلام للرَّقيق ، قـال (فـان دنبرغ) : « لقـد وُضعت للرَّقيق في الإسلام قواعـد كثيرة تدلُّ على ما كان ينطوي عليه محمد [ﷺ] وأتباعه من الشُّعور الإنساني النَّبيل ، ففيهـا

(١) ما الَّذي تغيَّر في الحضارة الغربيَّة .. ص : ٧٥ .

نجد من محامد الإسلام ما يناقض كلَّ المناقضة الأساليب الَّتي كانت تتَّخذها إلى عهد قريب[1] شعوب تدَّعي أنَّها تسير في طليعة الحضارة »[2] .

الإسلام دين العتق لا الرِّق .

والمسيحيَّة دين : « أيُّها العبيد ، أطيعوا سادتكم حسب الجسد ، بخوف ورعدة .. » وفيها كما جاء في إنجيل لوقا : ٤٧/١٢ : « أمَّا ذلك العبد الذي[3] يعلم إرادة سيِّده ولا يستعد ولا يفعل بحسب إرادته فيُضْرَب كثيراً » ، وفي الإسلام : من يضرب عبده أو يلطمه فلا تكفير لذنبه حتَّى تُحرَّر رقبته ، مع وصيَّة سابقة على لسان رسول الله ﷺ : « أطعموا الرَّقيق ممَّا تطعمون ، وألبسوه ممَّا تلبسون ، ولا تكلِّفوه ما لا يطيق » .

وفي الإسلام : ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُم وَفِي الرِّقَابِ .. ﴾ [التَّوبة : ٦٠/٩] أي في تحرير رقاب الأرقَّاء ، وذلك بشرائهم وعتقهم : ﴿ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُم إِنْ عَلِمْتُم فِيهِم خَيْراً وَآتُوهُم مِن مَالِ اللهِ الَّذِي آتَاكُمْ ﴾ [النُّور : ٣٣/٢٤] ، أي الذين يطلبون المكاتبة لتحرير أنفسهم من الرِّقِّ بدفع مبلغ من المال : ﴿ فَكَاتِبُوهُم ﴾ وأعينوهم على حرِّيَّتهم ﴿ وَآتُوهُم مِن مَالِ اللهِ الَّذِي آتَاكُمْ ﴾ .

بينما المتصفِّح للأناجيل ـ والتَّوراة أيضاً ـ لن يجد فيها آية أو عبارة واحدة يكون المراد منها استنكار الرِّق ، يقول باتريس لاروك في كتابه عن (الرِّق في النَّصرانيَّة) في

---

(١) منعت الدانيمارك تجارة الرَّقيق سنة ١٧٩٢ م ، وألغت هولندة والسُّويد تجارة الرَّقيق سنة ١٨١٤ م ، ثمَّ تبعتها بقيَّة الدُّول .

(٢) تاريخ الإسلام : ١٩١/١ .

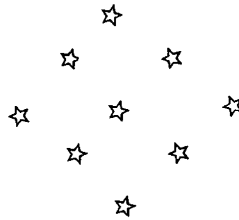
(٣) (الذي) اسم الموصول المستعمل للعبد هنا ، فهو الذي تقوله الإنكليز للحيوان أو الجماد ، لغير العاقل ؟!!

الصَّفحة السَّادسة : « إنَّك لا تجد في الإنجيل إشارة من بولص أو بطرس ، وهما عمدة المفسِّرين للإنجيل ، يحثَّان فيها السَّادة على تحرير الأرقَّاء » .

وبضدِّها تتميَّز الأشياء ؟!!.

إنَّ ما جاء في الأناجيل ، وما وعاه التَّاريخ من أخبار الكنيسة وقدِّيسيها ، لم يزدنا إلا اعتقاداً بأنَّها لم تعمل عملاً في سبيل تحرير الرِّقاب ، لذلك لم نعجب من أُولئك المسيحيِّين الَّذين ألفوا تجارة الرَّقيق الرَّابحة ، فلما وجدوا أنَّها كسدت في أُوربة نزلوا على إفريقية ، فباعوا في أهلها واشتروا أحقاباً طويلة .

إنَّه (الإسقاط) ، رمتني بدائها وانسلَّت .





نظام الطَّبقات في الإسلام

أخـذ المبشِّرون آيتَيْن من القرآن الكريم ، وزعمـوا أنَّ الإسـلام يعترف بنظـام الطَّبقات :

﴿ وَاللهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ .. ﴾ [النَّحل : ١٦/٧١] .

﴿ وَرَفَعْنَـا بَعْضَهُمْ فَـوْقَ بَعْضٍ دَرَجَـاتٍ لِيَتَّخِـذَ بَعْضُهُمْ بَعْضـاً سُخْرِيَّـاً ﴾ [الزُّخرف : ٤٣/٣٢] .

وقبل أن نوضِّح المعنى المراد من هـاتين الآيتين الكريمتين ، نقـول : عرفت أُوربـة العصور الوسطى نظـام الطَّبقـات في مجتمعهـا ، لقـد انقسم المجتمع الأُوربي إلى الطبقـات التَّالية[1] :

١ ـ **طبقة النُّبلاء** : أطلق السَّادة الإقطاعيُّون الإقليميُّون الَّذين استمدُّوا ألقـابهم من الأرض الَّتي اِمتلكوهـا ، على أنفسهم اسم (نبلاء السَّيف) ، وضمَّت هـذه الطَّبقـة شرائح متحـاسـدة ، أعلاهـا شريحـة ذريَّـة الملـك الَّـذي يتربَّـع على سُـدَّة الحكم وأولاد إخـوتـه وأخواته ، ويلي هؤلاء في المنزلة ، شريحة تضمُّ الأُمراء من أبناء الملوك السَّابقين ، ثمَّ يأتي بعـد ذلـك (الأدواق)[2] ، ثمَّ الحـاصلون على لقب (مركيز) ، ثمَّ لقب (كونت) ، ثمَّ

---

(١) قصَّة الحضارة : ٦/٣٦ .

(٢) مفردها (دوق) .

لقب (فيكونت) ، ولقب (بارون) ، و (شيفالييه) ، أي : نبيل من الدَّرجة الدُّنيا ، وكانت ثمَّة امتيازات رسميَّة تميِّز هذه السِّلسلة من المراتب بعضها عن بعض ..

٢ - رجال الدِّين : كانت طبقة رجال الدِّين (الإكليروس) الأعلى مرتبة ، ويشكِّل أفرادها من الوجهة العمليَّة فرعاً من النُّبلاء ، وكانت لهم (العشور) ، أي عشر إنتاج كلِّ مالك أرض وماشية ، بالإضافة إلى الهبات والوصايا ، ودخل العقارات الثَّابتة .

لقد كانت الكنيسة في المقام التَّالي بعد الملك وحاشيته مباشرة ، وكانت الأقوى والأغنى ، وعلى الرَّغم من ذلك لا تدفع أي ضريبة عن شيء من ممتلكاتها أو دخلها .

٣ - العامَّة (سواد الشَّعب) : وتضمُّ هذه الطَّبقة الشَّرائح التَّالية :

الفلاَّحون : الَّذين خضعوا للرُّسوم الإقطاعيَّة ، والعشور الكنسيَّة ، وهم (أقنان الأرض) ، لم يكونوا يستطيعون أن يهجروا أرضهم ، أو يبيعوها ، أو ينقلوها أو يغيِّروا محالَّ إقامتهم دون موافقة سيِّدهم .

« وكان على الفلاح بعد دفع الرُّسوم الإقطاعيَّة وعُشُور الكنيسة ، أن يجد مالاً ، أو يبيع شيئاً من نتاجه ، أو ممتلكاته ، ليواجه الضَّرائب الَّتي تفرضها عليه الدَّولة ، ودفع الفلاَّح وحده ضريبة الأراضي ، وبالإضافة إلى ذلك دفع ضريبة الملح ، و٥٪ من الدَّخل ضريبة الرَّأس عن كلِّ فرد في البيت ، وبهذا كان يدفع في الجملة ثلث دخله للمالك والكنيسة والدَّولة ، وكان من سلطة جباة الضَّرائب أن يدخلوا أو يقتحموا كوخَهُ ليفتِّشوا عن المدَّخرات المخبَّأة ، ويستولوا على الأثاث ، تسديداً لمبلغ الضَّريبة المفروضة على الأسرة ، وكما كان الفلاح ملزماً بالعمل ودفع الرُّسوم لسيِّده ، كان ملزماً بأن يعمل للدَّولة دون أجر من ١٢ إلى ١٥ يوماً في السَّنة في إقامة الجسور ، وبناء الطُّرق أو إصلاحها (أعمال السُّخرة) ، وكان يُعاقب بالسِّجن إذا قاوم أو توانى »[١] .

(١) قصَّة الحضارة : ٢٠/٣٦ .

وكان (**خدم المنازل**) أدنى مكانـة من الفلاحين في السُّلَّم الاجتماعي ، وكانوا فقراء إلى حدٍّ لم يهيِّئ إلاَّ القليل منهم أن يتزوَّجوا .

وكانت (**الطَّبقـة العمَّاليَّـة**) في المـدن أعلى قليلاً من شريحـة الفـلاحين ، وكانت تشكِّل الحرفيِّين في الحوانيت والمصانع وحمَّالي البضائع ومتعهدي الخدمات وعمَّـال البنـاء أو التَّرميم ، وكان معظم الصِّناعة لا يزال منزليّاً أو محليّاً ، يقوم في أكواخ ريفيَّة ، أو في الـدُّور في المـدن الصَّغيرة ، وكان التُّجَّـار يقـدِّمـون المـوادَّ الخـام ، ويحملـون الإنتـاج ، ويستولون على كلِّ الرِّبح تقريباً .

وكان عامل المياومة يبدأ عملـه في الرَّابعـة صبـاحـاً ، وينتـهي منـه في الثَّـامنـة مساءً .

وفيما بين الشَّريحتَين (الفلاحـون الـدُّنيـا ، والعمَّـال العليـا ، في هـذه الطَّبقـة) ، قامت الشَّريحـة الوسطى . تضم لهـا أُولاهمـا البغض والكراهيـة ، وتزدريهـا الثَّـانيـة ، وكانت تضم الأطبّـاء ، والأسـاتـذة ، ورجـال الإدارة ، وأصحـاب المصـانـع والتُّجَّـار ، ورجال المال ، وهـذه الشَّريحـة الوسطى شقَّت طريقهـا إلى الثَّروة والنُّفوذ والسُّلطـة في حذق ومهارة وصبر وجلد ..

واغتـاظ التُّجَّـار الَّـذين يـوزِّعـون المنتجـات من فرض المكـوس والرُّسـوم بين المقـاطعـات ، والَّتي تعوق حركـة البضـائـع ، ذلـك أنَّـه عنـد كلِّ نهر أو قنـاة أو مفترق طرق ، كان هناك وكيل عن النَّبيل ، أو رجل الكنيسة مالك الأرض ، ليتقـاضى رسماً على التَّرخيص بمرور البضائع .

طبقـات متمايـزة[1] ، محـدَّدة المعـالم ، يختلف بعضهـا عن بعض ، بحيث لا يخطئ الإنسان معرفتها بمجرَّد النَّظر ، **فرجـال الدِّين (الإكليروس) لهم ثيـابهم الخـاصَّـة الَّتي تميِّزهم عن الطَّبقات الأخرى .**

(١) كانت سبباً في قيام الثَّورة الفرنسيَّة في ١٤ تموز ١٧٨٩ م .

وكانت الطَّبقة العليا الَّتي تملك المال ، تملك السُّلطان ، وبالتَّالي تملك وسائل التَّشريع ، فتأتي تشريعاتها لحماية نفسها ، ولإبقاء (العامَّة) خاضعة لسلطانها ، محرومة من كثير من الحقوق ، مرهقة بالضَّرائب ..

هذا واقع أُوربَّة في القرون الوسطى تحت كنف الكنيسة ، أمَّا الإسلام :

فالشَّرف لا يورَّث ، والثَّروة تتوزَّع بالوراثة بين جميع الأبناء ، على رأس كلِّ جيل ، والتَّشريع ـ في الإسلام ـ ليس مُلْكاً لطبقة معيَّنة ، لأنَّ الشَّريعة سماويَّة ، منزَّلة لسعادة الجميع ، ولا محاباة فيها لأحد ، ولا ظلم لأحد ، وليس في وسع أحد أن يصنع لنفسه قانوناً يحمي به مصالحه على حساب شخص آخر .

ومعنى الآية المذكورة [النَّحل : ٧١/١٦] يثبت الأمر الواقع في أنحاء كرتنا الأرضيَّة ، وهو أنَّ النَّاس متفاوتون في المراتب والأرزاق ، والتَّفضيل بالرِّزق يسبقه السَّعي والكدّ منذ الطُّفولة ، فرفعة الدَّرجات ليست حظّاً أو مصادفة ، كما توضِّح ذلك الآيات التَّالية :

﴿ يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾ [المجادلة : ١١/٥٨] .

﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام : ١٣٢/٦] .

﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُم وَهُم لاَ يُظْلَمُونَ ﴾ [الأحقاف : ١٩/٤٦] .

أمَّا كلمة (سخرية) في الآية ٣٢ من [الزُّخرف] ، فليس معناها الاستهزاء والدُّونيَّة والاحتقار ، وليس المقصود بالتَّسخير استعلاء طبقة على طبقة ، أو استعلاء فرد على فرد ، بل إنَّ البشر مسخَّر بعضهم لبعض ، ودولاب الحياة يدور بالجميع ، ويسخِّر بعضهم لبعض في كلِّ وضع ، وفي كلِّ ظرف ..

فالعامل مسخَّر للمهندس ، ومسخَّر لصاحب العمل .

والمهندس مسخَّر للعامل ولصاحب العمل .

وصاحب العمل مسخَّر للمهندس وللعامل على السَّواء .

جاء في (صفوة التَّفاسير : ١٥٦/٣) : ﴿ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضاً سُخْرِيّاً ﴾ أي ليكون كلٌّ منهم مسخَّراً للآخر ، ويخدم بعضهم بعضاً ، لينتظم أمر الحياة ، قال الصَّاوي[١] : إنَّ القصد من جعل الناس متفاوتين في الرِّزق ، لينتفع بعضهم ببعض ، ولو كانوا سواء في جميع الأحوال لم يخدم أحدٌ أحداً ، فيفضي إلى خراب العالم وفساد نظامه .

وقال أبو حيَّان : وقوله تعالى ﴿ سُخْرِيّاً ﴾ بضمِّ السِّين من التَّسخير بمعنى الاستخدام ، لا من السُّخرية بمعنى الهزء ، والحكمة هي أن يرتفق بعضهم ببعض ، ويصلوا إلى منافعهم ، ولو تولَّى كل واحد جميع أشغاله بنفسه ما أطاق ذلك[٢] .

وكلُّ الخلق مسخَّرون للخلافة في الأرض بهذا التَّفاوت في المواهب والاستعدادات ، والتَّفاوت في الأعمال والأرزاق[٣] .

هذا ناموس الحياة ، سُنَّة ثابتة من سنن الحياة أن يكون الجميع مسخَّرين لبعض دون استعلاء واحتقار ، وهذا ما عناه الإسلام في ﴿ سُخْرِيّاً ﴾ لا أكثر ولا أقل ، لقد آخى الإسلام بين حمزة سيد قريش وشريفها ، مع زيد المولى بعد الهجرة ، فأين الطَّبقات ؟

يقول عزَّ وجلَّ في محكم التَّنزيل :

﴿ ولَقَدْ كَرَّمْنا بَنِي آدَمَ ﴾ [الإسراء : ٧٠/١٧] ، فالتَّكريم لكلِّ إنسان لأنَّه إنسان ، ثمَّ

---

(١) حاشية الصَّاوي : ٤٨/٤ .

(٢) تفسير البحر المحيط : ١٣/٨ .

(٣) تفسير الظِّلال : ٣٣٠/٧ .

كان مقياس التَّفاضل : ﴿ ياأيُّها النَّاسُ إنَّا خَلَقْناكُم مِن ذَكَرٍ وأُنْثَى وجَعَلْناكُم شُعوباً وقَبائِلَ لِتعارَفوا إنَّ أكْرَمَكُم عِنْدَ اللهِ أتْقاكُم إنَّ اللهَ عَليمٌ خَبيرٌ ﴾ [الحجرات : ١٣/٤٩] .

ويقول ﷺ ـ كما روى مسلم في صحيحه ـ : « الْخَلْق كلُّهم عيال الله ، وأحبُّهم إلى الله أنفعهم لعياله » .

فالمجتمع هو وحدة متماسكة ، لا طبقات متمايزة فيه ، يمثِّلهم في تساويهم الاجتماعي والإنساني صفوفهم في الصَّلاة ، الَّتي يقفون فيها دون أي تمييز أو تفاضل ، ويمثِّلهم تساويهم في الحجِّ حتَّى في اللِّباس ، حيث لا يُعرف الأمير من الأجير ، أو الرَّئيس من المرؤوس ، أو الغني من الفقير ، أو الضَّابط من الجندي العادي .

ويكفينا أن نذكر هنا من أحداث التَّاريخ ، حادثة ابن عمرو بن العاص ، والقبطي ، قال أنس[1] : كنَّا عند عمر بن الخطَّاب إذ جاء رجل من أهل مصر ، فقال : ياأمير المؤمنين ، هذا مقام العائذ بك !

قال عمر : ومالك ؟

قال : أجرى عمرو بن العاص بمصر الخيل ، فأقبلت فرسي ، فلما رآها النَّاس قام محمَّد بن عمرو فقال : فرسي وربِّ الكعبة .

فلَمَّا دنا منِّي عرفته ، فقلت : فرسي وربِّ الكعبة .

فقام إليَّ يضربني بالسَّوط ، ويقول : خذها وأنا ابن الأكرمين ، وبلغ ذلك عَمْراً فخشي أن آتيك[2] ، فحبسني في السِّجن ، فانفلتُّ منه ، وهذا حين أتيتك .

فوالله ما زاد عمر على أن قال له : اجلس ، ثمَّ كتب إلى عمرو : إذا جاءك كتابي هذا فأقبل ، وأقبل معك بابنك محمد ، وقال للمصري : أقم حتَّى يأتيك .

(١) ابن الجوزي : ٨٦ ، مع زيادات من العقد الفريد لابن طلحة : ٥٩ .

(٢) ليقينه أنَّ عدل الإسلام سوَّى بينهما ، وعمر سيعاقب ابن عمرو على فعلته وعلى قوله .

فدعا عمرو ابنه ، فقال : أأحدثت حدثاً ؟ أَجنيت جناية ؟

قال : لا ، قال عمرو : فما بال عمر يكتب فيك ؟

فقدم على عمر ، قال أنس : فوالله إنّا عند عمر ، حتَّى إذا نحن بعمرٍو وقد أقبل في إزار ورداء ، فجعل عمر يلتفت هل يرى ابنه ، فإذا هو خلف أبيه ، فقال : أين المصري ؟

قال : هاأنا ذا .

قال : دونكَ الدَّرَّة ، فاضرب بها ابن الأكرمين ، فضربه حتَّى أثخنه ، ونحن نشتهي أن يضربه ، فلم ينزع حتَّى أحببنا أن ينزع من كثرة ما ضربه ، وعمر يقول : اضرب ابن الأكرمين ، ثمَّ قال : أَجِلْها على صلعة عمرو ، فوالله ما ضربك إلاَّ بفضل سلطانه .

قال : ياأمير المؤمنين قد استوفيت واشتفيت ، ياأمير المؤمنين قد ضربت من ضربني .

قال عمر : أما والله لو ضربته ما حُلْنا بينك وبينه حتَّى تكون أنت الَّذي تدعه ، أيا عمرو ! **متى تعبَّدتُم النَّاس وقد ولدتهم أُمهاتهم أحراراً ؟**

فجعل يعتذر ويقول : إنِّي لم أشعر بهذا .

ثمَّ التفت عمر إلى المصري فقال : انصرف راشداً ، فإن رابك ريب فاكتب إليَّ .

وهكذا .. **رفض الإسلام متمثِّلاً بعمر بن الخطَّاب رضي الله عنه فكرة ابن الأكرمين ، وسوّى بين ابن فاتح مصر ، وأحد عامّة النَّاس ، فأين الطَّبقات ؟**

إنَّه (الإسقاط) أولاً وأخيراً !.





في فتوح الإسلام الغنيمة هي الهدف !

تدَّعي معظم كتابات المستشرقين ، أنَّ الحالة الاقتصاديَّة المتردِّية للعرب ، وحبهم للغنائم ، كانت الدَّافع الرَّئيس لفتوحاتهم .

يقول يوليوس فلهاوزن[(١)] : « ولم تكن الحكومة الإسلاميَّة يهمُّها سوى حمل الخراج إلى بيت المال على المقدار المفروض له ، الذِّميُّون بقرة ، الوالي يمسكها من قرونها حتَّى تسكن ، وعامل الْخَراج يحلبها »[(٢)] .

« إنَّ العرب شعب نشيط فعَّال ، دفعته يد الجوع والحاجة إلى ترك صحاريه القاحلة ، واجتياح الأراضي الغنيَّة المترفة »[(٣)] .

« إنَّنا لا نستطيع أن ننكر أن ثروة الأكاسرة والقياصرة ، والأراضي الخصبة ، والمدن العامرة ، في الممالك المجاورة كانت عاملاً كبيراً في تحمُّس المسلمين لنشر الإسلام »[(٤)] .

---

(١) يوليوس فلهاوزن : عالم ألماني (١٨٤٤ ـ ١٩١٨) ، أستاذ اللاهوت في جامعة (جرايفسغالد) .

(٢) تاريخ الدَّولة العربيَّة ، ص : ٢٧ .

(٣) توماس أرنولد ، في كتابه : Preaching of Islam P.40

(٤) ستانلي لان بول في كتابه : Arabs in Spain P.43

« إنَّ الحاجة المادِّيَّة هي التي دفعت معاشر البدو - وأكثر جيوش المسلمين منهم - إلى ما وراء تخوم البادية القفراء ، إلى مواطن الخصب في بلدان الشَّمال ، ولئن كانت الآخرة ، أو شوق البعض إلى بلوغ جنَّة النَّعيم قد حَبَّب إليهم الوغى ، إنَّ ابتغاء الكثيرين حياة الهناء والبذخ في أحضان المدنيَّة التي ازدهر بها الهلال الخصيب ، كان الدافع الذي حبَّب لهم القتال »[1] .

إنَّه (إسقاط) ينطبق على المسيحيَّة ، ولا يعرفه الإسلام .

لقد عاش العرب في باديتهم المقفرة مئات السِّنين ، وهم يعرفون الخيرات في الشَّمال ، فلماذا لم ينطلق أهل الحجاز إلى هذه المواقع الخصبة قبلاً ؟ وإذا قيل إنَّهم كانوا يخشون الفُرْسَ والرُّوم ، ثمَّ ضعف هؤلاء فخرجوا ، فإنَّ هذا مردود ، فقد بقي العرب يتهيَّبون الأكاسرة والقياصرة حتَّى كتب الله لهم النَّصر بالقادسيَّة واليرموك .

وقالت رسل المقوقس إليه عندما عادوا من عند عمرو بن العاص وجيشه ، أثناء حصار حصن بابليون[2] : رأينا قوماً الموت أحبّ إليهم من الحياة ، والتَّواضع أحب إليهم من الرِّفعة ، ليس لأحدٍ منهم في الدُّنيا رغبة ولا نهمة ، جلوسهم على التُّراب ، وأميرهم كواحد منهم ، ما يُعْرَف كبيرهم من صغيرهم ، ولا السَّيِّد فيهم من العبد ..

وفي اليرموك[3] ، كم من منادٍ صاح قائلاً : من يبايع على الموت ، لا على الغنيمة ؟!.

وفي معركة نهاوند[4] ، قال قائدها (النُّعمان بن مُقَرِّن الْمُزَني) قبل بدئها :

---

(١) فيليب حتّي في كتابه : History of the Arabs, vol.1.P.195

(٢) بابليون : منف أو منفيس ، حصن قديم في مصر على شواطئ النِّيل ، بالقرب من موقع القاهرة ، كان مرَّات عديدة عاصمة الفراعنة .

(٣) معركة اليرموك ١٣ هـ ، جنوبي حوران ، على نهر اليرموك .

(٤) نهاوند : مدينة في فارس ، جنوبي همدان ، انتصر فيها جيش المسلمين على جيش الفرس سنة ٦٤٢ م ، واستشهد فيها قائدها (النُّعمان بن مقرّن المزني) .

« اللَّهمَّ اعـزز دينـك ، وانصر عبـادك ، واجعـل النُّعمان أوَّل شهيــد اليـوم .. اللَّهمَّ إنِّي أسـألـك أن تقرَّ عيني اليوم بفتح يكـون فيـه عـزُّ الإسـلام ، أمِّنـوا يرحمكم الله » ، هـذه البطولـة ، هل يسجِّلهـا قوم يبتغون مـالاً وغنيمـة ، أمْ تراهم كانـوا يبتغـون نشر عقيـدة وثواباً وشهادة ؟

وأرسل رسول الله ﷺ إلى الملوك والأمراء رسائل يـدعوهم فيهـا إلى الإسلام ، على أن تبقى لهم ممالكهم وما بين أيديهم ، فأين المطمع المالي هنا ؟

وكان المسلمون يُخَيِّرون الشُّعوب بين ثلاث : الإسـلام ، أو الجـزيـة ، أو الحرب ، فمن أسلم فليس للفاتحين عليه من سبيل « لهم مالنا ، وعليهم مـا علينـا » ، أو الجزيـة ، وهي مبلغ بسيـط ، لا يقـارن بمـا أخـذه البيرنطيُّـون من شعـوبهم ، مقـابـل الحمـايـة ، واستعمالهم للمرافق العامَّة في الدَّولة ، ويدفع المسلمون أضعافهـا في الزَّكاة ، وأخيراً الحرب لإزاحة العوائق التي تعيق إيصال العقيدة للشُّعوب .

ومات أعظم قائد في تاريخ الإسلام ، خالد بن الوليد رضي الله عنه ، وهو لا يملك من حطام الدُّنيا غير فَرَسِه وغلامه وحسامه فقط ، فأين الغنائم ؟

ولم يكن المسلمون الذين خرجوا للفتوحات أكثر من مئة ألف ، لوضاعفنا العـدد ، فكان يكفيهم سواد العراق وحده ، أو فلسطين وحدهـا ، أو الشَّـام وحـدهـا ، أو دلتـا مصر وحـدهـا .. ويصبحون أهل رغـد وثروة ، ويمكثـون لينعمـوا بمـا فتحـوا ، لكنَّهم انطلقوا إلى الصِّين ، وإلى إسبانية وفرنسة .. فأين الطَّمع بالدُّنيا ؟

أمَّا أُوربّة النَّصرانيَّة ، الَّتي عانت في أواخر القرن الخامس عشر من أزمة اقتصـاديَّـة خـانقـة ، راحت تفتش عن طريق يوصلهـا ببلاد جنوب شرقي آسيـة ، حيث التَّـوابـل والخيرات ، دون عبور البحر المتوسِّـط والـوطن العربي ، وتفـاقمت الأزمنـة أكثر بسبب

نقص الذَّهب ، لأنَّ موارد المناجم في أُوربة ، لم تعد تفي بالحاجة منه ، ولـذلـك قيل : « **عطش أُوربة إلى الذَّهب ، أكثر من جوعها إلى التَّوابل** »[1] .

وشاع في أُوربة أنَّ الهند وجنوب شرقي آسية ، بلـدان غنيَّـة ، موفورة الغنى ، وأنَّ الوصول إليها مباشرة يؤدِّي إلى الحصول على الذَّهب والتَّوابل معاً .

لقد كان البحث عن (أسواق لتصريف المنتجات الأُوربيَّـة المصنَّعـة) ، مع كسب مناجم المواد الأوَّلية الرَّخيصة وامتلاكها لتشغيل المصانع الأُوربيَّة ، وإعادة الجزء الأكبر من إنتاج هذه المصانع إلى هذه الأسواق وبيعها بأسعار مرتفعة بغية تحقيق الرِّبح المـادي (الفاحش والسَّريع) ، سبباً للكشوف الجغرافيَّة الأُوربيَّة والحركة الصَّليبيَّـة الجـديـدة (الاستعمار) .

وهكـذا أبحرت السُّفن الأُوربيَّـة ـ البرتغـاليَّـة أوَّلاً ـ نـاشرة أشرعتهـا ، تحمـل إلى الشُّعوب الإفريقيَّة والآسيويَّة والأمريكيَّة جماعة من الرُّهبان يبشِّرون بالعهد الجديـد ، ويعـودون منهـا بكنـوزهـا من الـذَّهب والعـاج والتَّـوابـل ، وأمعن البـابـا (مـارتن الخامس)[2] في الكرم والسَّخاء ، فأحَلَّ من الأوزار والخطـايـا أرواح من يلقون حتفهم في تلك المغامرات[3] ، معطياً الاستعمار طابع الحروب الصَّليبيَّة الصَّريح .

وعنـدمـا قرَّر عمـانـويـل الأوَّل ، ملـك البرتغـال : (١٤٩٥ ـ ١٥٢١ م) تسيير فاسكودوغاما[4] سنة ١٤٩٧ م لاحتلال عدن ومضيق هرمز ، قال في حفل وداعه :

---

(١) تاريخ العصور الحديثة .

(٢) البابا مارتن الخامس (مرتينُس) : (١٤١٧ ـ ١٤٣١ م) ، وهو البابا الخامس بعد المِئَتَيْن .

(٣) في طلب التَّوابل ، ص : ١٠٦ .

(٤) فاسكودوغاما Vasco de Gama : (١٣٦٩ ـ ١٥٢٤ م) ، بحَّار برتغالي ، اكتشف طريق الهند عن رأس الرَّجاء الصَّالح سنة ١٤٩٨ م .

« هذه المغامرة النَّبيلة ، والمنافع الَّتي تُرجى من ورائها مرضاة الله ، فما هي إلاَّ أن تفتح الهند ، حتَّى تبلَّغ رسالة سيِّدنا وإلهنا يسوع إلى أولئك الَّذين لا يعلمون عنه شيئاً » ، على أنَّ تبليغ الرِّسالة المسيحيَّة ـ وإن كان الهدف الأوَّل للملك عمانويل ـ إلاَّ أن ذلك لم يمنعه من توصية قوَّاده **بضرورة البحث في الوقت نفسه عن أحسن الوسائل وأصلحها للحصول على ثروة الشَّرق .**

وما أن فرغ الملك من خطابه حتَّى تقدَّم أحد كبار رجال الحاشية ، وهو يحمل لواء جماعة المسيح ، فسلَّمه إلى فاسكودوغاما ، الَّذي تناوله ولفَّه حول ذراعه ، ثمَّ نطق بهذا القَسَم : « أنا فاسكودوغاما المكلَّف من مليكي باكتشاف بحار الشَّرق ، وبلاد الهند الشَّرقيَّة ، أُقسم برمز هذا الصَّليب الَّذي أضع يدي عليه ، بأن أرفعه عالياً مطويّاً أو منشوراً في سبيل خدمة الله وخدمتكم أينما حللت ، سواء في بلاد المغرب ، أو في بلاد الشُّعوب الأُخرى من أيِّ جنس ولون ، وأُقسم أنَّني سأُدافع عنه حتَّى الموت ، لا تمنعني عن ذلك الأخطار ، مهما يكن مبلغها ، وأينما كانت في البحر أو البر ، ومهما أُصلى بنار الحروب ، وإنَّني سأصدع بجميع الأوامر الصَّادرة إليَّ ، وأُطيع التَّعليمات في جميع الظُّروف »[1] .

وتسلَّم دوغاما من مليكه رسالة موجَّهة إلى (القسّ يوحنّا) ملك الحبشة ، وقضى وبحَّارته طوال اللَّيل يصلُّون لله ، ويضرعون إليه في كنيسة بُنيت للبحَّارة خاصَّة ، ورتَّل رئيس القُسُس (قدَّاس الاعتراف العام) ، ثمَّ نطق بالمغفرة وفقاً للعهد الَّذي قطعه البابا على نفسه ، بأن يمنحها كل أولئك الذين هلكوا أو قُتِلُوا في (الفتوح) ، أو في الكشف عن البلاد النائيَّة السَّحيقة ، وأن يُعَدُّوا من الوجهة الرُّوحيَّة كما لو كانوا من بين رجال الحروب الصَّليبيَّة ، وأن يُمْنَحُوا مثل ما مُنِحُوا من الغفران[2] .

---

(١) في طلب التَّوابل ، ص : ١٨٠ .

(٢) تسامح الإسلام وتعصُّب خصومه ، ص : ١٧٠ .

وممَّا قاله عمانويل الأوَّل حرفيّاً : « إنَّ الغرض من اكتشاف الطَّريق البحري إلى الهند هو **نشر المسيحيَّة ، والحصول على ثروات الشَّرق** »[1] .

وبعد عودة دوغاما بستَّة أشهر ، من رحلته الَّتي وصل بها إلى الهند ، والَّتي اتَّسمت بالقسوة والوحشيَّة والتَّعصُّب ، أرسل الملك عمانويل أسطولاً مكوَّناً من ثلاث عشرة قطعة إلى الهند بقيادة بدرو ألفارز كابرال Perdro Alvers Cabral ، عليها ألف وخمسمئة جندي ، عدا البحَّارة ، ومهرة العمَّال ، وسبعة عشر قسِّيساً ، وكان على كابرال أن يبدأ بالدَّعوة إلى المسيحيَّة ، فإن لم تأتِ الدَّعوة بالنَّتيجة المنشودة ، « فليحتكم إلى السَّيف »[2] .

وفي سنة ١٥٠٦ م أرسل الملك عمانويل (ألفونسو ألبوكيرك Albuquerque) إلى الشَّرق ، ولَمَّا استولى على ملقّا في جنوب شرقي آسية (لنهب خيراتها) ، علم الملك عمانويل نبأ هذا الاستيلاء ، فأرسل من فوره رسولاً إلى البابا ، ليفضي إليه بالنَّبأ السَّعيد ، بأنَّ ملقّا أصبحت ملكاً للبرتغال ، وأقام البابا ليو العاشر[3] بمناسبة « هذا الانتصار العظيم » ، انتصار ملك مسيحي على (الكفَّار) والوثنيِّين قُدَّاساً خاصّاً للشُّكر ، وأمر بتسيير موكب رسمي اشترك فيه بنفسه[4] .

هذا ما فعلته البرتغال ـ إحدى الدُّول الأُوربيَّة المسيحيَّة ـ تحت كنف البابا ورعايته . وهو يماثل ما فعلته إسبانية وهولندة وفرنسة وإنكلترة وإيطالية وألمانية .. في مستعمراتها .

---

(١) في طلب التَّوابل ، ص : ٢٤٦ .

(٢) في طلب التَّوابل ، ص : ٢٠٨ .

(٣) البابا (ليو) العاشر ، البابا السَّادس عشر بعد المئتين : (١٥١٣ ـ ١٥٢١ م) .

(٤) في طلب التَّوابل ، ص : ٢٢٢ .

فإسبانية فرضت نظام الحصر المطلق في التِّجارة مع مستعمراتها ، خصوصاً عندما بدأ استغلال مناجم الذَّهب في جزر الأنتيل والمكسيك ، ومناجم (بوتوزي) في (بيرو)[1] ، وهي أشبه ما تكون بجبل من الفضَّة ، ومن هنا تدفَّقت الثَّروة على إسبانية ، الَّتي امتصَّت خيرات المستعمرات بشكل جنوني ووحشي عنيف ، أدَّى إلى إبادة كاملة لحضارات سامقة مثل : الأنكا ، والمايا ، والآزتيك ، ورافق ذلك كلَّه ، تبشير بالمسيحيَّة ، فما حدث من سلب لخيرات الشُّعوب ، وإبادة للسُّكَّان ، تحت رعاية الكنيسة وأمام ناظريها .

لقد كان الاستعمار البرتغالي والإسباني مصحوباً بالإرهاق والشِّدَّة والقسوة الوحشيَّة ، لأنَّ المستعمرين كانوا يطلبون ممَّن بقي حيّاً من السُّكَّان المستَعْمَرين فوق طاقتهم الجسديَّة والمادِّيَّة ، حتَّى أضناهم العمل ، وفتكت بهم الأمراض والأوبئة .

وهولندة تدفَّقت عليها الثَّروات ، وجنت الأرباح الطَّائلة من مستعمراتها .

وهذا ما فعلته فرنسة وإنكلترة وإيطالية وألمانية .. في مستعمراتها :

ـ ابتزاز لخيرات الشُّعوب ، وخصوصاً المواد الأوَّليَّة ، مع إقامة صرح الصِّناعة في أُوربة وأمريكة بفضل خيرات المستعمرات ومنتجاتها .

ومثال أخير (للغنيمة هي الهدف) عند المستعمرين الصَّليبيِّين :

بدأ الاحتلال الإنكليزي للهند سنة ١٨٠٥ م ، بأعمال شركة الهند الشَّرقيَّة البريطانيَّة ، الَّتي كان هدفها جني الأرباح ، واكتساب الأموال ، مع التَّبشير بالمسيحيَّة ، وفي سنة ١٨٥٨ م أخمدت بريطانية ثورة ، وألغت شركة الهند الشَّرقيَّة ، وجعلت الهند تابعة مباشرة للتَّاج البريطاني ، ونودي بعد ذلك بالملكة فكتوريا إمبراطورة الهند .

---

(١) في أمريكة الجنوبيَّة .

قال غاندي : « اعلموا أنَّ الإنكليز يبتغون نيل القناطير المقنطرة من مال بلادنا ، والتَّلذُّذ بثمراتنا ، والانتفاع بقوَّة رجالنا وأولادنا ، كل ذلك في سبيل جشعهم الإمبراطوري ، ونهمتهم الاستعماريَّة »[1] .

وقال الكاتب الهندي (براماثانات بوز) : « إنَّ الاستنزاف يسوق الهند إلى درك الخراب سَوْقاً »[2] .

ونتيجة لهذه السِّياسة البريطانيَّة الاستعماريَّة ، اجتاحت المجاعات المتعدِّدة الهند ، وهي فوق كلِّ تصوُّر بشري من حيث الخسائر ، لقد استأثر المستعمِرون بالأرباح والمكاسب ، واستنزاف منابع الثَّروة الوطنيَّة ببضاعاتهم وأدواتهم ، وتركهم السَّواد الأعظم من الهنود عالة عليهم ، بحيث إذا احتُبِسَ المطر قليلاً ، أو هبَّت على الزُّروع لافحة سموم ، فقلَّ المحصول ، وارتفعت أسعار الغذاء ، لم يبقَ أمام هؤلاء الأهالي سوى الموت جوعاً ، أو بالأمراض الَّتي سبَّبها سوء الغذاء ، لأنَّ الَّذي يأخذونه بدل عملهم ، لا يعود كافياً لشراء قُوتِهِم الضَّروري ، ولا نجد إنكليزيّاً واحداً مسَّه الجوع ، أو مات سغباً[3] .

وفي الهند ـ مثل كلِّ البقاع الَّتي استعمرت في هذا العالم ـ رافق التَّبشير الاستعمار منذ ساعاته الأولى .

لقد ألَّف المبشِّرون الرَّسائل والكتب في الهجوم على الإسلام ونبيِّه وأهله ، ووزَّعت في الأمصار بين العوام ، وشرعوا في الوعظ في الأسواق ، ومجامع النَّاس .. عندها توجَّه بعض المسلمين إلى الشَّيخ (رحمة الله خليل الرَّحمن الهندي)[4] ، الَّذي اطَّلع على

---

(١) حاضر العالم الإسلامي : ٢٠١/٤ .
(٢) حاضر العالم الإسلامي : ٢٢٤/٤ .
(٣) تحرير لا استعمار ، ص : ٨٥ .
(٤) رحمة الله بن خليل الرَّحمن الهندي (ت ١٣٠٨ هـ/١٨٩١ م) ، باحث ، عالم بالدِّين والمناظرة ، جاور =

تقريراتهم وتحريراتهم ، ووصلته رسائلهم ، يطلبون منه التَّصدِّي للمبشِّرين وافتراءاتهم ، فاستدعى الشَّيخ رحمة الله القسِّيس (ڤاندر) ، مؤلِّف كتاب : (ميزان الحق) ، الَّذي هاجم فيه الإسلام وأهله ، لمناظرة في مجلس عام ، وفعلاً جرت المناظرة في رجب ١٢٧٠ هـ/١٨٥٤ م ، فظهرت الغلبة ـ بفضل الله ـ للشَّيخ رحمة الله ، فأمرت الكنيسة التَّبشيريَّة بإنهاء المناظرة ، وترك الموضوعات المقرَّرة المتبقِّية ، ونقلت (ڤاندر) إلى الأستانة فوراً ، وفي الأستانة راح (ڤاندر) يحدِّث النَّاس عن انتصاراته في الهند ، في مناظرته مع الشَّيخ رحمة الله ، وكيف فاز عليه وأفحمه ، فاستدعى السُّلطان العثماني الشَّيخ رحمة الله ـ وقد كان بمكَّة في ضيافة الشَّيخ أحمد زيني دحلان ـ وعندما عَلِمَ (ڤاندر) بوصول الشَّيخ رحمة الله إلى الأستانة ، غادرها لساعته .

وكتب الشَّيخ رحمة الله كتابه القيِّم والرَّائع : (**إظهار الحق**)[1] ، والَّذي هو نصٌّ مناظرته مع قُسُس التَّبشير في الهند ، وخصوصاً القسّ (ڤاندر) .

وبعد ...

الاستعمار الأُوربي ابتزاز لخيرات الشُّعوب ، وخصوصاً المواد الأوَّليَّة ، ونهب لثرواتها ، واستغلال جشع بشع لطاقاتها ، مع نشر الجهل والفقر والمرض مع تبشير سمج كاذب مدَّعٍ ..

والفتح الإسلامي خلَّص الشُّعوب من الضَّرائب الباهظة ، حتَّى قال (دريبر) :

= بمكَّة وتوفِّي بها ، له كتب منها : (التَّنبيهات ، في إثبات الاحتجاج إلى البعثة والحشر والميقات) ، و (إظهار الحق) جزآن ، هو من أفضل الكتب في موضوعه ، (الأعلام : ١٨/٣) .

(١) مطبوع في الدَّوحة ـ قطر : إدارة إحياء التُّراث الإسلامي ، وفي القاهرة : مكتبة الثَّقافة الدِّينيَّة بميدان العتبة ، وفي لبنان (المطبعة العصريَّة ، صيدا) .
وهذا الكتاب كان نقطة تَحوُّل في حياة الدَّاعية المسلم حسين ديدات ، يعتمده في مناظراته .

« إنَّ المسلمين ما كانوا يتقاضون من مقهوريهم إلا شيئاً ضئيلاً من المال ، لا يقارن بما كانت تتقاضاه منهم حكوماتهم الوطنيَّة »[1] .

وقالت (لوراقيشيا فاغليري) : « ادفعوا جزية يسيرة تُسْبَغ عليكم حماية كاملة »[2] .

وقال (غوستاف لوبون) : « جزية زهيدة تَقِلُّ عمَّا كانت تدفعه إلى ساداتها السَّابقين من ضرائب »[3] .

لقد عمَّ الرَّفاه البلاد الَّتي حرَّرها المسلمون ، مع نهضة علميَّة في كلِّ مجال ، حتَّى قال المؤرِّخ الإسباني (سانسيت أولبورنوت) : « إنَّ الفتح العربي الإسلامي لإسبانية جلب إليها كلَّ الخير » ، فهل جلب الاستعمار الأُوربي الخير للبلاد الَّتي فُتِحَت ؟!.

إنَّه الإسقاط ؟!!



(١) روح الدِّين الإسلامي ، ص : ٣٩٢ .
(٢) دفاع عن الإسلام ، ص : ٥٢ .
(٣) حضارة العرب ، ص : ١٣٤ .

مقارنة

الاستعمار	الإسلام :
سماجة = قبح . السَّماجة : القُبْحُ ، يقال : ما أسمَجَ فِعْلَه ، أي : ما أقبَحَهُ .	سماحة : جود وعطاء وكرم وسخاء مع الصَّفح والعفو والإحسان يقابله : التَّعنُّت والتَّعصُّب والتَّطرُّف والغُلُوُّ
إبادة شعوب :	**أُخوَّة إنسانيَّة :**
- ماذا لحق بإفريقية على يد البرتغاليِّين ؟ - وماذا فعل رعاة البقر بشعب أمريكة الأصلي (الهنود الحمر ؟) . - وماذا فعلت فرنسة في الجزائر ؟ - وماذا فعلت بريطانية في أُسترالية ؟ - ماذا عملت إسبانية والبرتغال في سكَّان أمريكة الوسطى والجنوبيَّة ؟ الجواب وبكلِّ بساطة (إبادة) وانتهاء حضارة الإنكا والمايا والآزتيك ،	فمن خصائص حضارتنا الإسلاميَّة ، أنَّها لا تحكم بالإعدام على الثَّقافات الأُخرى ، والحوار هو البديل ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ ، [النَّحل : ١٦/١٢٥] . نظرة إنسانيَّة لا يمتلكها إلاَّ الإسلام . فبينما يقبل المسلمون بينهم وجود أديان مغايرة لدينهم ، ويرفضون إكراه أحدٍ على ترك ملَّته ، نرى الآخرين

وإبادة كاملة ٣٠ مليون إنسان أبادتهم البندقيَّة الأُوربيَّة والمدفع ، الطِّفل الرَّضيع يرضخ رأسه ، أو يؤخذ للكلاب الجائعة من يد أُمِّه ، وتراه يؤكل أمام ناظريها !

لذلك قامت عام ١٩٩٢ بمناسبة مرور ٥٠٠ عام على اكتشاف أمريكة مظاهرات ضدَّ البابا وتحطيم أصنام كولومبس في أمريكة الجنوبيَّة .

وكذلك في أسترالية بمناسبة مرور ٢٠٠ عام على اكتشافها .

وفي الجمهوريَّات الإسلاميَّة في الاتِّحاد السُّوفييتي المتفكِّك ، أُبيد (عشرون) مليون مسلم ، وستالين وحده أباد أحد عشر مليون مسلم بإشراف اليهودي (ميخائيل سوسلوف) الَّذي أصبح المُنَظِّر العقائدي للاتِّحاد السُّوفييتي .

فداغستان مثلاً : في عام ١٩١٧ م كان عدد سكَّانها ٨ ملايين نسمة ، وفي عام ١٩٧٧ م أصبح عدد سكَّانها ١,٦٢٧,٠٠٠ نسمة فقط ، بسبب الإبادة والتَّهجير .

يتبرَّمون من الديانات الأُخرى ، ويرسمون سياستهم الظَّاهرة والباطنة لإبادة الآخرين .

ـ النَّاس سواسية في الإسلام .

ـ ﴿ يَاأَيُّهَا النَّاسُ ﴾ تكرَّرت ١٤٠ مرَّة في القرآن الكريم ، واستعملت كلمة (النَّاس) في القرآن الكريم بمعنى الجنس البشري عموماً : ﴿ إِنَّ اللهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ ﴾ ، ﴿ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ﴾ ، ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ ﴾ ، كلمة النَّاس ترسِّخ معنى الإنسانيَّة ، ووحدة الجنس البشري : ﴿ قُلْ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً ﴾ .

وعالميَّة الإسلام ، وإنسانيَّته يثبتان من القرآن والسُّنَّة والأدلَّة الواقعيَّة .

العنصريَّة :

الثَّمرة الثَّانية من ثمرات الاستعمار ، ومن يقول انتهت العنصريَّة نقول له ، العنصريَّة أنواع ، التَّمييز العنصري بين الأبيض والأسود في أمريكة وأوربة وجنوبي إفريقية ، تحاول القوانين اليوم الحد منه .

كنائس للبيض وأُخرى للسُّود .

وسائل نقل للبيض ووسائل نقل أُخرى للسُّود .

مدارس للبيض ومدارس غيرها للسُّود .

أماكن سياحة للبيض وأماكن سياحة للسُّود .

قتل امرئ في غابة جريمة لا تغتفر
وقتل شعب آمن مسألة فيها نظر

من العنصريَّة اليوم موضوع حقوق الإنسان ، إنَّها للأبيض ، للأُوربي والأمريكي إن مات واحد منهم يا للمصيبة ولو كان المعتدي وتموت شعوب مسلمة ومجلس الأمن ينظر (أصمَّ أبكَمَ) إلى ما يجري في البوسنة والهرسك :

الإسلام :

لا فضل لعربيٍّ على أعجميٍّ ولا لأَبيض على أسود إلاَّ بالتَّقوى ، التَّقوى ، التَّعامل ، الخير للنَّاس ، معيار التَّفاضل :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ ، [الحجرات : ١٣/٤٩] .

والْخَلْق كلُّهم عيال الله وأَحبُّهم إلى الله أنفعهم لعياله .

لقد رفع الإسلام بلالاً الحبشي فوق الكعبة ليعلن الله أكبر .

وجعل سلمانَ من آل البيت .

وأعلنَ عمر رضي الله عنه حقوقَ الإنسان عمليّاً عندما نفَّذ على أرض الواقع : (متى استعبدتم النَّاس وقد ولدتهم أُمهاتهم أحراراً) .

وفي الحجِّ الأبيض والأسود ، والأصفر والأحمر ، على اختلاف ألسنتهم قمَّة التَّساوي .

ومفسِّرُ القانونِ وفقَ مزاجِهِ
يَرْنُو أَصَمَّ إلى الجرائِمِ أبكما
ويمارسُ التَّسويفَ خُطَّةَ بارعٍ
حتَّى يراقَ دَمُ البريءِ ويُعْدَما
ما كان أسرَعَهُ ليروعَ ظالماً
لو لم يكُ المظلومُ شعباً مُسْلِما

يهتمُّون بحقوق الإنسان في جنوبي السُّودان (كرنغ) ولا حقوق للدِّفاع عن النَّفس في البوسنة .

الفقر في البلاد التي استُعْمِرَت :

الهند ، مصر ، إفريقية ، جنوب شرقي آسية ، مع انتشار المجاعات .

أثناء الاستعمار البريطاني لمصر ١٢ـ١٥ ساعة عمل للعامل والأجر ١٠ بنسات للبالغ ، و٦ بنسات للحدث .

وقال المؤرِّخون : « إنَّ الاستنزاف يسوق الهند إلى درك الخراب سَوْقاً » .

المجاعات تعدَّدت وحتَّى اليوم يلد الفرد ويعيش ويموت على رصيف ضيِّق .

ووقف النَّبي ﷺ لجنازة غير مسلم فقيل : إنَّه غير مسلم ، فقال : أَوَليس إنساناً ؟

في الإسلام الرَّفاه للجميع

نهضة زراعيَّة ، اقتصاديَّة في كلِّ البلاد الَّتي فُتِحت .

كتب عمر بن عبد العزيز إلى كلِّ واحد من ولاته : انظر إلى من قِبَلَك من الأرض فأعطوها بالمزارعة على النِّصف ، وإلاَّ فعلى الثُّلث ، حتَّى تبلغ العُشر ، فإن لم يزرعها أحدٌ فامنحها ، وإلاَّ فأنفق عليها من مال المسلمين ، ولا تُبيرَنَّ قبلك أرضاً .

الموت جوعاً في البلاد المستَعمَرَة أمر طبيعي ، ولا نجد أوربيّاً واحداً مسَّه الجوع .	**أيّام العبّاسيّين :** ديوان خاص للقنوات وأعمال الرَّيِّ والزِّراعة ، عُرِف بديوان الماء ، بلغ عدد المشتغلين فيه عدَّة آلاف .
واليوم ، اليوم ثورة المكسيك هي ثورة بقايا السُّكَّان الأصليِّين .	وخُفِّض الخراج على الفلاحين بين آونة وأُخرى تشجيعاً لهم ، وزيادة في دخلهم ورفاهيَّتهم .
إفريقية : مثالنا فيها الجزائر ، كانت تصدِّر القمح لأوربة ، وفرنسة خصوصاً قبل ١٨٣٠ م ، وبعد الاستعمار مجاعات ، وكم من الجزائريِّين مات جوعاً وأكداس المؤن في الكنائس لم تقدم لواحد ، لأنَّهم أبوا التَّنصير .	الأندلس : جنَّة الدُّنيا ، وجوهرة العالم
وصار المثل الشَّعبي المتَّبع في إندونيسية يقول : « تَنَصَّر من أجل حفنة أرز » ، أي لا قناعة وعقلاً وفهماً ودراسة ..	تجفيف المستنقعات في أرض السَّواد بدأه الحجَّاج .
الجهل :	
إغلاق المدارس ، مع سياسة محكمة لتجهيل النَّاس ، ومحاربة أي معين علمي تركت بريطانية مصر ونسبة الأُميَّة فيها ٩٨٪ ، وكذلك في الهند .	عشرات الجامعات ، ومئات المدارس لنشر العلم في كلِّ أرجاء العالم الإسلامي ، لأنَّه : « ليس منِّي إلاَّ عالم أو متعلِّم »
إغلاق الجامعات في حوض النَّيجر وأهمها (تونبُكت) وفي وثيقة الاستقلال	الأندلس تخرَّج من جامعاتها البابا سلفستر الثَّاني .

مع فرنسة اشترطت عدم إعادة فتح جامعة (تونبكت) ، وعدم التّدريس بالعربيَّة .

أينما وصل الاستعمار ، حلّ معه التَّجهيل المقصود للبلاد كلِّها .

المرض :

أمراض كثيرة استوطنت البلاد المستَعمَرَة ، البلهارسيا في مصر ، لعدم توافر مشاريع الشُّرب .

ريف البلاد المستَعمَرَة لا خدمات طبِّيَّة نسبة وفيَّات الأطفال المرتفعة شيء معروف جدّاً .

موجات الطّاعون حصدت مئات الألوف .

نهضة علميَّة ، حتَّى إنَّ أشهر العلماء في كلِّ الميادين كانوا من سكَّان البلاد المفتوحة :

ابن سينا / الرَّازي / البخاري / البيروني / الخوارزمي / الطَّبري ...

الإسلام علم ، فهل من بقعة وصلها الإسلام ولم ينتشر فيها التَّعليم ، مع نهضة في كلِّ مجالات العلوم .

يكفينا أنَّ شوارع كاملة اسمها

(شارع المدارس) إنَّها تخصُّصيَّة فالحي كلُّه تكفيه مدرسة واحدة (عامَّة) لأبنائه .

المستشفيات (البيمارستانات)

في كلِّ أرجاء البلاد الَّتي فتحت ، وبعضها تخصُّصي ، للمجذومين لا يختلطون بغيرهم (حجر صحِّي) وللأمراض العصبيَّة .

بيمارستان النَّووي بدمشق ، يذكر ابن شاهين حادثة طريفة لمتمارض أراد تناول الطَّعام من البيمارستان ، فاستُضيف ثلاثة أيَّام ، ثمَّ قيل له :

والمستوصفات ، والخدمات الطبِّيَّة فيها ، إن وجدت هذه المستوصفات لها أغراض تبشيريَّة ، أبسطها إعطاء المريض أقراصاً من (النَّشاء) لا مركَّبات طبيَّة فيها ، حتَّى يقال له اطلب من يسوع المخلِّص الشِّفاء ، فيعطى الدَّواء المناسب .

الرَّقيق :

٢٠ مليون زنجي إفريقي في أمريكة لقد روَّج الغرب لتجارة الرَّقيق خطفاً وقنصاً بأعداد كبيرة جدّاً ، وتاريخ النِّخاسة الأوربي مُشِين جدّاً ،

« الضَّيف ثلاثة أيَّام » ، اخرج نعرفك أنَّك متمارض معافى .

وعرف المسلمون المستشفيات المتنقِّلة ،

مع محطَّات الإسعاف قرب المساجد .

زيغريد هونكه : وتقيم المشافي الإسلاميَّة

مع كلِّ مشفى مكتبة ، مدرسة عالية للطِّب ، الأدوية ، الصَّيدليَّات ، فمن اختراع المسلمين : التَّقطير ، التَّرشيح ، التَّبلور ، تغليف الحبوب بما لا يؤذي الذَّوق واللِّسان ، وعرفوا المرقِّد للتَّخدير في العمليَّات .

وما زالت كلمات كثيرة في مجال الطِّب عربيَّة في أُوربة .

شرع الإسلام العتق
ولم يشرِّع الرِّق

ألغاه بخطى ثابتة مدروسة ، ولم يبق منه إلاَّ أسير الحرب كمعاملة بالمثل .

ضيَّق موارده ومدخله ، وأفسح

في دائرة المعارف البريطانيَّة ٨٨٩/٢ : وصف للقنص البشري حيث يقتل ثمانية كي يلقى القبض على واحد .

وما يشحن ١٢٪ يموت لاختلاف البيئة والمناخ .

ويموت قسم آخر في العمل في المستَعمَرات :

(جامايكا) البريطانيَّة دخلها ١٨٢٠ م ٨٠٠,٠٠٠ رقيق ، بقي منهم في تلك السَّنة ٣٤٠,٠٠٠ .

أليزابيت الأُولى (١٥٥٨-١٦٠٣ م) شريكة (جون هوكنز) أكبر نخَّاس في التَّاريخ ، ورفعته إلى مرتبة النُّبلاء إعجاباً ببطولته .

محاكم التَّفتيش :

شُكِّلت بمرسوم بابوي في تشرين ٢ عام ١٤٧٨ م لتنصير المسلمين بأشدِّ وسائل العنف الأسياخ المحمَّاة ، سحق العظام ، رفع المرأة من ثدييها حتَّى الموت ، ترك المرأة عُريانة على قبر تربط إليه بلا طعام حتَّى الموت ..

مصارفه ومخرجه ، ويمكن القول إنَّه سدَّ منابع الرِّق ، ووسَّع مصارف العتق

لقد عدَّ الإسلام الرِّقَّ عارضاً ، وجده مشروعاً فشرَّع العتق .

الإمام أحمد : المكاتبة واجبة متى دعا العبد سيِّده إليها

والحنفيَّة : تجبر المكاتب على الأداء حرصاً على تحريره ، وإذا لم يكن معه مال وهو قادر على الكسب ، فالمالكيَّة تجبره على الكسب .

ومعاملة الرَّقيق في الإسلام لا تتَّصل بالعقل والفكر ، يعتنق الدِّين الَّذي يرضيه .

﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾
[البقرة : ٢٥٦/٢]

التَّسامح سمة الإسلام الخالدة ، فهو لا يحكم بالإعدام على الشَّرائع الأُخرى ، والحوار هو البديل ، وإقرار الإسلام بتعدُّد العقائد في مجتمع المسلمين إقرار بمشيئة الله : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ

وصمة عار في جبين أُوربة على مرّ التّاريخ .	النّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴾ [هود : ١١/١١٨] .
مع إحراق من رفض التّنصير في أمريكا عند الكشوف .	﴿ لا إِكْرَاهَ في الدِّينِ ﴾ حجّة على كلّ متعصّب مترمّت ، لا يؤمن بحرّيّة اختيار العقيدة .
وأقام الحاكم الإسباني (ليكاسي) محاكم التّفتيش في الفيليبين ، وتتبّع المسلمين لتنصيرهم ، وفي عام ١٥٩٥ م استُرِقّ المسلمون لأنّهم مسلمون وهُدِمت المساجد .	تسامح ، إخاء ، أُخُوّة وحساب الخلق على الله لوبون : « فالحقّ أنّ الأُمَمَ لم تعرف فاتحين راحمين متسامحين مثل العرب ، ولا ديناً سَمْحاً مثلَ دينهم » ، (حضارة العرب ، ص : ٧٢٠ ، ط٣ ، ١٩٧٩ دار إحياء التّراث العربي ـ بيروت ، ترجمة عادل زعيتر) .
ابتزاز المواد الأوليّة : نهب خيرات الشّعوب المستَعمَرَة والتّركيز والتّأكيد على بقائها زراعيّة مستهلكة للمنتجات المصنّعة في أُوربة .	تصرف الضّرائب على النّاس حيث جبيت ، وتعود عليهم مشاريع وخيرات ، فلا ابتزاز ولا نهب .
والضّرائب الباهظة حدّث ولا حرج	وكلمة عمر رضي الله عنه ستبقى خالدة : « هذا من فقراء أهل الكتاب » ، ومنح الفقير غير المسلم من بيت مال المسلمين .

أيُّ وسَام تضعَه

سَمَاحَةُ الإسلاه



☆الحضارة: الرَّفاه والعلم والصِّحة للجميع، ثمرة من ثمرات الإسلام، وهديَّته الكبرى إلى الإنسانيَّة ﴿لاَ إِكْرَاهَ في الدِّين﴾.

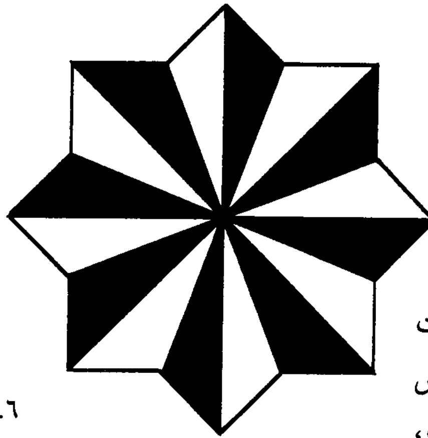


١ـ أخوّة إنسانيّة «أساويك بنفسي».

٢ـ ﴿إنَّ أكرمكم عند الله أتقاكم﴾ «والخَلْقُ كلُّهم عِيَالُ الله..».

٣ـ الرَّفاه للجميع نهضة زراعيَّة وصناعيَّة في كلِّ البلاد الَّتي فُتِحَت.

٤ـ عشرات الجامعات، ومئات المدارس لنشر العلم، «ليس منِّي إلاَّ عالم أو متعلِّم»، الأندلس، المغرب، ما وراء النَّهر.. خير مثال حضاري عالمي.



٥ـ محاربة الأمراض بتجفيف المستنقعات، وفتح المشافي (البيمارستانات) في كلِّ أرجاء البلاد التي فُتِحت، وبعضها تخصُّصي.

٦ـ شرع الإسلام العتق ولم يشرع الرِّق، وضيَّق مدخله، ووسَّع مخرجه.

٧ـ ﴿لا إكراه في الدِّين﴾ تسامح وإنسانيَّة وحساب الخلق على الله.

٨ـ تصرف الضَّرائب على النَّاس حيث جُبِيَت، وتعود عليهم مشاريع وخيرات فلا ابتزاز ولا نهب.

بشريَّة على صَدْرِهَا ؟

أَمْ سَمَاجَةُ الاستعمار ؟



التخلف: الفقر والجهل والمرض، هديَّة الاستعمار للعالم، وهنا مرتعه الخصب منذ ساعاته الأولى.

صور الاستعمار وآثاره

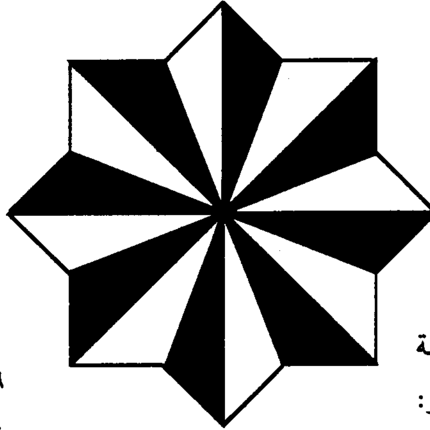
١- إبادة شعوب: ٢٠ مليون قتيل في كشوف أمريكة وإبادة حضارات: الإنكا والمايا والآزتيك.

٢- العنصريَّة: في أمريكا وأوربة وجنوبي إفريقية وحقوق الإنسان للرجل الأبيض.

. الفقر: في كلِّ البلاد الَّتي فُتِحَت: ـند، مصر، إفريقية، جنوب شرق ية .. مع انتشار المجاعات.

ـ الجهل: إغلاق المدارس، مع سياسة لتَّجهيل ومحاربة التَّقدم العلمي، مصر: ٩٠٪ أميُّون، وكذلك في الهند مخلَّفات لاستعمار البريطاني، وكذلك في إفريقية جنوب شرقي آسية.

٥- المرض: قضت موجات الطَّاعون على الملايين في المستعمرات، ولعدم توافر مشاريع الشُّرب عشرات الأمراض التي استوطنت المستعمرات.



٦- الرَّقيق: ٢٠ مليون زنجي إفريقي في أمريكا وحدها، (صيدوا) من شواطئ القارة الإفريقيَّة.

٧- محاكم التَّفتيش وصمة عار في جبين أوربة على مرِّ التَّاريخ.

٨- ابتزاز المواد الأوَّليَّة، نهب خيرات الشعوب المستَعمَرة وابقاؤها زراعية مستهلكة للمنتجات الأُوربيَّة.

الجـزائر المصـدِّرة للخيرات قبـل ١٨٣٠ م ديونها ٢٦ مليون دولار . دخلهـا القـومي ١٣ مليـار دولار سنوياً تسـدِّد فوائـد وعمولات ٩ مليـارات كل سنة والرَّقم الأوَّل (٢٦) ثابت .	يقول (فـانْسَـان مـونتيـه) أستـاذ اللُّغة العربيَّة والتَّاريخ الإسلامي بجامعة باريس : « اخترتُ الإسـلامَ لأنَّـــه دينُ الفطرة ، اخترتـه دينـاً ألقى بـه وجـهَ ربِّي .. ومن أسبـاب إسـلامي تسـامح الإسلام تُجَاهَ أبناء الأديان الأُخرى » . والمستشرق الألمــاني أُولرش هيرمان : « الَّـذي لفت نظري أثنـاء دراستي لهـذه الفترة ـ فترة الفتـوح الإسـلاميَّـة في العصور الوسطى ـ هـو درجـة التَّسـامـح الَّتي تمتَّع بها المسلمون .

فأي وسام تضعه البشرية على صدرها :

سماحة الإسلام ، أم سماجة الاستعمار ؟!

صورتـان متلازمتـان في تـاريخ البشريَّـة ، مـا أبشع الأولى وأسوأهـا ، ومـا أروع الثانية وأجملها : الأولى : صورة بيت المقـدس يوم الجمعـة ١٥ تموز ١٠٩٩ حيث وحشيَّـة الصَّليبيِّين والـدِّمـاء سواقي ، والثـانيـة : يـوم الجمعـة ١٢ ت ١ ، ١١٨٧ ، حيث استعـادة القدس على يد صلاح الدِّين حيث أبت أخلاقه الإسلاميَّة الرَّد بالمثل ملقِّناً الغرب درساً في تسامح الإسلام ، وروحه الإنسانيَّة .



تعصُّب المسلمين

ومِمَّا أسقطه الغربيُّون ـ برعاية الكنيسة ـ علينا ، قولهم :

« يتحتَّم على المسلم أن يعلن العداوة على غير المسلمين حيث وجدهم ، لأنَّ محاربة غير المسلم واجب ديني »[(١)] .

« في القرن السَّابع للميلاد برز في الشَّرق عدوٌّ جديد ، ذلك هو الإسلام الَّذي أُسِّس على القوَّة ، وقام على أشدِّ أنواع التَّعصُّب ، لقد وضع محمد السَّيف في أيدي الَّذين اتَّبعوه ، وتساهل في أقدس قوانين الأخلاق ، ثمَّ سمح لأتباعه بالفجور والسَّلب ، ووعد الَّذين يهلكون في القتال بالاستمتاع الدَّائم بالملذَّات »[(٢)] .

« إنَّ هؤلاء العرب قد فرضوا دينهم بالقوَّة ، وقالوا للنَّاس : (أَسلموا أو موتوا) ، بينما أتباع المسيح ربحوا النُّفوس ببرِّهم وإحسانهم »[(٣)] .

« إنَّ الإسلام يبثُّ في المسلمين روح البغض للأغيار والشِّقاق وحبِّ الانتقام .. »[(٤)] .

كيف يصل التَّعصُّب بأصحابه إلى قلب المفاهيم وعكس الحقائق ؟

(١) تاريخ الشُّعوب الإسلاميَّة ، كارل بروكلمان ، ص : ٧٨ .

(٢) البحث عن الدِّين الحقيقي ، المنسنيور كولي ، ص : ٢٢٠ .

(٣) تاريخ فرنسة ، هـ . غيومان ، فـلوستير ، ص : ٨٠ـ٨٢ .

(٤) مصر الحديثة ، كرومر ، انظر : الإسلام روح المدنيَّة ، ص : ١٣ .

ونركِّز على كلمة (تعصُّب) بكلِّ ما تحمل من معانٍ ، لأنَّه يستحيل أن يكون من نعنيهم من المستشرقين والمبشِّرين يجهلون أبسط الحقائق والمعارف عن الإسلام ، وهؤلاء قبل غيرهم يعرفون ويعلمون علم اليقين أنَّ كتاب المسلمين (القرآن الكريم) مصدر شريعتهم الأوَّل ، فرضَ بآياتٍ صريحة يفهمها أبسط النَّاس ، بما لا يقبل أي التباس على المسلمين أن يحسنوا معاملة غير المسلمين أحسن معاملة ، وخصوصاً منهم (المسيحيِّين) ، حيث ورد بحقِّهم :

﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِنْ بَعْدِ إِيْمَانِكُم كُفَّاراً حَسَداً مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِم مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة : ٢/١٠٩] .

﴿ ... وَقُولُوا لِلنَّاسِ[1] حُسْناً وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ﴾ [البقرة : ٢/٨٣] .

﴿ .. وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [البقرة : ٢/١٩٥] .

﴿ ٱدْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴾ [المؤمنون : ٢٣/٩٦] .

﴿ وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ [العنكبوت : ٢٩/٤٦] .

﴿ وَلاَ تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلاَ السَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ [فُصِّلت : ٤١/٣٤] .

﴿ لاَ يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ☆ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ

---

(١) لكلِّ النَّاس ، مسلمهم وغير مسلمهم .

في الـدِّينِ وَأَخْرَجُـوكُم مِنْ دِيـارِكُمْ وَظَـاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَـوَلَّـوْهُم وَمَنْ يَتَـوَلَّهُمْ فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [الممتحنة : ٦٠/٨و٩] .

إنَّ روح الصَّليبيَّة المقيتـة العميـاء لا تـزال تسيطر على عقـول معظم المستشرقين ، وجُـلِّ المبشِّرين وتطمس قلـوبهم ، فينفثـون سمـوم أحقـادهم تهجُّمات واتِّهـامـات وإسقاطات .

يقول المبشِّر (رايـد) حرفيّـاً : « إنَّني أُحـاول أن أنقل المسلم من محمَّـد إلى المسيح ، ومع ذلك يظنُّ المسلم أنَّ لي في ذلك غاية خاصَّة ، أنا لا أُحبُّ المسلم لذاته ، ولا لأنَّه أخٌ لي في الإنسـانيَّـة ، ولولا أنِّي أُريـد ربحـه إلى صفـوف النَّصـارى لمـا كنت تعرَّضت لـه لأُساعده »[1] .

فبينمـا يقبل المسلمون بينهم وجود أديـان مغـايرة لـدينهم ، ويرفضون إكراه أحـد على ترك مِلَّته : ﴿ لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾ [البقرة : ٢/٢٥٦] ، ويرضون أن يتـألَّف المجتمع من المسلمين وغير المسلمين ، ويُشَرِّعون نظماً عـادلـة لتطبَّق عليهم وعلى من في ذمَّتهم من المسيحيِّين أو اليهود ، بينما نفعل ذلك ، نرى المسيحيَّـة تتبرَّم من الـديـانـات الأُخرى ، وترسم سياستها الظَّاهرة والباطنة لإبادة خصومهـا أو تحقيرهم وحرمـانهم ، حتَّى ترغمهم على ترك دينهم ، وتجبرهم على النَّصرانيَّة جبراً[2] .

الإسلام مـدَّ يـده لمصـافحـة أتبـاع الأديـان الأخرى لتحقيق التَّعـاون على إقـامـة العدل ، ونشر الأمن ، وصيانة الدِّماء أن تُسْفَك ، وحماية الحرمات أن تنتهك .

---

(١) التَّبشير والاستعمار ، ص : ١٩٢ .

(٢) التَّعصُّب والتَّسامح ، ص : ٥٦ ، وفي التَّوراة : « ويقف الأجـانب ويرعون غنمكم ويكون بنـو الغريب حرَّاثيكم وكرَّاميكم ، أمَّا أنتم فتـدعون كهنـة الرَّبِّ تسمَّون خـدَّام إلهنـا ، تـأكلون ثروة الأُمم وعلى مجـدهم تتأمَّرون » [إشعياء : ٦١/٥و٦] .

والإسلام لم يقم على اضطهاد مخالفيه ، أو مصادرة حقوقهم ، أو تحويلهم بالإكراه عن عقائدهم ، أو المساس الجائر لأموالهم وأعراضهم ودمائهم .

ولن ينسى التَّاريخ أنَّ الإسلام ربط ضمير المؤمن بمثل أعلى ، فالعدل قوام التَّعامل مع كلِّ النَّاس ، فلا تفاوت بسبب قرابة ، أو مودَّة أو عداء .. ولا اعتداء على الأنفس أو الأموال أو الأعراض ، لذلك : تحوَّل البدو المسيحيُّون ببلاد الشَّام إلى الإسلام بالتَّسامح ، وإنَّ العرب المسيحيِّين الَّذين يعيشون في وقتنا هذا بين جماعات مسلمة لشاهد على هذا التَّسامح[1] . وهذا ينطبق على الشَّمال الإفريقي والأندلس وفارس وما وراء النَّهر .

ويعيش في البلاد الإسلاميَّة على مرِّ تاريخها مسيحيُّون ويهود ، ويعيش مسلمون في بلاد غير إسلاميَّة ، فكيف كانت معاملة هؤلاء ؟ وكيف كانت معاملة أولئك ؟ فإذا طفنا في العالم الإسلامي ، فهل نسمع شكاية مسيحي أو يهودي ضدَّ المسلمين ؟

أمَّا المسلمون الَّذين يعيشون تحت كنف حكومات غير إسلاميَّة ، فياللهول ، إنَّ ضروب القسوة والوحشيَّة ، الَّتي ارتكبت في فلسطين من قبل الصَّليبيِّين ، جعلت (غليوم الصُّوري) يقول : لو أراد كاتب أن يصف رذائلهم الوحشيَّة ، لخرج من طور المؤرِّخ ليدخل في طور القادح الهاجي .

ولقد سُفِكَت دماء المسلمين في إسبانية ، عندما أصدر الملكان الكاثوليكيَّان (فرديناند وإيزابيلا) أمراً خلاصته : لما كان الله قد اختارهما لتطهير مملكة غرناطة من الكفرة ، فإنَّه يحظِّر وجود المسلمين فيها ، ويُعاقب المخالفون بالموت ، أو مصادرة الأموال .

وفي الفليبين ، وتايلاند ، وبورما ، والحبشة ، وغينية ، وزنجيبار ، وبلغارية ، وفرنسة ، وإنكلترة ، وأمريكة .. ما واقع المسلمين ؟ إنَّ المسلمين يلاقون من المجتمعات

(١) الدَّعوة إلى الإسلام ، ص : ٦٩ و ٧٠ .

غير الإسلاميَّة ألواناً من الاضطهاد ، والمضايقة ، وحماية ورعاية لكلِّ هجمة أو افتراء على دينهم ونبيِّهم وتاريخهم ..

ولن ينسى التَّاريخ لمحمد الفاتح[١] أنَّه حمى الكنيسة الإغريقيَّة ، وحرَّم اضطهاد المسيحيِّين تحريماً قاطعاً ، وأعطى للبطريرك والأساقفة من الحصانات ونفوذ الكلمة ما يعدُّ بحقٍّ صورة نابضة من صور تسامح الإسلام مع أهل الكتاب ، وكذلك عُومل الأساقفة نفس المعاملة الحسنة في كلِّ الولايات الَّتي تخضع للدَّولة العثمانيَّة .

« ومن أُولى الخطوات الَّتي اتَّخذها محمد الثَّاني (محمد الفاتح) بعد سقوط القسطنطينيَّة ، وإعادة إقرار النِّظام فيها ، أن يضمن ولاء المسيحيِّين ، بأن أعلن نفسه حامي الكنيسة الإغريقيَّة ، فحرَّم اضطهاد المسيحيِّين تحريماً قاطعاً ، ومنح البطريق الجديد مرسوماً يضمن له ولأتباعه ولمرؤوسيه من الأساقفة حقَّ التَّمتُّع بالامتيازات القديمة ، والموارد والهبات الَّتي كانوا يتمتَّعون بها في العهد السَّابق ، وقد تسلَّم جنَّاديوس ، أوَّل بطريق بعد الفتح العثماني من يد السُّلطان نفسه عصا الأُسقفيَّة الَّتي كانت رمز هذا المنصب ، ومعها كيس يحتوي على ألف دوكة ذهبيَّة »[٢] .

وليس أدل على تسامح المسلمين مع المسيحيِّين من كلمات (ريتشارد ستبر) وهو تاجر إنكليزي كان في آسية الصُّغرى (تركية) سنة ١٨٧٥ م ، حيث قارن بين المسلمين الأتراك ، وبين المسيحيِّين في معاملة المسيحيِّين أنفسهم ، فقال : « وعلى الرَّغم من أنَّ الأتراك بوجه عام شعب من أشرس الشُّعوب بسيرهم في أعمال الظَّلام .. سمحوا للمسيحيِّين جميعاً ، للإغريق مهم واللاَّتين أن يعيشوا محافظين على دينهم ، وأن يصرفوا ضمائرهم كيف شاؤوا ، بأن منحوهم كنائسهم لأداء شعائرهم المقدَّسة في القسطنطينيَّة ، وفي أماكن أُخرى كثيرة جدّاً ، على حين أستطيع أن أُؤكِّد بحقٍّ ، بدليل اثني عشر عاماً

(١) محمد الثَّاني (الفاتح) العثماني : (١٤٢٩ ـ ١٤٨١ م) فاتح القسطنطينيَّة سنة ١٤٥٣ م .

(٢) الدَّعوة إلى الإسلام ، ص : ١٧٠ و ١٧١ .

قضيتها في إسبانية ، أَنَّنا لا نُرْغَم على مشاهدة حفلاتهم البابويَّة فحسب ، بل إنَّنا في خطر على حياتنا وسِلَعِنا »[١] .

هذا .. ولم تعرف المسيحيَّة التَّسامح حتَّى بين أتباعها إن اختلف المذهب ، ولن نتحدَّث مطوَّلاً عن الحروب الَّتي نشبت في أُوربة إبان الإصلاح الدِّيني ، ونكتفي بمثال واحد فقط :

ملحمة (سان بارتلمي)[٢] : مذبحة أمر بها سنة ١٥٧٢ م شارل التَّاسع ، وكاترينا دوميديسيس ، حينما قتلت كاترينا خمسة من زعماء البروتستانت في باريس ، ظنَّت أنَّهم يأتمرون بها وبالملك ، ولم يكد ينتشر الخبر في باريس حتَّى شاع أنَّه شُرع في قتل الخوارج[٣] . فانقضَّ أشراف الكاثوليك والحرس الملكي والنَّبَّالة والجمهور على البروتستانت ، وقتلوا منهم أَلْفَي نسمة ، وقد قلَّد سكَّان الولايات الفرنسيَّة بعامل العدوى أهل باريس ، فسفكوا دماء ستَّة إلى ثمانية آلاف نسمة .

ولم تنل حادثة السَّان بارتلمي أيَّام وقوعها شيئاً من الانتقاد في أُوربَّة الكاثوليكيَّة ، وقد أوجبت حماساً يفوق الوصف ، فكاد فيليب الثَّاني يصبح مجنوناً لشدَّة فرحه يوم بلغه وقوعها ، وانهالت التَّهاني على ملك فرنسة أكثر من انهيالها عليه لو نال نصراً عظيماً في ساحة الوغى .

وما بدا السُّرور على أحد كما بدا على البابا غريغوار الثَّالث عشر ، فقد أمر بضرب أوسمة خاصَّة تخليداً لذكراها ، رُسِمَت على هذه الأوسمة صورة غريغوار الثَّالث عشر ، وبجانبه ملك يضرب بالسَّيف أعناق الخوارج ، ثمَّ هذه العبارة :

---

(١) الدَّعوة إلى الإسلام ، ص : ١٨٣ .

(٢) تسامح الإسلام وتعصُّب خصومه ، ص : ١١٥ ، عن : روح الثَّورات ، غوستاف لوبون ، ص : ٤٤ .

(٣) الخوارج هنا يعني البروتستانت الَّذين خرجوا عن سلطة بابا روما الكاثوليكي .

« قُتِلَ الخوارج » ، كما أمر بإيقاد نيران الفرح ، وبضرب المدافع ، وبتكليف الرَّسَّام فازاري أن يصوِّر على جدران الفاتيكان مناظرها .

وممَّا يؤسف له أنَّ رجال التَّبشير من النَّصارى يتغافلون عن سماحة الإسلام وأهله ، ويكرِّسون مليارات الدُّولارات ، وكل أوقاتهم ، وكل نشاطهم لمحاربة الإسلام وتشويه سمعته ، وسمعة رسوله الكريم ، وهو الذي أمر المسلمين بحسن معاملة كل إنسان ، احتراماً (لإنسانيَّته) ، أمَا وقف ﷺ ـ كما أورد البخاري ـ لجنازة ، احتراماً وتلطُّفاً ، فقيل له : إنَّها جنازة نصراني ، فقال ﷺ مُعَلِّماً : « أَوَليسَ إنساناً ؟ » .

وعلى الرَّغم من ذلك ، يقول المستشرق الفرنسي (كارادي ڤو Carra de Vaux) : « ظلَّ محمد زمناً طويلاً معروفاً في الغرب معرفة سيِّئة ، فلا تكاد توجد خرافة ، ولا فظاظة إلاَّ نسبوها إليه »[(١)] .

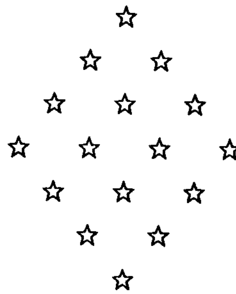
وقال (ليون روش) في كتابه : (ثلاثون عاماً في الإسلام)[(٢)] : « اعتنقتُ دين الإسلام زمناً طويلاً لأدخل عند الأمير عبد القادر [الجزائري] دسيسة من قبل فرنسة ، وقد نجحت في الحيلة ، فوثق بي الأمير وثوقاً تامّاً ، واتَّخذني سكرتيراً ، فوجدت هذا الدِّين الَّذي يُعيبُه الكثيرون أفضل دين عرفته ، **فهو دين إنساني طبيعي اقتصادي أدبي** ، ولم أذكر شيئاً من قوانيننا الوضعية إلاّ وجدته مشروعاً فيه ، بل إنَّني عدت إلى الشَّريعة التي يسمِّيها جول سيمون الشَّريعة الطَّبيعيَّة فوجدتها كأنَّها أُخذت عن الشَّريعة الإسلاميَّة أخذاً ، **ثمَّ بحثت عن تأثير هذا الدِّين في نفوس المسلمين فوجدته قد ملأها شجاعة وشهامة ووداعة وجمالاً وكرماً ، بل وجدت هذه النُّفوس على مثال مايحلم به الفلاسفة من نفوس الخير والرَّحمة والمعروف في عالم لا يعرف الشَّرَّ واللَّغو والكذب ، فالمسلم بسيط لا يظن بأحد سوءاً ، ثمَّ هو لا يستحلُّ محرَّماً في طلب الرِّزق** .. » .

(١) مناهج المستشرقين : ٢٢/١ ، عن كتاب (المحمديَّة) ، ص : ٢٠ (ط . باريس ١٨٩٧ م) .

(٢) الإسلام روح المدنيَّة ، ص : ٥٣ .

هذه شهادة سياسي فرنسي أقام في بلاد المسلمين ثلاثين سنة ، تعلَّم في أثنائها اللُّغة العربيَّة وفنونها ، وقرأ العلوم الإسلاميَّة ، وعاشر المسلمين في الجزائر وتونس واسطنبول ومصر والحجاز ، ولا شكَّ أنَّه قد اختبر بهذه المدَّة الطَّويلة أحوال المسلمين من سائر الشَّرائح ، فهو إذا كتب يكتب عن رويَّة وحكمة ومعرفة ، لا كما كتب بروكلمان والمنسنيور كولي وكرومر ... من الأوهام والكذب والخلط ، لأنَّ روح التَّعصُّب كانت ترفرف فوقهم عندما كتبوا ما كتبوا .

من عرف الحقَّ عزَّ عليه أن يراه مهضوماً ، فكيف بمن رأى الباطل يسقط افتراءاته على الحقِّ ظلماً وحقداً وتعصُّباً ، والباطل على علم ويقين بأنَّه يفتري ويكذب ، ويَصِمُ الآخرين بما فيه ؟





ظلم الأقلِّيَّات غير الإسلاميَّة في المجتمع الإسلامي وقهرها

يقول اللُّورد كرومر في كتابه (مصر الحديثة) : « إنَّ الإسلام يبثُّ روح التَّعصُّب في أهله ، ويجعلهم ينفرون ممَّن لا يدين معهم به ، وإنَّ القرآن يغرس في عقول متَّبعيه بُغْضَ الأغيار ، وحبَّ الانتقام »(١) .

وكلَّما ذُكِرَ الإسلام (شريعة للمجتمع) ، قيل : وما مصير الأقلِّيَّات ؟!

لقد عاشت الأقلِّيَّات الدِّينيَّة والعرقيَّة في المجتمع الإسلامي على امتداد عهوده أفضل بكثير ممَّا عاشت الأقلِّيَّات في المجتمعات الأخرى ، وليس الأمر بغريب ، لأنَّ الإسلام ـ عقيدة ومنهجاً ـ يأمر أتباعه بالتَّسامح ، والصَّفح ، والإحسان :

﴿ لاَ يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ [الممتحنة : ٨/٦٠] .

وأوصى رسول الله ﷺ بهذه الأقلِّيَّات الدِّينيَّة ـ أي بأهل الذِّمَّة ـ خيراً ، والباحث في أحوال النَّصارى في العهد الرَّاشدي والأُموي والعبَّاسي ، وفي أحوال اليهود في الأندلس ، وفي غيرها من أقاليم العالم الإسلامي ، يجد أنَّ لهم ما لنا وعليهم ما علينا ، بدليل ، وصول كثير من أفراد هذه الأقلِّيَّات إلى مراكز مرموقة في الدَّولة الإسلاميَّة ،

(١) الإسلام روح المدنيَّة ، ص : ٩١ .

وإن وُجِدَ في فترة تاريخيَّة اضطهاد ، فهو اضطهاد ناشئ عن فساد الحكم والحاكم ، وهو اضطهاد عمَّ المجتمع مُسْلِمَهُ وغير مُسْلِمِه .

قال البطريق النَّسطوري (يشوع باف الثَّالث) ، في رسالة بعثها إلى المطران سمعان رئيس أساقفة فارس : « إنَّ العرب الذين منحهم الله سلطانَ الدُّنيا ، يشاهدون ما أنتم عليه وهم بينكم كما تعلمون ذلك حقَّ العِلْم ، ومع ذلك فهم لا يحاربون العقيدة المسيحيَّة ، بل على العكس ، يعطفون على ديننا ، ويكرمون قسسنا وقدِّيسي الرَّب ، ويجودون بالفضل على الكنائس والأديار »[(١)] .

لقد كان للأقلِّيَّات في ظلِّ (الحكم الإسلامي) من الحقوق المدنيَّة ما يكفل لها العيش الكريم ، فمن واجبات الحاكم المسلم والدَّولة المسلمة ، المحافظة على أعراض هذه الأقلِّيَّات غير المسلمة وأموالها وحرِّيَّاتها الشَّخصيَّة ، وكل ما تقوم به أو عليه الحياة الإنسانيَّة الجديرة بالإنسان ، « فالإسلام ينظر إلى غير المسلمين في الدَّولة المسلمة ، على أنَّهم مواطنون لا أقلِّيَّات ، لهم من الحقوق ، وعليهم من الواجبات ما تستوجبه المواطنة في ظلِّ النِّظام الإسلامي »[(٢)] .

وأكثر من ذلك : « لقد وضع الإسلام حدّاً للاضطهاد الدِّيني بين المسيحيِّين في إسبانية ، فكفل لهم حرِّيَّة العقيدة ، فصار المسيحي يفصح عن رأيه في شؤون دينه ، غير ملقٍ بالاً للكنيسة أو لرجال الدِّين الذين لم يستطيعوا في ظلِّ الحكم الإسلامي تطبيق ما كانوا يطبِّقونه قبل الفتح على مخالفيهم من أذى واضطهاد وسجن وتشريد وعقاب يصل إلى حدِّ القتل ، وكل الذي استطاعوا فعله هو المجادلة والحوار ، وهو موقف الإسلام في المسائل الخلافيَّة حيث لا مكان للانتقام ، ولا سبيل إلى الأذى ، ولكن جدال بالَّتي هي أحسن في سياج من أدب المحاجَّة ، ونطاق من سماحة القول ،

---

(١) الدَّعوة إلى الإسلام ، ص : ١٠٢ .

(٢) الغزو الفكري والتَّيَّارات المعادية للإسلام ، ص : ٧٧ .

وكانت الدَّولة الإسلاميَّة الأندلسيَّة حين تحمي حرِّيَّة الاعتقاد بين أصحاب المذاهب والآراء الميسحيَّة المتخالفة ، لا تنصر فريقاً على فريق ، وإنَّما تقف من هؤلاء وأُولئك موقف الحياد الكامل »[1] .

« لقد ظلَّ نصارى الأندلس آمنين على شعائرهم وعقائدهم ، طالما كانوا يعيشون في ظلِّ الحكم الإسلامي ، فلما انحسر الحكم الإسلامي عن بعض البلاد ، ووقعوا تحت حكم الملوك النَّصارى ، عادت إليهم متاعبهم ، ولقوا من الاضطهاد ما لقوا ، ونشب صراع كبير اشترك فيه أنصار الشَّعائر المستعربيَّة (يعني النَّصارى الَّذين عاشوا تحت الحكم الإسلامي) وأنصار الشعائر الرُّومانيَّة ، وفي ذلك الصِّراع سالت دماء ، وزهقت أرواح »[2] .

أمَّا الحقيقة التي لا يستطيع أحدٌ إنكارها ، فهي ما عانته ـ وتعانيه ـ الأقلِّيَّات الدِّينيَّة ، بل والمذهبيَّة ، في معظم أنحاء العالم غير الإسلامي ، وفي دول أُوربَّة بصورة خاصة[3] ، ودراسة لأحوال اليهود في معظم الدُّول الأُوروبيَّة ، مع مقارنة سريعة لأحوالهم في المجتمع الإسلامي ، يتبيَّن الفارق ، وتتوضَّح صورة من الذي يبث بأتباعه روح التَّعصُّب ، ويجعلهم ينفرون ممن لا يدين بدينهم ، ومن الذي يغرس في عقول متَّبعيه بغض الأغيار ، وحبَّ الانتقام ؟!!

لقد عاملت الدَّولة الإسلاميَّة الأقلِّيَّات فيها بروح من التَّسامح والإنسانيَّة ، أمَّا معاملة الأقلِّيَّات معاملة التَّعصُّب والقمع ، والعنف والوحشيَّة ، فأمر تعرفه دول أُوربة حقَّ المعرفة في وقتنا هذا ، وفي غيره من الأوقات ، فالأقلِّيَّات المسلمة الَّتي أُجبرت في كثير من دول آسية وإفريقية على ترك دينها ، أو تضطهد حتَّى الموت ، نسأل عنها بعثات التَّبشير النَّصرانيَّة في الشَّرق الأقصى ، وفي إفريقية .

---

(١) مناهج المستشرقين : ٣٠٢/٢ .

(٢) مناهج المستشرقين : ٣٠٣/٢ .

(٣) حتَّى (اللاَّساميَّة) مشكلة غربيَّة صُدِّرت إلينا .

(**إسقاط**) ، لأنَّ أُوربة تعلم علم اليقين ، ما فعلته الكنيسة ـ والبابا بالذَّات ـ من سحق الأقلِّيَّات ، مع إذاقة كثير من رجال العلم المبرِّزين من النَّصارى أنفسهم ، أشد أنواع المظالم والعسف من أيدي إخوانهم في الدِّين بسبب أنَّ أولئك ينتمون إلى طائفة غير طائفتهم ، ولقد وعى التَّاريخ أحداث (**محاكم التَّفتيش**)(١) التي شكِّلت بمرسوم بابوي في تشرين الثَّاني (نوفمبر) سنة ١٤٧٨ م ، وما زال التَّاريخ يئن ألماً ويغضي خجلاً عند ذكر أعمال الكنيسة في أُوربة عموماً ، والأندلس خصوصاً .. إنَّها همجيَّة نافست فيها همجيَّة القبائل المتوحِّشة ، وطاولت بها ما يفعله الوثنيُّون الَّذين يجعلون من أنفسهم قرباناً لآلهتهم .

ويروي (وِل ديورانت) صوراً مؤلمة مروِّعة لما اقترفته المسيحيَّة في إسبانية على يد رئيس الأساقفة الإسباني (أكزيمينيس) ، الذي أقنع إيزابيلا وفرديناند بأن ينقضا عهدهما مع المسلمين باعتبار أنَّهم كَفَرَة ، فأصدرا في سنة ١٤٩٩ م مرسوماً يخيِّر المسلمين : إمَّا أن يدخلوا المسيحيَّة ، أو يغادروا إسبانية ، ولم يكتف (أكزيمينيس) بذلك ، بل قاد بنفسه حملة همجيَّة لحرق التُّراث العربي الإسلامي ، فذهب إلى غَرْنَاطة وطلبيرة ، وأغلق المساجد ، ونصب المحارق العامَّة الَّتي التهمت جميع الكتب والمخطوطات العربيَّة تماماً .

وفي ١٨ شباط (فبراير) ١٥٠٢ م صدر مرسوم ملكي يخيِّر المسلمين في إسبانية ، بين الدُّخول في المسيحيَّة ومغادرة البلاد ، فاحتجَّ المسلمون بأنَّ أسلافهم سمحوا بالحرِّيَّة الدِّينيَّة لجميع العقائد والطَّوائف في الأندلس ، ولكن هذا الاحتجاج لم يلقَ استجابة تذكر ، بل حرَّم الْمَلِكان (فرديناند وإيزابيلا) على الأطفال الذُّكور دون الرَّابعة عشرة ، والإناث دون الثَّانية عشرة أن يغادروا إسبانية مع آبائهم ، ممَّا يعني إرغامهم على دخول المسيحيَّة ، كما سمحا للأُمراء الإقطاعيِّين أن يسترقّوا ما يشاؤون من المسلمين ، وأن يجرُّوهم مكبَّلين بالأغلال في الشَّوارع والطُّرقات .

---

(١) انظر أعمال (محاكم التَّفتيش) في كتاب : (تسامح الإسلام تعصُّب خصومه) ، ص : ٧٩ .

ولقد وصف الكاردينـال (ريشيـه) مرسوم ١٥٠٢ م الآنف الـذِّكر بـأنّـه : « أكبر حدث همجي في التّاريخ »[١] .

وجرت أعمال التّنصير بالفظاعة ذاتها في كلِّ المدن الإسبـانيَّـة ، دون الالتفـات إلى صراخ المسلمين وشكاويهم وثوراتهم ، وعلى الرغم من فظاعة ما حدث ، فـإنَّ أعمـال محـاكم التَّفتيش تجاوزت كل حدٍّ ، وستظلُّ على مدار التَّاريخ وصمة عـارٍ على جبين المسيحيَّـة والمسيحيِّين ، حيث أصدرت أحكامـاً بـالحرق ضـد سبعمئـة مسلم في إشبيليـة ، ومئـة وثلاثـة عشر آخرين في (أبلـه) ، وفي مـدينـة طليطلـة مَثُلَ أمـام المحكمـة ألف ومئتـا شخص ، حكم عليهم بالإعدام في جلسة واحدة ، استغرق انعقـادهـا بضع دقـائق ، وكان يُطْلَب من المسلم إمَّا التَّحوُّل إلى النَّصرانيَّة أو الموت حرقاً[٢] .

ولمـا قـاوم المسلمـون التَّنصير وأَبَـوْه ، عُـدُّوا ثـوَّاراً متَّصلين بـالمغرب والقـاهرة والقسطنطينيَّـة ، وبـدأ القتـل فيهم ، فثـاروا في غرنـاطـة وريفهـا (كالبيـازين والبشرات) ، فمزِّقـوا بـلا رأفـة ، وفي ٢٠ تموز (يـوليـو) ١٥٠١ م ، أصـدر الْمَلِكان الكاثوليكيَّان أمراً خلاصته :

« إنَّه لما كان الله قد اختارهما لتطهير مملكـة غرنـاطـة من الكَفَرَة (!) فـإنَّـه يحظَّر وجود المسلمين فيها ، ويُعاقَبُ المخالفون بالموت ، أو مصادرة الأموال » .

فهاجرت جموع المسلمين إلى المغرب ناجيـة بـدينهـا ، ومن بقي من المسلمين أخفى إسلامه ، وأظهر تنصُّره ، فبدأت محاكم التَّفتيش نشـاطهـا الوحشي المروِّع ، و (الإعـدام حرقاً) هو الحكم الغالب عنـد القُسس الـذين يشهـدون مع الملكَيْن الكاثوليكيَّن حفلات الإحراق[٣] .

---

(١) قصَّة الحضارة : ٩٩/٦ .

(٢) رسالة الجهاد ، العدد ٧٥ ، ص ٥٠ (آذار ـ مارس ١٩٨٩ م) .

(٣) انظر (محاكم التَّفتيش) ص : ٩١ وما بعدها .

وفي إفريقية ، يذكر (كارل بيتر) : إذا استطاع المبشِّرون تنصير حاكم في مقاطعة أو بلد ما ، أصرُّوا عليه أن ينشر المسيحيَّة في بلاده بالقوَّة ، وأن يعاقب بالقتل كلَّ من دان بالإسلام[1] .

إنَّها سياسة الكنيسة أينما حلَّت ، أو وصلت .

قال (موريس) في كتابه (تاريخ الاستعمار : ٢١/١) : إذا أبت الأُمَّة المقهورة أن تنتفع بنظام الأمور الذي تمنحهم إيّاه حكوماتهم المتمدينة ، أصبح واجباً محتَّم الأداء على الدُّول الْمُمَدْيَنَة أن تبيدهم إبادة ، « إنَّه يجب أن يباد الأهلي ، أو أن ينقص من عددهم حتَّى يصبح حكمهم سهلاً ، وفي هذه العمليَّة الَّتي تخالف المدنيَّة ، يجب أن تريق أمَّة الدَّولة الحاكمة كثيراً من دمائها ، وتنفق من غالي ذخائرها من أجل خاطر المدنيَّة »[2] .

وهذا ما فعلته هولندة ـ مثلاً ـ في إندونيسية ، لا مع الأقلِّيَّات المسلمة ، بل مع الأغلبيَّة المسلمة ، من حرق القرى ، وتدمير البلدان ، وقتل المئين من النُّفوس البريئة في كلِّ حادثة ، بعد أن أنزلت السُّكَّان المسلمين منزلة العبوديَّة أينما وُجِدوا[3] .

الأقلِّيَّات .. سلعة تكال بمكيالين .

إذا كان المسلمون ٩٠٪ ، والمسيحيُّون ١٠٪ ـ كما في إندونيسية مثلاً ـ نودي بحماية الأقلِّيَّات ورعياتهم ، لينعموا في بحبوحة من الأمن والسَّلام والرَّفاهية ، وليتمتَّعوا بفرص الازدهار والتَّسلُّط على الأغلبيَّة المسلمة .

أمَّا إذا كان المسيحيُّون ٩٠٪ أو ٨٠٪ ، والمسلمون ١٠٪ أو ٢٠٪ فلا حقوق للأقلِّيَّات .

---

(١) الهلال والصَّليب ، ص : ٧٢ .

(٢) الهلال والصَّليب ل ص : ١٧٧ .

(٣) الهلال والصَّليب ، ص : ١٨١ .

المسلمون في إريترية ٨٠٪ من مجموع السُّكَّان ، وإدارة أرضهم ٩٠٪ من أعضائها نصارى .

وفي الحبشة أكثر من ٥٠٪ من مجموع السُّكَّان مسلمون ، لن نتحدَّث عن أحوالهم أيَّام هيلا سيلاسي ، أو أيَّام هيلا مريام ، فالفقر والبؤس والاستبعاد عن مراكز الحكم معروفة عالميّاً .

أمَّا في جنوبي الفيليبين فالأقلِّيَّات المسلمة معرَّضة لحرب الإبادة من عصابات (الإيلاجا) ـ أي الجرذان ـ الَّتي ترتدي زيّاً موحَّداً مرسوماً عليه الصَّليب .

هذا نزر يسير عن معاملة الأقلِّيَّات في المجتمعات غير المسلمة ، بينما حفظت مبادئ الإسلام لغير المسلم حقوقه ، وعرَّفته بواجباته الَّتي لا تختلف كثيراً عن واجبات المسلمين ، وفي كلِّ الظُّروف عُومِلَ غير المسلم (إنساناً) تُحْتَرَم إنسانيَّته :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُم شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [الحجرات : ١٣/٤٩] .

و « **الخلق** كلُّهم عيال الله ، وأحبُّهم إلى الله أنفعُهُم لعياله » .

ومع هذا كلِّه ، يُتَّهم الإسلام بظلم الأقلِّيَّات ، ويُوصَفُ المسيحيُّون بالتَّسامح والمحبَّة ، فأيُّ ظلمٍ يصيب الإسلام وأهله حين (يُسقِط) الغربيُّون الصَّليبيُّون علينا ما فيهم من أعمال وصفات ؟

الأقلِّيَّات موجودة في المجتمع الإسلامي منذ أيَّامه الأولى ، ودليل تسامح الإسلام ، وجودهم في هذا المجتمع مع معابدهم ، أحراراً في عقائدهم وكتبهم ..

ولنسأل التَّاريخ الأوروبي كيف عُومِلَ الكاثوليك في المجتمعات البروتستانيَّة ؟ وكيف عُومِلَ البروتستانت في المجتمعات الكاثوليكيَّة ؟ ويذكِّرنا التَّاريخ مجيباً : إنَّها المذابح المتبادلة بينهما ، ويا للعجب .. كيف يقلبون الحقائق ، ويلصقون بغيرهم ما لصق بهم .



العصور الإسلاميَّة المشرقة عصور وسطى مظلمة

يشيع الغرب الاستشراق والتَّبشير ومن ورائهما الكنيسة ، أنَّ الإسلام من نتاج العُصور الوسطى ، والعصور الوسطى أعصر[1] ظلام لم تأتِ بخير ، فقد كانت حرباً على العِلْم والعلماء والمعرفة[2] .

إسقاط جديد ، نوضِّحه بالتَّالي :

ما ذنبنا نحن العرب والمسلمين ، وقد فُرضت علينا التَّقسيمات الَّتي وضعها الأُوربيُّون للعصور التَّاريخيَّة ، والَّتي تنسجم وتتفق مع العصور التَّاريخيَّة الَّتي شهدتها أُوربة بالنِّسبة إلى بداياتها ونهاياتها ، فجعلوها : (قديمة ، ووسطى ، وحديثة ، ومعاصرة) ، وألبسونا هذه العصور كما لو كانت لنا ، فجاءت كثوبٍ فُصِّل لغيرنا ، فهو لا يتَّفق لا حجماً ، ولا شكلاً ، ولا لوناً ، ولا نوعاً مع ما يناسبنا .

لقد قالوا : تبدأ العصور الوسطى بسقوط رومة على أيدي البرابرة الجرمان سنة ٤٧٦ م ، حين انهارت في أُوربة الحضارة اليونانيَّة ـ الرُّومانيَّة ، الَّتي كانت تسود في العصور القديمة ، وساد أُوربة دمار حضاري ، وانهيار فكري ، وتأخُّر اقتصادي ،

(١) جمع (العصر) : أَعْصُرٌ وأَعْصار وعُصُر وعُصُور ، (اللِّسان : عصر) .

(٢) قلت لقسِّيس : العقل يقبل التَّوحيد ، ويرفض التَّثليث وينكره ، ويقبل الله قيُّوم السَّماوات والأرض ، ويرفض الله المصلوب .. فأجابني حرفيّاً : هذه أفكار دين الأعصر الوسطى المظلمة ؟!.

فعمَّها ظلام الجهل والتَّعصُّب والجمود والتَّخلُّف ، واستمرَّ ذلك حوالي ألف عام ، واعتبروا سقوط القسطنطينيَّة نهاية لهذه العصور الوسطى المظلمة ، وذلك عام ١٤٥٣ م ، حيث بدأ عصر النَّهضة يشعُّ نوره في أُوربة .

في هذه الفترة نفسها من التَّاريخ ، أي خلال ما سمَّته أُوربة بالعصور الوسطى المظلمة ، ظهر في بلاد العرب الإسلام ، وبدأت دولته واتَّسعت رقعته وازدهرت حضارته ، فتقدَّمت العلوم ، وكثر العلماء ، وانتشرت في المشرق والمغرب المؤسَّسات العلميَّة من مدارس ومكتبات ، فكانت هذه الأعصر بالنِّسبة للمشرق العربي الإسلامي ومغربه وأندلسه ، أعصر العلم والتَّقدُّم والتَّسامح والرُّقي الحضاري ، فكيف نفرض عليه ثوباً أُوربيّاً ممزَّقاً قذراً ، ونقول هذه هي العصور الوسطى ؟

إنَّ لكلِّ منطقة في العالم تقسيمات تاريخيَّة تتَّفق مع أوضاعها ومميزاتها ، فنقول : بالنِّسبة لتاريخ العرب هناك عصور قديمة ، وعصر وسيط مشرق ذهبي ، وعصر حديث ، ولكلٍّ من هذه العصور ما يميِّزه ، ويجعله يختلف اختلافاً كبيراً عمَّا هو عليه في أُوربة .

ومن المنطق القول : تنتهي العصور القديمة بظهور الإسلام ، لتبدأ العصور الوسطى بظهوره ، فظهور الإسلام أبرز من سقوط روما في أيدي البرابرة عام ٤٧٦ م ، وأشد تأثيراً في الحضارة الإنسانيَّة ، سقوط روما واقعة محلِّيَّة أو أُوربيَّة على الأكثر ، بينما ظهور الإسلام وانتشاره كان ذا نتائج حضاريَّة عامَّة ، بعيدة الأثر في آسية وإفريقية وأُوربة معاً .

سقوط روما قضاء على حضارة شائخة كانت في طريق الزَّوال ، ولقد كان بالإمكان أن تسقط بكل حدث آخر ، وسقوط روما كان متوقَّعاً ، لتغوص أُوربة في ظلام دامس قروناً ، ثمَّ أخذت تستردُّ أنفاسها بما عرفته من حضارتنا الإسلاميَّة .

أمَّا الإسلام (دين التَّوحيد) الخـالص ، فهو حضـارة جـديـدة عـالميَّـة ، ولم يترك الإسلام آسية الوثنيَّة ، وأوربة البيزنطيَّـة ، وإفريقيـة السَّـاذجـة على مـا كانت عليـه ، مثلما فعل سقوط روما بأُوربة ، بل نقل هذه القارَّات الثَّلاث إلى حضارة جديدة فتيَّـة قويَّة في الدِّين واللُّغة والسِّياسة والعلوم[١] ..

ومع ذلك .. صحيح تماماً أنَّ العصور الوسطى هي عصور ظلام ، وحرق للعلماء ، ومحاربة للمعرفة .. هذا حقٌّ لا ريب فيه ، لكنَّه لا ينطبق إلاَّ على أُوربة ، إنَّـه ينطبق هناك ، ولا ينطبق هنا .

ينطبق هناك ..

عندما عاشت أُوربـة قرونـاً طويلـة ، من القرن الخـامس الميلادي ، وحتَّى القرن الرَّابع عشر الميلادي ، تحت رحمة الْمَثَلَيْن القائلَيْن :

« الجهل رأس العبادة » و « القذارة من الإيمان » .

هنـاك .. عنـدمـا رُسِمَت في عصورهم الوسطى خريطـةُ الجنَّـة والنَّـار ، وعنـدمـا استدلَّ السِّير كونان دويل بتجاربـه الشَّخصيَّـة على وجود الجنَّـة والنَّـار ، حيث قـال : إنَّني أعرف أنَّه توجد الآن آلاف من الأرواح تحوم حولنا[٢] .

وفي مجـال الطِّب ، استمرَّت الكنيسـة حتَّى أواخر القرن التَّـاسـع عشر الميـلادي ، تروِّج للشِّفاء بالمعجزات (التَّدخُّل المعجز في الشِّفـاء) ، وصرَّح القـدِّيس (أمبروز) أنَّ قواعد الطِّب مخالفة للعلم الإلهي وللتَّهجُّد والصَّلاة .

ولقد حضر العلاَّمة (أنـدروديكسون وايت) صـاحب كتـاب : (تـاريخ الصِّراع بين اللاَّهوت والعِلْم في المسيحيَّة) ، حفلاً أُقيم في كاتدرائيَّة نابولي سنة ١٨٥٦ م ، حضره

(١) الباحث ، السَّنة الثَّانية ، العدد الثَّاني (١٩٧٩) : د . عمر فرُّوخ : « من أُسس تجديد التَّاريخ : إعـادة النَّظر في تقسيم الأزمنة التَّاريخيَّة » .

(٢) المثل الأعلى في الأنبياء ، ص : ١٣٣ .

كبار رجال البلاط ، وكبار الشَّخصيَّات ، لتسييل دم القدِّيس (يـانوريوس) حـامي المدينة[1] ، وكانوا يعمدون إلى تسييل دمه كلَّما حلَّ بالمدينة وباء ، إيماناً منهم بـأنَّـه إذا سال أُنقذت المدينة ، أمَّا هذه الدِّماء فعبارة عن مادة كيمياويَّـة موضوعـة في قـارورتَيْن محفوظتَيْن بين جدران الكاتدرائيَّة في مكان بارد من شأنه أن يجمدها ، فإذا مـا تنـاولها القسِّيس ، وأخذ يقلِّبها بين يديه بعض الوقت ، سالت المادة ، أمر علمي بسيط جـدّاً ، ولكن كان النَّاس وعِلِّيَّـةُ القوم في نـابولي يعتقـدون حتَّى ذلـك الوقت ، أنَّ المـادَّة الَّتي تحتوي عليهـا القـارورتـان ، هي فعلاً دم القـدِّيس (يـانواريوس) الَّـذي يسيل ، إذا ما أراد القدِّيس حماية المدينة[2] .

والحقُّ أنَّ أبسط قواعد الاحتياطـات الصِّحيَّـة كانت مهملـة تمـامـاً في أُوربـة حتَّى منتصف القرن التَّاسع عشر ، ولقد حدث نتيجة لـذلـك من القرن السَّـابع عشر ثلاثون طاعوناً كبيراً[3] .

هذا بعض ما كان هناك في العصور الوسطى ، حيث محاربة العلم ، ومحاكمة العلمـاء ورجال الفكر ، على ما يعدُّه رجال الدِّين مخـالفـاً لآراء الكنيسـة ، ولقـد هلـك بسبب هذه المحاكمات الكثير من العلماء ورجال الفكر .

أمَّـا هنـا في العصـور الـوسطى .. فلم تشهـد بـلادنـا وحضـارتنـا صراعــاً بين العلم والـدِّين ، لأنَّ الإسلام يَحُضُّ على العلم بشتَّى ميـادينـه وفروعـه ، ولقـد كانت كلٌّ من بغداد وقرطبة حاضرتَيْ العالم العلميَّتين ، بما فيهما من جامعات ومكتبات وعلماء وطلبـة عِلْم .

فشتَّـان بين (إسقـاطهم) وبين الحقيقـة الَّتي تصفعهم ، ومـا أبعـد الفـارق بيننـا وبينهم ، وها هو العلاَّمة (دريبر) يصفعهم بالحقيقة ، عندما قال في كتابه : (المنازعة

(١) هذه الحادثة السَّخيفة في القرن التَّاسع عشر ، فما بالك في القرون الوسطى الَّتي سبقت ؟

(٢) حضارة الإسلام ، جلال مظهر ، ص : ٥٣٨ .

(٣) المرجع السَّابق ، ص : ٥٣٩ .

بين العلم والدِّين) : « إنَّ جامعات المسلمين مفتوحة للطَّلبة الأُوربيِّين الَّذين نزحوا إليها من بلادهم لطلب العلم ، وكان ملوك أُوربة وأُمراؤها يغدون على بلاد المسلمين ليعالجوا فيها » .

لقد كانت بلادنا مصدر إشعاع فكري وعلمي حضاري إلى أُوربة .

إنَّ جربرت الفرنسي درس في مدارس إشبيلية وقرطبة ، وتزوَّد بالعلوم العربيَّة الإسلاميَّة ، ثمَّ نُصِّب بابا في روما باسم سلفستر الثَّاني[1] ، وأدخل معارف عرب الشَّرق والغرب إلى أُوربة[2] .

والمنصف منهم يعلم : « لو لم يظهر العرب على مسرح التَّاريخ لتأخَّرت نهضة أُوربَّة الحديثة عدَّة قرون »[3] .

إنَّ شمس الإسلام سطعت على الغرب في العصور الوسطى ، ولم تبدأ النَّهضة الأُوربيَّة الحديثة إلاَّ بعد اطِّلاع الأُوربيِّين على الحضارة الإسلاميَّة ، كما أنَّ التَّرجمات عن العربيَّة كانت المصدر الوحيد للتَّدريس في جامعات أُوربَّة نحو ستَّة قرون ، ويمكن القول إنَّ تأثير المسلمين في بعض العلوم كعلم الطِّب مثلاً ، دام إلى زمن متأخِّر جداً ، فقد بقيت كتب ابن سينا تدرَّس في جامعة مونبلييه إلى أواخر القرن الماضي .

وماذا بعد شهادة (غوستاف لوبون) ، الَّذي تمنَّى لو أنَّ العرب استولوا على فرنسة لتغدو باريس مثل قرطبة في إسبانية ، مركزاً للحضارة والعلم ، حيث كان رجل الشَّارع فيها يكتب ويقرأ ، ويقرض الشِّعر أحياناً ، في الوقت الَّذي كان فيه ملوك أُوربّة لا يعرفون كتابة أسمائهم ويبصمون بأختامهم .

ويضيف (لوبون) ساخراً ممَّن يقارن العرب المسلمين في العصور الوسطى

(١) سلفستر الثَّاني Sylvestre ، بابا روما : (٩٩٩-١٠٠٣ م) ترجم إلى اللاَّتينيَّة كتباً عربيَّة كثيرة .

(٢) تاريخ العرب العام ، سيديو ، ص : ٣٧٨ ، ترجمة عادل زعيتر .

(٣) القول للأستاذ (ليبري) ، روح الدِّين الإسلامي ، ص : ٢٧٠ .

بالأُوربيِّين في الوقت ذاته : « فقد كان الوضع على عكس الوقت الحاضر تماماً ، العرب هم المتحضِّرون ، والأُوربيُّون هم المتأخِّرون ، ولا أدلَّ على ذلك من أنَّنا نسمي تاريخ أُوربَّة في ذلك الوقت العصور المظلمة » .

قال الإمام محمد عبده في ردِّه على هانوتو : إنَّ أوَّل شرارة ألهبت نفوس الغربيِّين فطارت بها إلى المدنيَّة الحاضرة ، كانت من تلك الشُّعلة الموقدة ، الَّتي كان يسطع ضوؤها من بلاد الأندلس على ما جاورها ، وعمل رجال الدِّين المسيحي على إطفائها مدَّة قرون ، فما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً ، واليوم يرعى أُوربّة ما نبت في أرضهم بعدما سُقِيَت بدماء أسلافهم المسفوكة بأيدي أهل دينهم في سبل مطاردة العلم والحرِّيَّة وطوالع المدنيَّة الحاضرة .

إنَّ العهد الذَّهبي لأُمَّتنا الإسلاميَّة ، كان في الأعصر الوسطى ، حيث كان الكتاب يوزن بالذَّهب ، وحينما ملك أجدادنا ناصية العلم ، ملكوا ناصية العالم ، لذلك قال (هاليارد) في كتابه : (الكيمياء حتَّى عصر نيوتن ، ص : ١٠) ، بعد أن عدَّد فضل المسلمين في التَّطبيقات العلميَّة للكيمياء العمليَّة : « لكلِّ هذه الخيرات الَّتي حقَّقها لنا الباحثون المسلمون ، دعنا نقدِّم فروض الولاء والتَّقدير لأتباع محَّمد » .

وشهادة أُخرى يقدِّمها (نيكلسون) : « وما المكتشفات اليوم لتعدُّ شيئاً مذكوراً بالقياس إلى ما ندين به للرُّوَّاد المسلمين ، الَّذين كانوا قبساً مضيئاً لظلام العصور الوسطى في أُوربَّة » .

إنَّ عصور أُوربَّة الوسطى ، عصور مظلمة يقيناً ، حيث حاربت الكنيسة العلم ، وأحرقت العلماء ، وجعلت منهجها قروناً :

« الجهل رأس العبادة ».

و « القذارة من الإيمان » .

ومن هنا جاء (الإسقاط) ، رمتني بدائها وانسلَّت .



يَعْبُدُ المسلمون ثالوثاً !؟

كلُّ شيء خطر في البال ، إلاَّ نسبة عبادة (الثّالوث) إلى الإسلام .

جاء في ملحمة رولان[1] ، والّتي تمثّل فرسان شارلمان وهم يحطّمون أصنام المسلمين ، أنَّ المسلمين يعبدون ثالوثاً مؤلَّفاً من : ترفاجانت ، ومحمد ، وأبولون[2] .

واستدلَّ بعض القُسس في دلهي ـ كما يذكر رحمة الله خليل الرَّحمن الهندي[3] ـ في إثبات التَّثليث في الإسلام ، بقوله تعالى : ﴿ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ ﴾ ، فيه ثلاثة أسماء (الله الرَّحمن الرَّحيم) ، فيدلُّ على التَّثليث[4] .

وسمع بعض الظُّرفاء في مدينة (دلهي) قول المبشِّر في إثبات التَّثليث بقوله تعالى : بسم الله الرَّحمن الرَّحيم فقال له : إنَّك قصَّرت ، عليك أن تستدلَّ بالقرآن

(١) ملحمة رولان Chanson de Roland كُتِبَت في القرن الحادي عشر الميلادي من قبل الشّاعر النُّورماني (تيرولد) عن حدث وقع في القرن الثّامن الميلادي ، طَغت عليها صفة الأُسطورة ، وتمجيد شارلمان دون سند من الواقع ، ومن أخطائها التّاريخيّة ، قولها إنَّ شارلمان مكث في إسبانية سبع سنوات لإخضاعها ، وقولها دانت لشارلمان جميع إسبانية المسلمة ماعدا سرقسطة ، مع أنَّ شارلمان عندما غزا إسبانية لم يستطع احتلال سرقسطة ، فارتدَّ شمالاً في تموز ٧٧٨ م ، وفي ممرٍّ من الممرّات الجبليّة قرب (بنبلونة) يسمّى ممر رونسفال Roncevailes أو (باب الشّيزري) هاجم المسلمون والبشكنس جيش شارلمان بتدبير من صقر قريش ، وأبادوا نصف جيش شارلمان ، فعاد إلى فرنسة يجرُّ أذيال الخيبة ، (مواقف حاسمة في تاريخ الإسلام ، ص : ٧٧ ، المسلمون في أُوربّة ، ص : ١٣٤) .

(٢) الغزو الفكري ، ص : ١٣ . (٣) إظهار الحق : ٤٩/١ .

(٤) أسماء الله الحسنى تسعة وتسعون ، فهل يعني ذلك تعدُّد الآلهة في الإسلام ؟!!.

على التَّسبيع ووجود آلهة بمبدأ سورة المؤمن (غافر) وهو هكذا ﴿ حم ☆ تَنْزِيلُ الكِتَابِ مِنَ اللهِ العَزِيزِ العَلِيمِ ☆ غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ العِقَابِ ذِي الطَّوْلِ ﴾ ، بل عليك أن تقول : إنَّه يثبت وجود سبعة عشر إلهاً من القرآن ، بثلاث آيات من آخر سورة الحشر ، الَّتي ذكر فيها سبعة عشر اسماً من الذَّات والصِّفات متوالية .. (إظهار الحق : ٨٨/١ و ٨٩) .

« إنَّ إله الإسلام جبَّار مترفِّع ، بينما إله المسيحيَّة عطوف متواضع ، ظهر في صورة إنسان هو الابن الإلَه ، فعقيدة التَّثليث المسيحيَّة قرَّبت الإنسان من الإله ، وعقيدة التَّوحيد الإسلاميَّة باعدت بينهما ، وجعلت الإنسان خائفاً متشائماً »[١] .

و « إنَّ أساس العقيدة العربيَّة كانت الوثنيَّة العميقة الجذور »[٢] .

أولاً .. ما حرص الإسلام على شيء في صلب عقيدة المسلم حرصَه على التَّوحيد الخالص : ﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْماً عَظِيماً ﴾ [النِّساء : ٤٨/٤] ، ﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيداً ﴾ [النِّساء : ١١٦/٤] .

وجعل التَّوحيد المصَفَّى في سورة الإخلاص : ﴿ قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ ☆ اللهُ الصَّمَدُ ☆ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ☆ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ ﴾ [الإخلاص : ١/١١٢-٤] .

أمَّا التَّثليث في الإسلام ، فقد جاء في القرآن الكريم في معرض التَّنديد به ، ونبذه ، ورفضه .

﴿ يَاأَهْلَ الكِتَابِ لاَ تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلاَ تَقُولُوا عَلَى اللهِ إِلاَّ الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ[٣] فَآمِنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ

(١) مناهج المستشرقين ٢٢/١ ، عن المجلَّة التَّبشيريَّة (العالم الإسلامي) تشرين الأوَّل (أكتوبر) ١٩٥٥ م .
(٢) القول للمستشرق ميور Muir ، مناهج المستشرقين : ٦٤/١ .
(٣) والمخلوقات كلُّها منه : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّموَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ ﴾ [الجاثية : ١٣/٤٥] .

وَلاَ تَقُولُوا ثَلاثَةٌ ٱنْتَهُوا خَيْراً لَكُمْ إِنَّمَا اللهُ إِلهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّموَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلاً ﴾ [النِّساء : ٤/١٧١] .

﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ وَمَا مِنْ إِلهٍ إِلاَّ إِلهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ☆ أَفَلاَ يَتُوبُونَ إِلى اللهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ☆ مَا الْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلانِ الطَّعَامَ[1] ٱنْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الآيَاتِ ثُمَّ ٱنْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ [المائدة : ٥/٧٣ـ٧٥] .

والتَّثليث دخيل على المسيحيَّة الَّتي أنزلها الله على المسيح عليه السَّلام :

﴿ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابنُ اللهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ[2] قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ [التَّوبة : ٩/٣٠] .

لقد عرفت العقائد الوثنيَّة القديمة جميعها التَّثليث ، « لا تخلو كافَّة الأبحاث الدِّينيَّة المأخوذة عن مصادر شرقيَّة ، من ذكر أحد أنواع التَّثليث ، أو التَّولُّد الثُّلاثي (أي الآب والابن وروح القدس) »[3] .

« كان عند أكثر الأمم البائدة الوثنيَّة تعاليم دينيَّة جاء فيها القول باللاَّهوت الثَّالوثي (أي إنَّ الإله ذو ثلاثة أقانيم) »[4] .

« وكان الوثنيُّون القدماء يعتقدون بأنَّ الإله واحد ، ولكنَّه ذو ثلاثة أقانيم »[5] .

---

(١) ﴿ كَانَا يَأْكُلاَنِ الطَّعَامَ ﴾ كسائر البشر ، وهذا يثبت الحاجة إلى الطَّعام والشَّراب ، والإله منزَّه عن الاحتياج ، وفيها إشارة إلى ما يلزم عن تناول الطَّعام والشَّراب من فضلات !.

يضاهئون : يشاكلون ويقلِّدون ، يشابهون ويجارون (ابن كثير : ٢/٣٤٨) .

(٣) القول لبرتشرد في (خرافات المصريِّين الوثنيِّين ، ص : ٢٨٥) .

(٤)[٨] موريس : (الآثار الهنديَّة القديمة : ٦/٣٠) .

(٥) سكَّان أوربَّة الأُول ، ص : ١٩٧ .

« وإذا أرجعنا البصر نحو الهند ، نرى أنَّ أعظم وأشهر عباداتهم اللاَّهوتيَّة هو التَّثليث ، (أي القول بأنَّ الإله ذو ثلاثة أقانيم : براهما ، وفشنو ، وسيفا) »[1] .

« لقد وجدنا بأنقاض هيكل قديم ، دكَّه مرور القرون ، صنماً له ثلاثة رؤوس على جسد واحد ، والمقصود منه التَّعبير عن الثَّالوث »[2] .

« وكما نجد عند الهنود ثالوثاً مؤلَّفاً من براهما وفشنو وسيفا ، وكذلك نجد عند البوذيِّين ، فإنَّهم يقولون إنَّ بوذا إله ، ويقولون بأقانيمه الثَّلاثة »[3] .

« والبوذيُّون الَّذين هم أكثر سكَّان الصِّين واليابان يعبدون إلهاً مثلَّث الأقانيم ، يسمُّونه (فو) ، ومتى ودُّوا ذكر هذا الثَّالوث النَّقي يقولون الثَّالوث النَّقي (فو) ، ويصوِّرونه في هياكلهم بشكل الأصنام الَّتي وجدت في الهند ، ويقولون أيضاً : (فو) واحد ، لكنَّه ذو ثلاثة أشكال ، ويوجد في أحد المعابد المختصَّة (ببوتالا) في منشورية ، تمثال (فو) مثلَّث الأقانيم »[4] .

وقال (دوان Doane) : « وأنصار لاوكومتذا ، وهو الفيلسوف الصِّيني المشهور وكان قبل المسيح [عليه السَّلام] بأربع سنين وستمئة ، يدعَوْن (شيعة تاوو) ، ويعبدون إلهاً مثلَّث الأقانيم ، وأساس تعاليم فلسفته اللاَّهوتيَّة أنَّ (تاوو) ، وهو العقل الأبدي انبثق منه واحد ، ومن هذا الواحد انبثق ثانٍ ، ومن الثَّاني انبثق ثالث ، ومن هذه الثَّلاثة صدر كلُّ شيء ، وهذا القول بالتَّوليد والانبثاق أدهش العلاَّمة موريس ، لأنَّ قائله وثني »[5] .

---

(١) دوان : (خرافات التَّوراة والإنجيل وما ياثلها في الديانات الأُخرى ، ص : ٣٦٦) .

(٢) موريس : (الآثار الهنديَّة القديمة : ٣٧٢/٤) .

(٣) فابر في : (أصل عبادة الأوثان) : Faber-Origin of Heathen Idolatry

(٤) دوان ، ص : ٣٧٢ ، وداڤس في كتابه (الصِّين) : ١٠١/٢-١٠٣ .

(٥) دوان (خرافات التَّوراة ..) ، ص : ١٧٢ .

وفي الديانة المصريَّة القديمة : (جب) إله الأرض ، تزوَّج (نوت) إلهة السَّماء ، وأنجبا (رع) أي الشَّمس[1] . وكان كهنة معبد ممفيس يعبدون هذا الثَّالوث المقدَّس .

والبابليُّون[2] والآشوريُّون[3] كان لهم ثالوث مقدَّس أيضاً : مردوخ الكلمة ، ويدعونه أيضاً (ابن الله البكر) ، وآنو وبعل ، ولكن بدَّل الآشوريُّون مردوخ البابلي بالإله الوطني (آشور) .

كما اقتبسوا من البابليِّين أيضاً الثَّالوث : سين (إله القمر) ، وهو الابن الأكبر للإله إنليل ، وشماش إله الشَّمس ، وهو القاضي الأعظم ، إله العدالة والحق والنُّور ، وعشتار ، وهي نجمة الزُّهرة ابنة آنو ، وأحياناً ابنة سين ، وهي إلهة الحبِّ والحرب والخصب ، وأصبحت عشتار قرينة آشور ، وتسمَّى (بعليت) ربَّة السَّماء والمعارك .

واليونانيُّون يقولون إنَّ الله مثلَّث الأقانيم ، وكلُّ الأشياء عملها الإله الواحد مثلَّث الأسماء والأقانيم[4] .

وكان الرُّومان الوثنيُّون القدماء يعتقدون بالتَّثليث ، وهو أوَّلاً الله ، ثمَّ الكلمة ، ثمَّ الرُّوح[5] .

والفُرس عبدوا إلهاً مثلَّث الأقانيم ، وهو : أُورمزد ، ومترات ، وأهريمان .

أُورمزد : الخلَّاق ، مترات : ابن الله المخلِّص والوسيط ، وأهريمان : المهلك[6] .

وجاء في كتابات (زوسترسانن) الشَّرائع الفارسيَّة : إنَّ الثَّالوث اللاَّهوتي مضيءٌ

---

(١) تاريخ الشَّرق الأدنى القديم ، ص : ١٢٤ ، للأُستاذ عبد العزيز عثمان .
(٢) البابليُّون : في بلاد ما بين النَّهرين : (١٨٩٣-١٥٩٤ ق.م) .
(٣) الآشوريُّون : في بلاد ما بين النَّهْرَيْن : (١٣٩٢-٦١٢ ق.م) .
(٤) كتاب : ترقِّي التَّصوُّرات الدِّينيَّة : ٣٠٧/١ .
(٥) العلاَّمة (فسك) في كتابه : الخرافات ومخترعوها ، ص : ٢٠٥ .
(٦) دوان ، ص : ٨٠٩ .

في العالم ، ورأس هذا الثَّالوث موناد ، وكان الآشوريُّون والفينيقيُّون يعبدون آلهة مثلَّثة الأقانيم[1] .

« وكان للفنلنديِّين - وهم برابرة كانوا يسكنون شمالي بروسيا في القرون الخالية - إله اسمه (تريكلاف) ، وقد وجد تمثال له في (هرتونجربرغ) له ثلاثة رؤوس على جسد واحد »[2] .

والإسكندناڤيون ، عبدوا إلهاً مثلَّث الأقانيم ، هو : أُودين ، وتورا ، وفري ، ويقولن عن هذه الثَّلاثة أقانيم : إنَّها إله واحد ، ووجد صنم يمثِّل هذا الثَّالوث المقدَّس بمدينة أُوبسال من السُّويد ، وكان أهالي السُّويد ، والنروج ، والدانيمارك يفاخرون بعضهم في بناء الهياكل لهذا الثَّالوث[3] .

وسكَّان سيبرية القدماء عبدوا أيضاً مثلَّث الأقانيم[4] .

والمكسيكيُّون عبدوا إلهاً مثلَّث الأقانيم يدعونه (تزكتليبوكا) ، ومعه (إهوتز ليبوشتكي) ، و (تلا لوكا)[5] .

يقول المطران برتولوميو : أرسلت القس فرنسيس هرمنديز إلى المكسيك ليبشِّر بين الهنود الحمر - وكان يتقن لغتهم - بالديانة المسيحية ، وبعد مضي عام على تبشيره ، أرسل كتاباً إلى المطران ، يقول فيه : إن الهنود الحمر يؤمنون بإله كائن في السَّماء ، وإنَّ هذا مثلَّث الأقانيم ، وهو الإله الآب ، والإله الابن ، والإله روح القدس ، وهؤلاء الثَّلاثة إله واحد ، واسم الآب (بزونا) ، واسم الابن (باكاب) مولود من عذراء ، واسم الرُّوح القدس (إيكيهيا) ، ويعبدون صنماً اسمه (تنكاتنكا) ، يقولون عنه إنه واحد ذو ثلاثة أقانيم ، وإنه ثلاثة أقانيم إله واحد .

---

(١) الديانات القديمة : ٢/٨١٩ .

(٢) العلاّمة (بارخورست) في القاموس العبراني .

(٣) دوان ، ص : ٣٧٧ .

(٤) العقائد الوثنيَّة في الديانة المسيحيَّة ، ص : ٤٦ .

(٥) كنسيرو (آثار المكسيك القديمة) : ٥/١٦٤ .

وتحيَّر القديس جيروم[1] ، كما تحيَّر الآباء السَّابقون ، من التَّطابق الحاصل بين التَّثليث في الديانات الوثنيَّة القديمة ، وبين التَّثليث في المسيحيَّة : « فإنَّ الَّذين يشهدون في السَّماء هم ثلاثة : الآب ، والكلمة ، وروح القدس ، وهؤلاء الثَّلاثة هم واحد » ، [رسالة يوحنا الأولى : ٧/٥] ، إلا أنَّ لوذعيَّتهم ونباهتهم عَزَت ذلك إلى تدبير الشَّيطان الَّذي فعل ذلك قبل ظهور عيسى ، ليجعل دينهم هزواً وسخرية .

صدق الله العظيم : ﴿ وقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابنُ اللهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْواهِهِم يُضاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَروا مِنْ قَبْلُ قاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّى يُؤفَكُونَ ﴾ [التَّوبة : ٣٠/٩] .

ومع التَّثليث ، عرف الوثنيُّون الصَّلب والفداء أيضاً .

ورد عن الهنود بأن (كرشنا) المولود البكر ، الذي هو نفس الإله (فشنو) ، والَّذي لا ابتداء ولا انتهاء له على رأيهم ، تحرَّك حُنُوّاً كي يخلِّص الأرض من ثقل حملها ، فأتاها وخلَّص الإنسان بتقديمه نفسه ذبيحة عنه ، فصُلِب .

وكان الرُّومان واليونان يقدِّمون أنفسهم ذبيحة للآلهة ، استرضاء لها ، وكانوا في مصر يقدِّمون من البشر ذبيحة لفداء وخلاص الآخرين .

قال (هيجن) نقلاً عما كتبه (أندراوا الكروزيوس) ، وهذا الأخير أوَّل أُوربي دخل بلاد نيبال والتِّيبت ، وقال عند تكلُّمه عن الإله (أندرا) الَّذي يعبدونه ويقولون إنَّه سفك دمه بالصَّلب ، وثُقِبَ بالمسامير كي يخلِّص البشر من ذنوبهم ، إنَّ صورة الصَّلب موجودة في كتبهم .

وعبد المكسيكيُّون إلهاً مصلوباً ، دعوه المخلِّص والفادي ، ويدعون ابن الله بلغتهم (باكوب) أو (أُوبوكو) .

هذا غيض من فيض ، وقليل من كثير ، وومضة سريعة ، وقطوف قليلة مختارة

---

(١) القديس جيروم هو : أُوسابيوس هيرونيموس : (٣٤٧ ـ ٤٢٠ م) : من آباء الكنيسة ، كان واحداً من أكبر المدافعين عنها ، ترجم جزءاً كبيراً من (الكتاب المقدَّس) من العبريَّة إلى اللاتينيَّة .

عن التَّثليث عند النَّصارى ﴿ يُضاهِئونَ قَوْلَ الَّذينَ كَفَروا مِنْ قَبْلُ ﴾ ، عقيدة أدخلها (شاؤول) بولس إلى المسيحية ، بعد التوحيد الَّذي أُنزل على السيد المسيح .

(إسقاط) لم يخطر في بال ، المسلمون يعبدون ثالوثاً ، أحد أقانيه (محمَّد) . عبد النَّصارى ثالوثاً أحد أقانيه (يسوع) ، فأسقطوا ما فيهم - والعقل يأبى التَّثليث ، ويرفض غير التَّوحيد - على المسلمين ، يقول الله سبحانه وتعالى في محكم التَّنزيل ، مخاطباً نبيَّه محمَّداً ﷺ :

﴿ قُلْ إنَّما أنا بَشَرٌ مِثْلُكُم يُوحَى إليَّ أنَّما إلَهُكُم إلهٌ واحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صالِحاً ولا يُشْرِكْ بِعِبادَةِ رَبِّهِ أحَداً ﴾ [الكهف : ١١٠/١٨] .

وحين وفاة رسول الله ﷺ ، نزل نبأ وفاته على الصَّحابة كالصَّاعقة ، ولم يكد بعضهم يصدِّق بهذا النَّبأ ، قال أبو بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه عندها ، مخاطباً المسلمين :

« مَنْ كان يعبد محمَّداً فإنَّ محمَّداً قد مات ، ومَنْ كان يعبد الله فإنَّ الله حيٌّ لا يموت »[١] ، هذه عقيدة المسلم ، لا ما يدَّعون في (إسقاطهم) .

ولم يخلُ الغرب من صاحب كلمة حق ، يقولها ولو أغضب الكنيسة ، يقول (كلود إيتان ساڤاري) في مقدِّمة ترجمته للقرآن الكريم[٢] :

« أسَّس محمَّد ديانة عالميَّة تقوم على عقيدة بسيطة لا تتضمَّن إلاَّ ما يقرُّه العقل من إيمان بالإله الواحد الَّذي يكافئ على الفضيلة ، ويعاقب على الرَّذيلة ، فالغربيُّ المتنوِّر وإن لم يعترف بنبوَّته ، لا يستطيع إلاَّ أن يعتبره من أعظم الرِّجال الَّذين ظهروا في التَّاريخ » .

---

(١) ابن هشام : ٦٥٥/٢ ، ورواه البخاري مطوَّلاً في باب مرض النَّبي ﷺ .

(٢) Clude Etienne Sawary: Le Coran: 2, ed, Paris 1783.

خاتمة

ومَليحةٍ شَهِدتْ لَها ضرّاتُها
والفضْلُ ما شهدت به الأعداءُ

وبعد ..

ما حوته دفَّتا هذا الكتاب ، بعض ما كان من المفروض تقديمه للقارئ العربي عموماً ، والمسلم خصوصاً ، ليعلم (إسقاط) التَّبشير والاستشراق على دينه وعقيدته ، ولعلَّ بعضهم سيرى فيما قدَّمنا تهجُّماً وعنفاً ، وعندها سيوجِّه اللَّوم إلينا قائلاً : ألم يكن من الممكن تخفيف اللَّهجة ؟!

اللَّوم لن يقع علينا ، لأنَّنا ما قمنا إلا بردِّ الافتراءات ، وتفنيد الإسقاطات ، وفضح الأكاذيب والإفك ، حبّاً للحقيقة ، وإنصافاً لعقيدةٍ ، وُظِّفت مليارات الدولارات ، ومئات الأُلوف من المبشِّرين ، للافتراء عليها ، ومحاربتها بشتَّى الأساليب غير الشَّريفة .

اللوم يقع على عاتق من افترى وأسقط ، مستغلاً جهل الجماهير في أُوربّة بالعقيدة الَّتي تُحدِّثهم الكنيسة عنها ، ومستغلاً جهل عدد كبير من أبناء المسلمين بدينهم ، لعزوفهم عن دراسته ، أو اطِّلاعهم على كلِّ جديد في ساحِ الفكر ، ولبعدهم العجيب عن المطالعة ، أو الاستزادة منها والمتابعة في أحسن الأحوال .

وليعلم التَّبشير والاستشراق ، ومن على نهجهما ، مهما قالوا من إسقاطات عن ديننا ، وما سيقولون من إسقاطات جديدة إن بقي في رحاب دجلهم ، أو ربوع

كذبهم إسقاطات يريدون رمي الإسلام ونبيِّه بها[1] ، أنَّه من صُلْب عقيدتنا الإسلاميَّة احترام السَّيِّد المسيح عليه السَّلام ، وأُمه مريم الطَّاهرة البتول ، واحترام جميع الأنبياء والمرسلين ، مع روح من التَّسامح والمودَّة والمحبَّة والأُلفة ، لا تزال الكنيسة تنكرها ، ولا تقرُّها ، ولا تدنو منها ولو خطوة واحدة :

﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ [البقرة : ٢٨٥/٢] .

هذا جزء يسير من عقيدة المسلم : ﴿ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ ﴾ ، والبابا (إينوشانيوس الثَّالث) يقول عن محمَّد ﷺ إنَّه (المسيح الدَّجال)[2] .

ويقول (الإكليروس) لرعاياه : كان محمَّد يدعو النَّاس لعبادته في صورة وثن من ذهب ، كان يصنع من أنفس الأحجار ، والمعادن في أحكم صنع ، وأدقِّ إتقان .

وفي قواميسهم (معاجمهم اللُّغويَّة) يسمُّون محمَّداً ﷺ (ماهوند : Mahound) ، وهذا يعني كما في معجم (Cassell's) : النَّبي المزيَّف محمَّد ، والرُّوح الشِّريرة ، والإله المزيَّف ، والشَّيطان ، وهي في الفرنسيَّة أيضاً (ماهون Mahun) وتعني المعاني القميئة السَّابقة .

وبلغ بهم الحقد حتَّى أشاعوا في كتاب قصص محمَّد : أن الإسلام يجيز اشتراك جملة رجال في زوجة واحدة !

---

(١) من إسقاطاتهم حديثهم عن زوجات النَّبي ﷺ متناسين الفضائح الجنسيَّة في أديرتهم وكنائسهم ، (انظر : سيرة بالتازاركوسا ، البابا يوحنا الثَّالث والعشرين ، تأليف : اليكسندر باراديسيس ، ترجمة : بسام اسخيطة ، دار طلاس ، ١٩٨٥) .

(٢) الغزو الفكري ، ص ١٣ .

متناسين سؤالاً يخطر على بال قارئ هذه العبارة فوراً : مَنْ أكلة لحم الخنزير ، نحن أم الأُوربيِّون ؟!!

وإذا كان البابا (يوحنا بول الثَّاني) في منشوره يبيِّن أنَّ هناك ميلاً سلبيّاً في الكنيسة ، وهي تلاقي مصاعب داخليَّة وخارجيَّة في الاندفاع التَّبشيري نحو غد المسيحيِّين ، بينما يشهد العالم تزايداً في الإقبال على الإسلام ، وانحساراً في المناطق المسيحيَّة في الشَّرق الأدنى وإفريقية ، وجسوراً للإسلام تتزايد في جنوبي أُوربّة ، فالإسلام هو الدِّين الوحيد الَّذي يتحدَّى انتشار المسيحيَّة ، أو التأثير على المسلمين ، فراح البابا يطلب من الولايات المتَّحدة تعزيز الدَّعم المالي لمضاعفة جهود التَّبشير .. كان من الأجدر له أن يبحث عن سبب كون الإسلام الأوَّل بين العقائد في العالم انتشاراً ، وبدعوة عفوية ، دون جهود مركَّزة تذكر ، ليعلم يقيناً ، أنَّ العقل اليوم - ونحن على أبواب القرن الحادي والعشرين - أصبح الْحَكَمَ في اعتناق العقيدة ، كما أصبح تحكيم العقل أساساً في مناقشة طروحات الشَّرائع المختلفة .

لقد قلت منذ سنة ١٩٧٤ في : (آراء يهدمها الإسلام) :

« أتوقَّع جازماً زوال الفلسفة المادِّيَّة وتداعيها بشكل كامل مع نهاية هذا القرن ، أو في مطلع القرن القادم ، وستصبح تاريخاً أمام ضربات العِلْم وحقائقه ، تُدَرَّس مع ميكانيك نيوتن التَّقليديَّة كمرحلة فكريَّة مرَّت على البشريَّة ، وسيجد العالم نفسه أمام واقع يدفعه بإلحاح إلى معرفة الله ، لا كبشر مثلنا ، بل قوَّة عظمى تسيِّر وتنظِّم الكون ،وبها يقوم الكون ، **وسيجد العالَمُ نفسَهُ بحاجة إلى دين يلائم العصر ، يجمع بين العِلْم والإيمان ، دين يجعل الإيمان مبنيّاً على العِلْم ، ويرفع العِلْم إلى مرتبة العبادة ، ولن يجد أمامه إلا الإسلام ليس غير »** .

أُذكِّر بهذا (التَّوقُّع) الذي تحقَّق منه أكثر من تسعين بالمئـة ، والَّـذي كان سنـده ، أنَّ كلَّ عقيدة تخالف الفطرة البشريَّة ، والعقل السَّليم ، ستُرْفض ، وستنهـار ، وسيُفَتَّش عن البديل ، ولن يكون بديل غير الإسلام لأنه :

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنيفاً فِطْرَةَ اللهِ الَّتي فَطرَ النَّاسَ عَلَيْها لا تَبْـدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ القَيِّمُ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ [الرُّوم : ٣٠/٣٠] .

وعدد لا يستهان به من المبشِّرين يعلمون الحقيقة اليوم :

﴿ الَّـذِينَ آتَيْنـاهُمُ الكِتَـابَ يَعْرِفُـونَـهُ كَمَـا يَعْرِفُـونَ أَبْنَــاءَهُم وإنَّ فَريقــاً مِنْهُم لَيَكْتُمونَ الْحَقَّ وهُم يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ١٤٦/٢] .

أما قال فردريك نيتشه (الفقرة ٣٨ في : عدو المسيح) بشأن (الإكليروس) :

« لا يخطئون فقط في كلِّ جملةٍ يقولونها ، بل يكـذبون ، أي إنَّهم لم يعودوا أحراراً في أن يكذبوا ببراءة ، وبسبب الجهل » .

إنَّها إسقاطات ، شعوراً بالنَّقص .

ولكنَّها إسقاطات فاضحة مكشوفة ، لا يلجـأ إليهـا من أُوتي ولو قـدراً بسيطـاً من الصِّدق أو الْخُلُق الكريم ، أو الإيمان بالله .

﴿ بَلْ نَقْـذِفُ بـالْحَقِّ عَلى البَـاطِـلِ فَيَـدْمَغُـهُ فـإذا هُـو زَاهِـقٌ ولَكُمُ الـوَيْـلُ مِمَّـا تَصِفُونَ ﴾ [الأنبياء : ١٨/٢١] .

صدق الله العظيم

والحمد لله ربِّ العالمين أوَّلاً وآخراً



المصادِر والمراجِع

أخطار الغزو الفكري على العالم الإسلامي : د . صابر طعيمة ، عالم الكتب ، ط ١ ، سنة ١٩٨٤ م .

آراء يهدمها الإسلام : شوقي أبو خليل ، دار الفكر ، ط ١ ، سنة ١٩٧٧ .

أُسطورة تجسُّد الإله في السيِّد المسيح : أشرف على التَّحرير البروفيسُّور جون هِك ، عرَّبه د . نبيل صبحي ، دار القلم بالكويت ، ط ١ ، ١٩٨٥ .

الإسلام : هنري ماسيه ، منشورات عويدات ، بيروت ، ١٩٨٣ .

الإسلام الأمس واليوم : محمَّد أراغون ، وكوي غارديه ، ترجمة علي المقلد ، دار التَّنوير ، بيروت ، ١٩٨٣ .

الإسلام بين العلم والمدنيَّة : الإمام محمَّد عبده ، كتاب الهلال ، العدد ١٤٤ سبتمبر ، ١٩٦٠ .

الإسلام روح المدنيَّة ، أو (الدِّين الإسلامي واللُّورد كرومر) : مصطفى الغلاييني بيروت ، ١٣٢٦ ـ ١٩٠٨ .

الإسلام في قفص الاتِّهام : شوقي أبو خليل ، دار الفكر ، ط ٥ ، سنة ١٩٨٢ .

الإسلام كبديل : الدكتور مراد هوفمان ، مؤسَّسة بافاريا ، ومجلَّة النُّور الكويتيَّة ، ط ١ ، ١٩٩٣ .

أُصول علم النَّفس : د . أحمد عزَّت راجح ، المكتب المصري الحديث ، الإسكندريَّة ، ط ٨ ، سنة ١٩٧٠ .

إظهار الحقّ : الشَّيخ رحمة الله خليل الرَّحمن الهندي ، مكتبة الثَّقافة الدِّينيَّة ، القاهرة ، ط ١ ، سنة ١٩٨٦ .

أضواء على المسيحيَّة : متولِّي يوسف شلبي ، (المجلس الأعلى الأندونيسي للدَّعوة الإسلاميَّة) ، الدَّار الكويتيَّة ، للطِّباعة والنَّشر والتَّوزيع ، ط ٢ ، سنة ١٩٧٣ .

الأعلام : خير الدِّين الزِّركلي ، دار العلم للملايِّين ، بيروت ، ط ٦ ، سنة ١٩٨٤ .

تاريخ أُوربَّة في العصور الوسطى : هـ . ا . ل فيشر ، دار المعارف بمصر ، ط ٣ ، (بلا تاريخ) .

تاريخ الدَّولة العربيَّة : يوليوس فلهاوزن ، ترجمه عن الألمانية د . محمد عبد الهادي أبو ريدة ، الألف كتاب (١٣٦) لجنة التَّأليف والتَّرجمة والنَّشر ، القاهرة ، ١٩٥٨ .

تاريخ الشَّرق الأدنى القديم : عبد العزيز عثمان ، جامعة دمشق ، ١٩٦٣ .

تاريخ الشُّعوب الإسلاميَّة : كارل بروكلمان ، دار العلم للملايين ، بيروت .

تاريخ الطّبري : دار المعارف بمصر ، ١٩٦٠ ، (ذخائر العرب ٣٠) .
تاريخ العرب : لويس إميلي سيديو ، طبعة عيسى البابي الحلبي ، ط٣ ، سنة ١٩٦٩ .
تاريخ العرب (مطوّل) : فيليب حتّي ، دار الكشاف ، بيروت .
تبدُّد أوهام قسيس (الحقيقة العلميَّة فوق الدِّين النَّصراني) : د . فرانز غريس ، مطبعة دار الطّباعة (الضّياء) ، بوينس آيرس ، الأرجنتين ، ترجمه عن الإسبانية : خليل سعيد ذو الغنى .
التبشير والاستعمار : د . خالدي ود . فرّوخ ، منشورات المكتبة العصريَّة ، صيدا ١٩٨٦ .
تحفة المجاهدين في أحوال البرتغاليّين : أحمد زين الدّين المعبري المليباري ، مؤسَّسة الوفاء ، بيروت ، ١٩٨٥ .
التّسامح والتّعصُّب : محمّد الغزالي ، دار الكتب الحديثة ، مصر ، ط٣ ، سنة ١٩٦٥ .
تغطية الإسلام : د . إدوارد سعيد ، مؤسَّسة الأبحاث العربيَّة ، ط١ ، سنة ١٩٨٣ .
حاضر العالم الإسلامي : لوثروب ستودارد ، ترجمة عجاج نويهض ، دار الفكر ، بيروت ، ط٤ ، سنة ١٩٧٣ .
الحركة الصَّليبيَّة : د . سعيد عبد الفتّاح عاشور ، مكتبة الأنجلو المصريَّة ، القاهرة ، ط١ ، سنة ١٩٦٣ .
حضارة الإسلام : جلال مظهر ، مكتبة الخانجي ، دار مصر للطّباعة ، القاهرة .
حضارة العرب : غوستاف لوبون ، دار إحياء التّراث العربي ، بيروت ، ط٣ ، سنة ١٩٧٩ .
الحضارة العربيَّة الإسلاميَّة : شوقي أبو خليل ، منشورات كلّيَّة الدَّعوة الإسلاميَّة ، طرابلس ، ١٩٨٧ .
دراسات في الفلسفة الإسلاميَّة : د . محمود قاسم ، مكتبة الأنجلو المصريَّة ، ١٩٦٦ .
الدَّعوة إلى الإسلام : سير توماس أرنولد ، مكتبة الأنجلو المصريَّة ، ط٢ ، سنة ١٩٥٧ .
الدَّعوة الإسلاميَّة دعوة عالميَّة : محمّد الرّاوي ، ط : دار العربيَّة .
دفاع عن الإسلام : لوراڤيشيا فاغليري ، تعريب منير البعلبكي ، دار العلم للملايّين ، ١٩٦٠ .
دور العرب في تكوين الفكرالأوروبي : د . عبد الرَّحمن بدوي ، وكالة المطبوعات الكويتيَّة ، ودار القلم بيروت ، ط٣ ، سنة ١٩٧٩ .
روح الثّورات والثّورة الفرنسيَّة : غوستاف لوبون ، ترجمة محمد عادل زعيتر ، النّاشر : عبيد إخوان بدمشق ، ١٩٢٤ .
سيرة بالتازاركوسا ، يوحنّا الثّالث والعشرين (حياته أعماله) : اليكسندر باراديسيس ، ترجمة بسام اسخيطة ، دار طلاس ، دمشق (بلا تاريخ) .
العقائد الوثنيَّة في الدِّيانة النَّصرانيَّة : محمّد طاهر التّنير ، بيروت ، ١٣٣٠ هـ .
الغارة على العالم الإسلامي : ا . لُوشاتليه ، طبعة المطبعة السَّلفيَّة ومكتبتها ، القاهرة ، ١٣٥٠ هـ .
الغزو الفكري والتّيّارات المعادية للإسلام : من البحوث المقدَّمة لمؤتمر الفقه الإسلامي ١٣٩٦ هـ ، الرّياض : جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلاميَّة ، المجلس العلمي ١٨ ، سنة ١٩٨١ .
الغزو الثقافي يمتد في فراغنا : محمد الغزالي ، دار الشّرق ، ط١ ، سنة ١٩٥٩ .
في طلب التّوابل : سونياي . هاو ، ترجمة محمد عزيز رفعت ، مشروع ألف كتاب (٩٨) ، مكتبة نهضة مصر ومطبعتها ، ١٩٧٥ .

القرآن الكريم والتَّوراة والإنجيل والعلم (دراسة الكتب المقدَّسة في ضوء المعارف الحديثة) : د . موريس بوكاي ، جمعيَّة الدَّعوة الإسلاميَّة العالميَّة ، طرابلس .
القرن الخامس عشر الهجري : التحدِّيات في وجه الدَّعوة الإسلاميَّة والعالم الإسلامي : أنور الجندي ، المكتبة العصريَّة ، (بلا تاريخ) .
قذائف الحق : محمد الغزالي ، دار ذات السَّلاسل ، الكويت ، ط٤ ، سنة ١٩٨٠ .
قصَّة الحضارة : وُل ديورانت ، دار الجيل ، بيروت .
الكتاب المقدس : دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط ، سنة ١٩٨٥ .
الكتاب المقدَّس تحت المجهر : عودة مهاوش ، دار أنصاريان ، قم - إيران ، ط١ ، ١٤١٢ هـ .
ما الَّذي تغيَّر في الحضارة الغربيَّة الاستراتيجيَّة أمْ التَّكتيك ؟ موسى الزعبي ، دار الشَّادي ، دمشق .
المثل الأعلى في الأنبياء : خواجه أفندي كال الدِّين ، ترجمة أمين محمود الشَّريف ، دار الفكر بدمشق ، ط١ ، سنة ١٩٨٩ .
محاضرات في النَّصرانيَّة : محمد أبو زهرة ، دار الكتاب العربي ، مصر ، ط٣ ، سنة ١٩٦١ .
محمد رسول الله : إيتين دينييه ، وسليم بن إبراهيم ، ترجمة عبد الحليم محمود ، ود . محمد عبد الحليم محمود ، دار المعارف بمصر .
مقارنة الأديان : د . أحمد شلبي ، مكتبة النَّهضة المصريَّة ، القاهرة ، ط٨ ، سنة ١٩٨٤ .
مناهج المستشرقين في الدِّراسات العربيَّة الإسلاميَّة : المنظَّمة العربيَّة للتربية والثَّقافة والعلوم ، ومكتب التَّربية العربي لدول الخليج ، ١٩٨٥ .
موسوعة المستشرقين : د . عبد الرحمن بدوي ، دار العلم للملايين ، بيروت .
الهلال والصَّليب : خليل خالد أفندي ، طبع في مطبعة الهداية بالقاهرة ، سنة ١٣٢٨ هـ - ١٩١٠ م .
ينابيع المسيحيَّة : خواجه أفندي كال الدِّين ، تعريب إسماعيل حلمي البارودي ، منشورات لجنة المحقِّقين ، لندن ، سنة ١٩٩١ .
يهوذا الأسخريوطي على الصَّليب : محمد أمير يكن ، منشورات دار اقرأ (مالطا) ، سنة ١٩٩٠ .
يوحنا المعمدان (يحي عليه السَّلام) بين الإسلام والنَّصرانيَّة : د . أحمد حجازي السَّقَّا ، دار التُّراث العربي ، مصر ، ط١ ، سنة ١٩٨٧ .



المحتوى

الموضوع	الصفحة
الإسقاط الثَّالث عشر : انتشر الإسلام بالسَّيف قهراً للشُّعوب	١٤٧
الإسقاط الرَّابع عشر : نشر الإسلام الرَّقيق وشجَّع عليه	١٦٢
الإسقاط الخامس عشر : نظام الطَّبقات في الإسلام	١٧٤
الإسقاط السَّادس عشر : في فتوح الإسلام ، الغنيمة هي الهدف	١٨١
مقارنة بين الاستعمار وبين الإسلام	١٩١
أي وسام تضعه البشريَّة على صدرها ،	٢٠٠
سماحة الإسلام أم سماجة الاستعمار ؟	٢٠١
الإسقاط السَّابع عشر : تعصُّب المسلمين	٢٠٣
الإسقاط الثَّامن عشر : ظُلْمُ الأَقلِّيات غير الإسلامية في المجتمع الإسلامي وقهرها	٢١١
الإسقاط التَّاسع عشر : العصور الإسلامية المشرقة عصور وسطى مظلمة	٢١٨
الإسقاط العشرون : يَعْبُدَ المسلمون ثالوثاً !؟	٢٢٤
خاتمة	٢٣٢
المصادر والمراجع	٢٣٦

